نُزهة عائلية

لوحة الغلاف بريشة الفنانة عالية الفارسي
تصميم الغلاف: سومر كوكبي

بسّام شمس الدين

نُزهة عائلية

آفاق AFAC

دار الساقي

© دار الساقي 2017
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى 2017

ISBN 978-6-14425-945-0

تمّ نشر هذا الكتاب بالتعاون بين

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 2033–6114
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

الصندوق العربي للثقافة والفنون (آفاق)
شارع سرسق، بناية شارل عون، درج مار نقولا، جميزة، بيروت، لبنان
صندوق بريد: بيروت 13–5290، لبنان
هاتف: 901-218-1-961+
email: info@arabculturefund.org
www.arabculturefund.org

تمّ تطوير هذا العمل في إطار برنامج "آفاق لكتابة الرواية" بإشراف جبور الدويهي.

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على

@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

الفصل الأول

حكّ مأمون الجزار أنفه بظاهر كفّه متحاشياً أن يلطخه ببقايا دم الثور اليافع الذي طرحه أرضاً وذبحه، وظلّ يراقب انتفاضاته الأخيرة بشفقة لا تشاهد عند غيره من الجزارين، وانتظر خروج جيرانه ليساعدوه في رفع الحيوان إلى أعلى العتبة الخشبية القابعة عند المدخل، لقاء رطل أو رطلين من اللحم نظير خدمتهم، وفي الغالب يكون زين المقهوي وحمود البقال هما اللذان يساعدانه، لأنهما يخرجان دائماً قبل شروق الشمس. وبعد أن ساعداه على تعليق الحيوان على العتبة بواسطة الحبال الحيسيّة[1] المتينة، سلخ جلده بيدين ماهرتين، وتخلّص من قاذورات الكرش والأمعاء، ورمى الذيل بحركة عصبية إلى داخل الحانوت، لأنه يحتاجه طوال اليوم لزجر الحشرات المقيتة عن اللحم المكشوف. ولم يغفل عن وضع رأس الثور المقطوع بمكان بارز في الخارج ليرى المتسوقون نوع الذبيحة التي سيبتاعون لحمها، فقد راجت مؤخراً إشاعات عن جزارين يقدمون لحوم الحمير والكلاب، على أنها لعجول وخرفان. ولهذا السبب ألزمه المتسوقون على إبراز الرأس أمام الأنظار.

١ نسبةً إلى منطقة حيس التي تشتهر بتصنيع الحبال.

كانت آخر خطوة قام بها هي قذف المخلّفات في الأرضية الخلفية لمنزله، وهي وجبة دسمة لما لا يحصى من حيوانات السوق الضالة، وحين عاد أسند ظهره المتصلب العريض إلى جدار حانوته الطينيّ المتماسك، وتنفس الصعداء مطلقاً زفيراً متعباً يطلقه على الدوام في مثل هذه اللحظة، ويظل بعض الوقت ينتظر قدوم إفطاره، تحمله له زوجته زعفران، وتضعه على الأرض من دون كلام: فتة دخن حارّة، أو خبز أبيض ساخن وقهوة قِشْر[1] وقليل من الفول أو العدس في آنية معدنية متفحمة، وتكون امرأته هادئة سادرة كطفلة أفاقت لتوّها من النوم، فيأكل في الخارج، وهي تقوم بكنس الحانوت وتنظيفه، ثم تنسحب دون تعليق، هكذا تفعل كل أربعاء، فيهز رأسه بأسف ويكلم نفسه متأوهاً: ليتها تظل صامتة بقية اليوم، لكن الجمر يختبئ تحت الرماد.

أثناء تناوله الطعام، يبدأ جسده الضخم المنهك العضلات بالاسترخاء، ويستقبل تيارات الهواء الباردة، فيجف العرق فوق بشرته السمراء مكوّناً طبقةً مصقولة لامعة تشبه ودك شحوم الحيوانات، بحيث تظهر وامضةً بوضوح على جبينه حين يغمر جسده ضوء النهار.

***

بدا السوق مكسواً بفيض دافئ من أشعة الشمس الشارقة، وهو منتصب بموضعه المخصص إلى جانب حيوانه المسلوخ. الميزان ذو الكفتين النحاسيتين يظهر على سطح المصطبة الخشبية، والمقطعة الحادة قريبة

١ هي قهوة قشور البنّ.

من كفه ممددة على الخشب المصقول، وهكذا يبقى متأهباً ليلبي طلبات أيّ زبون بسرعة قياسية، مع ذلك لم يقترب منه أيّ متسوق. استرخى قليلاً في وقفته المتحفزة، وأخذ يسرّي عن نفسه مفكراً باطمئنان، لا يزال الوقت مبكراً، فمن ذا الذي يحتمل رؤية اللحم أو شم رائحته في مطلع الصباح؟ ما زالت البطون متخمة بالفطور، ولن يفكر رجال القبائل في ابتياع مؤونة الغداء إلا حين تفتك بهم حرارة الشمس والجوع، عندئذٍ يهبّون إلى الحانوت زرافاتٍ، ويتزاحمون بلا نظام عند المدخل، وقد تحدث منازعات وشجارات لاسيما إن كانوا من قبيلتي آل طعيم وآل شهوان. لكن هنالك من يفضلون ابتياع اللحم في مثل هذا الوقت، أولئك هم أبناء القرى البعيدة أو الأشخاص الذين يكرهون الزّحام والضجيج، أين هؤلاء الرجال الطيبون؟ أين هم اليوم؟ لا أحد...

نفخ مأمون الهواء المحبوس في صدره بضيق، وشغل نفسه بالنظر إلى وجوه المتسوّقين المتوافدين إلى السوق بسياراتهم التويوتا العتيقة. أثارت انتباهه سيارة مكشوفة بيضاء ذات دفع رباعي تتقدم ببطءٍ وحذر حتى توقفت في ركن مترب موارب من الباحة. ظهر على صندوقها الخلفي عدد من رجال القبائل مقرفصين، رؤوسهم منكوشة ملبدة، وأيديهم متصلبة على مقابض بنادقهم الكلاشنكوف، وسرعان ما قفزوا بعجلة إلى الأرض ساترين أسلحتهم بأطراف ثيابهم، واختفوا وراء هيكل السيارة البيضاء.

لم يكن لديه قدر من الكياسة لكي ينتبه إلى أنّ حمل السلاح في السوق ظاهرة مستهجنة في أعراف القبائل القاطنة في تلك المنطقة،

ولهذا السبب بدا الأمر مريباً وغريباً، فدفعه الفضول إلى مراقبتها. كانت ببساطة تحت مرمى نظره، أمامه تماماً، واقفة بالعرض بشكل يوحي أنها متأهبة للمغادرة، زجاج مقدم السيارة موصد، وخلفه شخصان أو ثلاثة لم يتزحزحوا من أماكنهم، وأزعجه بقاؤهم ثابتين متوارين عن الأنظار، وكلم نفسه بأن أمثال هؤلاء المسلحين المزعجين لا يبغون التسوّق، ولا أمل في الاستفادة منهم في هذا اليوم.

كان يقف قرب المدخل خلف الثور اليافع المسلوخ المقلوب للأسفل، لا يزعجه شيء سوى الذباب الطنان ذي الأجنحة الزرقاء، الذي يحوم على اللحم العاري القرمزي اللون، فراح يهشه بواسطة ذيل الثور المسلوخ بحركات عصبية مألوفة من كفه الثخين النافر العروق. مع ذلك لم يصرف عينيه عن السيارة المكشوفة، وما زال كذلك ينتظر قدوم الزبون الأول، وهو فاتحة الرزق، وطالما يحظى بقطعة كبيرة تشجيعية من لحم الفخذ. أخيراً رأى رجلاً يقترب نحوه بمثابرة، فاستقبله بنظرة ناعمة متملقة، ومدّ كفه وتناول المقطعة وتأهب، لكن قبل أن ينطق الزبون اقتربت سيارة أخرى مقفّصة، وتوقفت في مكان غير بعيد عن السيارة البيضاء. ترجل منها نقيب قبيلة آل طعيم وانضم إليه فتى صغير بدا يحدق إلى ما حوله باهتمام وتهيب، وكأنه يزور السوق لأول مرة، وهبط وراءهما تابعان قبليان مرافقان همسا للنقيب شيئاً، وبادلهما بعض الكلمات، وهز رأسه موافقاً فغادرا المكان بهدوء، وغاصا في زحام السوق.

ظلّ نقيب القبيلة بموضعه قرب السيارة يردّ على تحيات المتسوقين رافعاً صوته المبحوح، وكأن لا عمل لديه سوى لفت الأنظار إلى

شخصه المرموق، وجذب صوته المميز المتسوقين، وحظي بالانتباه، وسرى الاهتمام إلى مأمون، فالنقيب أرحب آل طعيم زبون ميسور يبتاع كمية كبيرة من اللحم، ويدفع بسخاء.

تهلل وجهه حين خطر هذا في ذهنه، وفي الوقت نفسه أحسّ بشيءٍ من التوتر، ونظر بقلق إلى حيث كانت السيارة البيضاء واقفةً، وسأل نفسه: أين اختفى أولئك الرجال؟ وما يدعوهم إلى حمل أسلحتهم والحرص على إخفائها خلف أثوابهم؟

لم يكترث لزبونه الأول الذي بدا عليه الغضب بفعل تقاعسه عن خدمته، وانشغاله بالنظر إلى الخارج، وصرخ في وجهه طالباً اللحم، فرد بصره إليه بضيق واضح، ومدّ ذراعه إلى الفخذ ليقطع، في هذه اللحظة دوى صوت إطلاق نار كثيف، فاتجهت عيناه على نحو غريزي إلى حيث كان نقيب القبيلة واقفاً، فرآه يهوي أرضاً، بينما ركض الفتى الصغير، وغاص بين الجموع المتدافعة. كان المتسوقون يفرّون في كل اتجاه على غير هدى أو صواب، واختفى زبونه أيضاً من أمام الحانوت، وأتاح له موقعه المتفرّد أن يرى ما يحدث.

لمح ثلاثة أشقاء من وجهاء آل شهوان يعرفهم من قبل، تلوح على رأس أحدهم كدمة بارزة لا تنكرها العين. كانوا شاهرين البنادق بأيديهم ويدوسون بأحذيتهم جسد النقيب أرحب بحقد وتشفٍ غريبين. شُلَّت حركة مأمون أمام هذا المشهد، ووقف متجمداً ينظر ببلادة، وسرعان ما ظهرت الباحة خاليةً من البشر، ماعدا الفتى الصغير الذي ظل يتخبط بوضوح أمام الحوانيت الجانبية الموصدة. بدت شفتاه منفرجتين جافتين والخوف يسيل من تقاسيم وجهه الضئيل الشاحب، ومضى

يركض صوب آخر حانوت مفتوح بيأس، وتوقف يتأمل في وجه ذلك الرجل الضخم المذعور، لا تفصل بينهما سوى بضع خطوات. وأخرجت النظرات المسترحمة الرجل من جموده، وعرف أن الفتى يطلب المساعدة، فتمنى لو يلوذ بحانوته من تلقاء نفسه، واستغرب بقاءه بلا حراك رغم الخطر المحدق به. لم يدرك مأمون أنّ جسده الضخم كان يسدّ المدخل، وأتت أصوات المسلحين التحذيرية كأنها قادمة من بعيد: "أيها الجزار، أوصد حانوتك، لا شأن لك، دع الفتى..."

هرعوا صوبهما صارخين، فتراجع خطوة إلى الوراء بخوف تلقائي، وقفز الفتى إلى الداخل، فسحب مأمون باب الحانوت وأوصده بسرعة، وسمعهم يصيحون من الخارج.

– افتح أيها الجزار اللعين.

ثم أمطروا الباب الخشبي بوابل من الرصاص، في محاولة مستميتة لتحطيمه أو إصابة الشخصين المختبئين، لكنهما لم يتحركا أو يتفوّها بحرف واحد. ظلا منبطحين حاشرين جسديهما خلف خشب التقطيع المتين القذر، وبعد لحظات قصيرة قاسية سمعا صوت هدير قويّ لمحرك سيارة أخذ يتلاشى حتى اختفى، وعقب ذلك انبعثت أصوات الغضب والاستغاثة من هنا وهناك، واستطاع مأمون الجزار أن يميز أصوات جيرانه البَيَع[1]، ففتح الباب ببطء وتسلل والفتى إلى الخارج دون أن يلاحظه أحد.

كان المتسوقون والبَيَع يشكلون دائرةً كثيفة حول جثة نقيب القبيلة، وأراد الفتى الاقتراب من الحشد المتجمهر، لكن مأمون الجزار جذبه

١ أصحاب الحوانيت.

قسراً، ثم صارا يجريان كمجنونين صوب أحد المنازل الطينية الوضيعة التي تخص فئة البَيَع، وبمجرد أن دخل منزله، ووقعت عيناه على زوجته حتى ارتدّ إليه وعيه، كان صدره يعلو وينخفض بأنفاسه المتقطعة، ولم يستطع الكلام.

انتبه فقط إلى نظراتها الحادة المرتابة المصوبة ناحية جانبه الأيمن، إلى حيث يقف الفتى الغريب، كانت ملامحها المصفرَّة، إضافة إلى أطرافها الراجفة، تؤكد فزعها المسبق إثر إطلاق النار في السوق، أما وقد أتى في غير موعد أوبته لاهثاً، وبمعيته فتى غريب فذلك لا ريب ينبئ بوقوع كارثة، وضلوعه في أمر خطير، قرأ ذلك في عينيها الزائغتين.

ظل فمها مفتوحاً للحظات، ثم شرعت تجاهد لتحرك شفتيها بطريقة توحي بإصرارها على قول شيءٍ ما، لكنها عجزت عن التعبير، واكتفت بالتحديق إلى الفتى بعينين متسعتين مفعمتين بالدهشة. ولم يجد كلماتٍ تخفف من حدة آلامها. فانفجر قائلاً بصراحة غير معهودة:

– لقد أنقذت الفتى من رجال آل شهوان.

لحسن الحظ، لم تستطع أن تعبر عما يتأجج داخلها من انفعال، إذ سقطت في نوبة طويلة من التبلد استمرت بعض الوقت، ما أتاح له أن يهدأ ويسترد أنفاسه قليلاً، وما إن أفاقت حتى أبعدت ابنها جابر عن الفتى الغريب، كأنه حيوانٌ مريض، ورمقت زوجها بنظرة مأسوية قائلة بإحباط:

– قضي علينا بسببك، ماذا تنتظر؟ إذهب وسلّم نفسك لآل شهوان، لا أريد أن يتأذى أحد في منزلي.

أجاب بنبرات مضطربة:

– لا أظنك جادة في ذلك.
– لن تبيت في المنزل حتى تصلح ما أفسدته.
– آح، ماذا أصلح يا زعفران؟
– لا أدري، عليك أن تطلب صفح أولئك الرجال.
– لن أخلد إلى النوم حتى يستقر المسكين في منزله أولاً.
– ليس هناك مسكين أجدر بالشفقة منك، أما الفتى فستهب قبيلته لنجدته في أسرع وقت ممكن، وسنرى المئات من الرجال...

قاطعها صوت خبطٍ قويٍّ على الباب المعدني، وتقدم ربّ المنزل بخوف وفكّ مزلاج الباب بحذر، فاندفعت أجساد بشرية وقذفت به إلى الداخل رغم ضخامته حتى ارتطم بجدار المدخل، ولما أفاق من دهشته كان الفتى قد اختفى. لم يكن لديه وقت للتفكير أو المناورة، ولم يعد يجهل ما يجب أن يقوم به. امرأته، رغم قسوتها، لا تبتعد كثيراً عن الحقيقة، لكنها تخلق حوله ضوضاء عارمة، ولا تترك له فسحةً للتفكير أو بصيص أمل، إنها متشائمة ومتبرمة بطبيعتها، وقد عرف ذلك قبل أعوام في ليلة الدخلة، إذ صرخت حتى أيقظت الجيران، وأغمي عليها عندما رأت دماء البكارة، وقالت له يوم ذاك بحنق:

– يطيب لك دائماً أن ترى الدماء أيها الجزار.

حدث ذلك قبل أعوام انقضت كأنها يوم واحد، والده اختار له ابنة جزار من نفس فئته. كان ذلك الزواج خبط عشواء، مثل الكثيرين من أبناء الأرياف الذين يتزوجون على طريقة الحظ والنصيب، وهذا هو حظه وقسمته من الحياة التي قدرها له الله. ففي أحد الأيام، اجتمع في

المديرية عدد كبير من أفراد فئة البيَع لإحياء عرس نجل كبير الجزارين، وعند المقيل جعلوا يتباهون بأبنائهم، ويتحدثون عن نوع فريد من التكافل الاجتماعي بين أعضاء هذه الفئة، وعندما تحدثوا عن الزواج وهموم الأولاد والبنات، طلب له والده يد ابنة جزار سوق الأحد. ولما كان المجلس يتحدث عن التكافل والشهامة وافق الرجل على طلب الزواج، واتفقا على جميع الشروط اللازمة لإتمام الزفاف، وكان الولد والبنت آخر من علم بأمر هذا الاتفاق. مع ذلك تمّ كل شيء كما خُطِط له، وجاءت العروس تتهادى في مشيتها كالطاووس، وفي قرارة نفسها فكرة عميقة بأنها أكثر تفوّقاً على فتيات سوق الربوع[1] في كل شيء. ولعلها كانت يومئذٍ جميلةً أكثر مما توقع، لكنها من داخلها كانت خشنة وقاسية ومتفاخرة، وهو لم يكن وسيماً حسب مقياس الجمال السائد آنذاك، بل أسمر بشفتين منتفختين، ذو جسد عملاق، ظريف طيب النفس خفيف على العين، ويمكن القول إنه مقبول، ومن النوع الهادئ الذي يلقى حظوة لدى النساء المضطرات للزواج، واللواتي لا يولين الشكل أو المال أيّ اهتمام. وبمجرد أن رأته أحسّت إنها خُدعت وغرّر بها. لهذا السبب أمست حزينةً وعصبية، وظلت تتربص بالأخطاء التي تحدث من حولها مهما كانت تافهة، وإذا وجدتها أفرغت ما في نفسها من غيظٍ على رأسه. وكلما نفثت غضبها في وجهه، يتذكر أن هناك نوعاً من العسل لاذع المذاق يجرح الحلق حين نبتلعه، وهو رغم ذلك الأجود والأكثر طلباً، إذ يظن الناس أنّ فيه شفاءً لبعض العلل...

أغلق مأمون ملف الذكريات، واستدعى زعفران بنظرة منكسرة،

١ الأربعاء.

ووضع راحته بحنان على رأس ابنه الوحيد جابر، وقال بحزم من يقدم على شيءٍ رهيب:

– إن لم أعُد يا بنيّ، إبحث لك عن مهنة أخرى في السوق لتعيل بها أمك.

تعلّق جابر بثياب والده وهو يقول بإصرار:

– أرجوك يا أبي، لا تذهب، لا تذهب.

أبعده والده برفق وقال بيقين:

– نحن من فئة البَيَع يا بنيّ، ومن حسن حظنا أننا كذلك، لأنهم يتعالون عن إلحاق الأذى بمن هم أقلّ منهم شأناً.

ثم ضمّه إلى صدره كشخص لن يعود، وودع زعفران بنظرة كئيبة متوسلة، لكنها اكتفت بالتلميح إلى قلقها قائلةً:

– لا أدري كيف سيكون حالنا من بعدك؟

سقطت هذه العبارة على مسمعه كالعسل الصافي واعتبرها دعوة للمبادرة، فتقدم إليها واحتواها بذراعيه الثقيلتين، لكنها صدّته قائلةً بخشونة مخففة:

– ألا تحتشم يا رجل أمام الولد؟ إننا في انتظارك.

– هاه ، نعم، لا داعي للقلق، لن أمكث طويلاً عند آل شهوان.

مضى بهذا الانتصار وهو في غاية الفرح والزهو، استيقظت داخله أحاسيس كانت دوماً نائمة، وجعلته لا يبالي بأيّ شيء آخر عدا ذلك التطور المذهل في علاقته وزعفران، ماذا يعني أن يقلق عليك شخص ما عند رحيلك؟ إنها بلا شك تشتاق إليه. إنها تنتظر عودته سالماً. إنها تشتهيه وإن لم تبُح بذلك علانية، إنها...

أخذ يسلك الطريق الجبليّ الوعر، بهيكله الضخم الطويل وكأنه أحد أعمدة معبد "أوام" في مأرب، وأثناء مشيته ينثر الحصى ويفتتها بعقبي حذائه القوي المصنوع من الجلد المدبوغ، ومن فينة لأخرى، يرمي بصره إلى القرى المتناثرة حوله على قمم الهضاب وبطون القيعان. تخالجه تهويمات وأفكار لم تخطر في باله من قبل، وتلحّ عليه رغبة شديدة في الغناء بموال حزين عالٍ، فأطلق لحنجرته العنان وأدى لحناً عفوياً كئيباً من صناعته. سار على عجل كأن هنالك من ينتظره خلف الجبال البعيدة.

قابل في طريقه أشخاصاً يعرفهم، عندما يحيونه يرفع راحته بتكاسل ويرد تحيتهم بأحسن منها، وحين يسألونه عن وجهته، يجيب بصراحة إنه سيسلم نفسه لآل شهوان، لكنهم لا يصدقون، ويظنون أنه في طريقه ليبتاع ماشية من أحد الفلاحين، وهو في العادة يسعى إلى توفير الذبيحة اللائقة بزبائنه المعتادين، فيبتاع ثوراً يافعاً قبل يومين من انعقاد السوق، وبالحجم الذي لا يفيض أو ينقص عن حاجتهم، ثم يقوم بتعليقه عارياً من الجلد عارضاً اللحم ذا اللون القرمزي، ثم يبيعه بالتجزئة، حتى لا يبقى منه آخر النهار سوى فخذ يعود به إلى منزله، وفي أول يوم لمزاولته العمل وهو في العاشرة من العمر، كان مرغماً على ذبح دجاجة ثم خروف ثم عجل.

يوم ذاك حضر لفيف من أصدقاء العائلة للاحتفال بالمناسبة، وأغلبهم من الجزارين والبَيَع. ووقف أبوه فوق رأسه بشاربه الضخم ونظراته القاسية ممسكاً مقطعة اللحم الحادة. كان الفتى يعلم أن الأداة ستبتر جزءاً من جسده إن لم يفعل، ليس هناك في عُرْف الجزارين شيئاً أسوأ

من كراهية المهنة، أو عدم الحفاظ على التقاليد. جدّه تصرف مع والده على هذا النحو، وهو نفسه ربما سيجبر ولده على أن يفعل ذلك، ولعل جابر بعد اليوم لن يحمل مقطعة أو مدية، بل سيختار مهنته في السوق بنفسه، من يدري ما سيحدث؟

دار كل ذلك في ذهنه، وهو يمشي بانفعال لا يدري إن كان على الطريق الصحيح، والسبب يعود إلى أنه لم يغادر مجزرته في سوق الربوع منذ وقت طويل، لأن الجلابين[1] كانوا يوفرون له حاجته، لذلك راح يسأل عن مركز قبيلة آل شهوان الرعاة والمارة الذين يصادفهم في طريقه المتعرج. وكان لا بد له من التوقف لالتقاط أنفاسه بعد نهار مضنٍ من السير الدؤوب.

ارتاح قليلاً تحت حائط مهدم في قرية مهجورة تقع عند حدود القبيلة التي يقصدها، أخذ يتأمل الشمس الغارقة وسط شفقها الأصفر، وفكر في مكان يأوي إليه. ثم أسرع في مشيه مخلفاً وراءه عدداً من البيوت الخربة، آملاً أن يعثر على مكان آمن صالح للمبيت. وعند منزل صغير عامر هو الوحيد الآهل بالحياة، سمع نباح كلب يحذره من الاقتراب، ولمح بالقرب من ملجأ مكتمل البناء بقرةً بيضاء تحرك خطمها وتهز أذنيها في الفراغ، فاقترب أكثر، وارتفع نباح الكلب أيضاً، وازدادت خطورته. وأثناء ذلك خرجت امرأة تستطلع، وطردت الكلب بعيداً، ثم فحصته بعينيها وتبادلت معه بعض العبارات القصيرة، كان ذلك كافياً لتطمئن وتدعوه إلى الداخل بهزّة عصبية من رأسها.

استقر أخيراً وسط غرفة كئيبة هادئة، وأخذ يتبسم بتملق كما ينبغي

١ فئة تأتي بالأبقار من القرى لتبيعها في الأسواق.

لغريبٍ أن يفعل تعبيراً عن امتنانه. وبعد قليل من الوقت استبشر بعودة المرأة مرتدية جلباباً محتشماً، وتحمل قنينة لبن وقدح قهوة يمنية، وضعتهما أمامه وانصرفت دون كلام، ثم عادت سريعاً وهي تسند عجوزاً تبدو عمياء، صغيرة الجسد، محدبة الظهر، ترتدي بزة قديمة مخططة وتزين عنقها حلية فضية بدت كأنها خرجت للتو من متحف الموروث الشعبي، وبعد أن اتخذت موضعها المعهود الذي تستقبل به عابري السبيل، أشعلت المرأة فانوساً فضياً يتدلى من السقف بواسطة قضيب معدني ينتهي بخطاف معقوف، وانطلق ضوء مبهر أصفر يميل إلى البياض، وعرف مأمون أنّ عليه أن يتكلم، ولم يجد في ذهنه سوى هذا السؤال المُلِح:

– هل لديكم متسع لعابر سبيل لليلة واحدة؟

علا صوت العجوز قائلة:

– يمكنك المبيت في مأوى الأجراء، لكن اسمع ما أقول لك...

أفصحت أنها لا ترغب في أن تتعرف على كل عابر سبيل، لكنها ترغب حقاً في أن تتحدث إلى أيّ شخص يصغي إليها بانتباه. أنبأته أنها تعيش منذ سنوات طويلة في هذا المكان الخطير الفاصل بين القبيلتين، وتملك وادياً خصيباً يكسبها الغلال والمال، ويعمل لديها عدد من الأجراء، وتعيش ها هنا في دعة وسلام، ولا تريد شيئاً من الله سوى مساعدتها على الحفاظ على هذا الوضع الآمن من العيش. وتكلمت عن نفسها كثيراً، إنها "سودة" حكيمة الأعراف في آل شهوان، وأكبر الناس سناً في تلك الأصقاع، وليس هناك من يستطيع تقدير عمرها، لأن جيلها قد اندثر، ولا يعرفها الناس إلا على هذه الهيئة. عجوز غابرة

عمياء تدير شؤونها وتعيل نفسها رغم ضعفها، وغرقت في الحديث عن انجازاتها وعراقة أرومتها ونفوذها الممتد إلى العشائر المحيطة بها، فهي الأم الكبرى لعائلات كثيرة، وكل شخص فيها ينتمي إليها بنسب معلوم، كانتساب الورق والأغصان إلى ساق شجرة عتيقة، لهذا لم تعد تذكر عدد أحفادها وأقاربها، وصارت تجهل الأجيال الصغيرة الناشئة، ما يدفعها إلى اعتبار كل شخص يصادفها يمتّ إليها بصلة ما، وما زالت رغم شيخوختها تتذكر أشياء كثيرة من تفاصيل الطبيعة المحيطة بهم، وتعرف الكثير من القرى والعشائر والطرق والأحداث الصغيرة والكبيرة، ويقول بعض الأهالي على سبيل المبالغة بأنها تعرف البحر عندما كان جزءاً من اليابسة قبل أن يسكن فيه الماء والكائنات البحرية.

كانت قريتها تعجّ بالناس، لكن نيران الحرب التهمتها، ولجأ أهاليها إلى أقارب لهم في عمق قبيلة آل شهوان، غادر عشرة من أحفادها، الذين غدوا أجداداً، بصحبة أبناءٍ وأحفادٍ لهم يحاربون في صف القبيلة، كلهم هجروا القرية ووادِيها مستجيبين لنداء الحرب، وبقيت معها ابنة أحد أحفادها المتوفين، وقد خابت مساعي القبيلتين اللتين حاولتا التأثير على قرارها. أحفادها في آل شهوان حاولوا إخافتها من الخطر المحدق بها قبل أن يفرّوا من القرية، وآل طعيم قصفوا البيوت بنيران كثيفة قبل أن يقتحموها، لكنها خرجت إليهم من تحت أنقاض حائط مهدم، شاهرة في وجوههم عكازها، أو بالأصح سلاحها الوحيد، وأخذت تصيح بلا وعي:

– الأعراف لا تجيز لكم مهاجمة المساكن، وترويع الأهالي العزّل

والحيوانات، هيا اذهبوا لتنفضوا ضغائنكم على قمم الجبال كما يفعل الرجال الشرفاء حين يجبرون على ذلك.

ثم تنفست عميقاً واستجمعت أقصى قوتها لتضيف:

– اخرجوا من قريتي، أنا سيدة هذا المكان، أنا امرأة هرمة لا أرى شيئاً ولكني سأقاتلكم.

وأخذت تهش عكازها في الهواء بضعف شديد، وسمعت بالقرب قهقهة المحاربين وسخريتهم، وعلا صوت رجل صارم ينهرهم عن الضحك، وبعد ذلك سمعت اسمها يتردد بوقار وتبجيل في أفواه المهاجمين، وازداد الأمر حيرة والتباساً، ولم تفهم شيئاً مما يدور حولها بسبب انطفاء بصرها واندهاش بصيرتها.

– ماذا تريدون من جدتكم حكيمة الأعراف "سودة" آل شهوان؟

– لا شيء أيتها الجدة، لا شيء، ليعلم القاصي والداني في آل طعيم أنك في أمان، ولن أتقدم ورجالي خطوة واحدة تقديراً للأعراف.

وانسحبوا تاركين المكان خالياً منهم. بعد ذلك صرخت في الفراغ طالبة المساعدة، وجاءها صوت حفيدتها اليافعة، كانتا شبه مخدرتين كأنهما تحلمان أثناء النوم، حيث لا يصاب الحالم بأذى رغم فداحة ما يحلم به، ما زالت تتذكر عندما سألت الفتاة:

– جدتي ، ماذا يحدث؟

– لا أدري يا بنيتي، لديك عينان مضيئتان، لكن الأعراف بخير، وهذا هو نقيب آل طعيم يعطينا الأمان.

وجاء من أعانهما على ترميم جزء من دارهما الخرب، وأولئك هم مجموعة عمال لا يتجاوزون أصابع اليدين، وقد بعثهم النقيب قادري

آل طعيم، أما هي فما زالت محتارة، لا تعرف بعد لِمَ فعل النقيب قادري ذلك. أحياناً يشفق الأقوياء على ضحاياهم، وفي أحايين أخرى يكون الدافع الكرم أو الكبرياء أو الخوف من لوم الآخرين واستهجانهم، لكنها تعلم جيداً أنّ مبعث كلّ تصرف نبيل لأيّ محارب هو احترام الأعراف.

– حدث هذا قبل أعوام.

ختمت العجوز كلامها بهذه العبارة، وها قد أصبحت الفتاة اليافعة امرأة عانساً في الثلاثينات من العمر، كانت تقف عند قدمي جدتها تحك باطنهما، وقد زالت آثار القسوة عن وجهها الريفي وافر النضج، وبدت محايدةً ومبالغةً في صمتها ووقورةً كمتدينة تخشى فتنة الكلام. ومن حين إلى آخر تهزّ رأسها حتى لا تخبو حماسة الزائر، فيغادر قبل أن تفضفض جدتها ما في حوصلتها من حديث، فتكتئب عندئذ عدة أيام.

استخرج مأمون من مخلاته قرصين من كعك الشعير أكلهما باللبن وشرب قهوته على وقع حديثها المتسلسل...

ثم قاطع حديثها قائلاً فجأةً:

– النقيب "أرحب" قُتل وسط السوق يوم أمس.

ارتعش جسد العجوز وضربت عكازها في الأرض بضعف شديد، وهتفت بفجيعة:

– من انتهك الأعراف يا بنيّ؟

أتيحت له الفرصة ليتحدث رغم اعتقاده أن لا أهمية تُذكر من سرد أحداث مرهقة على مسمع امرأة عجوز معمّرة.

ولما انتهى خاطبته بصوت متهدّج:

– إذا كان يجب أن تموت دع الموت يبحث عنك.

– أنا جزار ليس إلا.

– بل أنت تبحث عن ثور تبتاعه، يمكنك قول ذلك، ليس لك هدف آخر، وإن افتضح أمرك، لا تنكر أنك من فئة البَيَع.

وأخيراً بددت حيرته وخففت من إحباطه حين أردفت وهي تمسح دموعها:

– لن يدعك الكلب وشأنك ما لم ترافقك حفيدتي إلى المأوى.

سار وراء المرأة مستعيناً بضوء فانوس صغير، إلى أن وصل إلى بناء خلفي كبير، وعند باب واسع توقفت قليلاً، ثم مضت بعصبية دون أن تمهله حتى يهيئ نفسه للنوم، وصار عليه أن يتدبر أمر فراشه بنفسه. ألقى نظرة ضبابية عابرة إلى الداخل، بالكاد لمح خيال آدميين ممدودين مكدسين في مجال مظلم. هيئ له أنه رأى طيفاً أسود من البطانيات مكوماَ في إحدى الزوايا. كانت الأطلال المهجورة في الخارج مخيفة، والليل شديد الظلام، ولكن أنفاس الرجال القوية أيقظت في روحه الإحساس بالأمان، فأخذ يتلمس طريقه مهتدياً بشخير أنفاسهم، حتى استطاع أن يعثر على موضع فارغ صالح للنوم.

أفاق في جزء من الليل على صوتٍ فظ يرتل القرآن، ثم لمح خيال آدمي يصلي ويهتز بشكل فجائي غريب وهو يردد أكثر من مرّة الآية القرآنية "قلنا اخرج منها فإنك رجيم...". لم يدرك هل ذلك الارتعاش الفظيع مبعثه الخشوع والتأثر، أم الحقد على الشيطان. في الجوار صدح صوت الديك معلناً الفجر، عندئذٍ جفا النوم عينيه، ففي مثل هذا الوقت يكون في منزله منزوياً قرب الموقد الفخاري، منتظراً

استواء قهوة البن داخل جرة الفخار الصغيرة، يجلس وامرأته بالقرب من النافذة المفتوحة يتأملان الخارج بصمتٍ تام. لحظات جميلة من الصفاء والوئام بينهما، هو يشرب قهوته ويدخن غليونه المحلي، وهي مخدرة مكومة بجانبه كأنها عروس ما زالت خجلة مما حدث في المساء، ولكن لا تلبث تلك الوداعة أن تزول حين تشرق الشمس ويفيق أطفال البَيَع المشاكسين وتحل الضوضاء محل السكون.

شرع الرجل يتحرك بجواره بخشونة، وكان قد نسي وجوده، وأوشك أن يدوسه على بطنه، ثم تنحى جانباً رافعاً صوته الأجش، وسمعه يترنم بأهزوجة غدو الفلاح:

> يا الله بارك لنا هذا الصباح... أنا أسألك قدر علينا بالفلاح... اصلح لنا الزرع يا رب الصلاح... (احنا) طلبناك اسمع يا مجيب... (نيسان) على الأبواب يصيح... هاتوا (الذري) كما الموسم مليح... والرعد يضرب (قرَّح) الدنيا (قريح)... هل المطر (شل) نفسك يا غريب... ما أقدر أقدح ولا اخبز لك ولا... ضيفي الصيف نازل بـ(الهلا)... وبعد نيسان إذا الدنيا (حلا)... لو دقيت باب اطرش يجيب... شل نفسك لا بلادك شلها... وازرع ارضك و(العدامة) خلّها... الأرض إن ماتت تقاتلت أهلها... ويبكي عليها البعيد قبل القريب...

وهكذا أدرك أن فصل الصيف على الأبواب، أكد له ذلك صوت

الحادي المزعج الذي لا يخلو في الوقت نفسه من الأمل والحكمة، وهو ما زال واقفاً عند باب المنزل يباشر حداءه المنتظم، غير شاعر بأي ذنب يقترفه في تلك اللحظة المبكرة من الصباح.

تحرك مأمون بتململ، وتمطى متثائباً في حشرجة حادة، لكن الحادي لم يعره انتباهه، كأنّ وجوده أمر لا يخرج عما اعتاد عليه المنزل. بدا واضحاً أنّ موقع القرية المتطرف يجلب إليها عابري السبيل، أولئك الذين لا يجرؤون على التوغل عميقاً في الجبال في الليالي السوداء، لتصبح القرية، حسب التصور الحديث، كأنها محطة ترانزيت أو مركز جمرك بين قطرين جارين، وأخيراً تحرك أحد رفاقه بتثاقل، وصاح متكوراً في اللحاف :

– تترنم هكذا كلما حلّ في كوخنا ضيف.

حبس الحادي صوته، وأجاب بجذلٍ محاولاً احتواء الموقف:

– أيّ ضيف أزهى من الصيف، إنه قادم، إنه قادم.

– كثير من الناس يدركون ذلك، أنا نفسي بشّرتك بكوكب نيسان الذي يختبئ وراء الزهرة.

– أظن هذا الصيف مختلفاً عن سواه، ليس لديك خبرتي في فهم الإشارات التي تحدث الآن. رياح الغرب الخفيفة المبشرة، وميض أشعة الشمس وشدتها، حتى سماع أصوات السحالي في جنبات الدور القديمة، وعلامات أخرى أحتفظ بها لنفسي.

– وأنا لديّ علامة، عندما تكف عن الصياح...

قاطعه قائلاً بيأس :

– أعرف أنك لا تؤمن بفراستي، لكني سأريك أن حصاد الموسم

القادم لن تتسع له المخازن، وسنضطر إلى إيجاد أماكن أخرى نخزن فيها الحبوب.

بعد قليل من الوقت كشفت أضواء الصبح الخافتة وجوه الأجراء، فلاحون سمر ذوو ملامح قاتمة وأجساد كادحة، وأقبلت الجدة وحفيدتها تمشيان ببطء وقالت تخاطب الأجراء الخمسة بحزم:

– ما ترونه يلمع من بعيد هي قذائف المحاربين، وليس برق الصيف، وما تسمعونه ليس الرعد، بل دوي الحرب، تأهبوا للرحيل في أية لحظة. وأنا سأرحل وهذا الرجل السيئ الحظ.

عوى الرجل الحادي عواءً حزيناً، لأنه لا يرغب في هجر الأرض، ونظر بمزيد من الحقد إلى الزائر، والشرر يتطاير من عينيه. بدا واضحاً أنّ الأجراء يمقتون الزوار، لأنهم في الغالب يأتون بما لا يسرّ، إما بأخبار سيئة، أو بنصائح في اتباع طرق عسيرة في الفلاحة والري. أسرع مأمون في الخروج من مأواهم القذر قبل أن تسوء الأمور.

حمل العجوزَ على كاهله كطفلة صغيرة، وسار والمرأة في طريقهم خارج القرية المدمرة. كانت أشعة الشمس القاسية لامعة ومتعامدة في السماء، وطائر عقاب يحلق فوق البيوت المهجورة باحثاً عن شيء يصطاده. إنها بيئة مناسبة للفئران والهوام والعصافير الصغيرة التي يتغذى عليها هذا الطائر، وفي جزء من الطريق تعثروا بمجموعة من النساء يقودهن شاب ناضج.

كانت رؤية مجموعة من النساء المهاجرات هي إحدى علامات الحرب، فإذا نشبت تنفك للتو عرى المصاهرة والصداقات بين القبيلتين، على الأقل لبعض الوقت، حتى يعود الوئام بينهما، ومن ثم

تؤوب النساء إلى أزواجهن، وتسري المحبة مرة أخرى بين الأصدقاء وكأن شيئاً لم يكن. ويبدو أن هؤلاء النسوة عائدات إلى بيوت آبائهن في آل شهوان. لم يكد أحد منهم يرى العجوز على متنه للوهلة الأولى، وحين لمحوها فرحوا لاسيما النساء، وصرن يقبلن وجهها الناشف بإجلال، وقال الشاب مختلقاً سبباً للحديث:

– أسمع دوياً من بعيد، ولا أدري هل هو صوت الرعد أم الحرب!

أجاب مأمون:

– إنها الحرب.

صاحت العجوز:

– هل أسمع رجلاً آخر يتكلم؟ أم إنها إحدى حريم قبيلتنا؟

– إنه عابر سبيل يا جدتي.

– أهو عابر سبيل؟

– إنه شاب يائس، لكنه لم يقترف ذنباً جسيماً مثلي.

– اطمئن يا بنيّ، سأحميك من شرور الأوغاد.

قال في سره بيأس: "كيف بوسع عجوز عمياء معمرة أن تنقذني؟ يا للعجب!".

كان دوي الحرب يُسمع من بعيد، وتناوبت النساء على حمل المرأة المسنة، لأن التأخر في السير ليس من مصلحتهم. كانت خفيفة جداً كورقة يابسة، والثقل المحسوس منها هو وزن عكّازها وهيكلها العظمي إضافة إلى تبرمها وثرثرتها. فجأة تلطف الجو عندما حجبت الشمس غيمة سوداء عريضة، ودوى صوت رعد حقيقي لا يصعب تمييزه، وكادت إحدى النساء أن ترمي الجدة عن ظهرها من الفزع،

لكن الشاب تناولها قبل فوات الأوان. وكلما تقدموا ارتفع دوي الحرب ممتزجاً بأصوات الرعود، وصاروا في رعب شديد، فالحرب لا تجيد أحياناً التمييز بين العدو والصديق، إنها مثل الجدة سودة عمياء، ومثلها قديمة لم تحن بعد نهايتها. وفي ذروة هذا العمر الخرافي تُحمل على ظهورهم كقطعة سلاح متآكلة، وليتها تستطيع النظر إلى الأشياء التي حولها، لكنها تقاد إلى الفوضى التي يفتعلها أبناؤها، ومع ذلك يظل في نفسها الملتهبة فضول زائد لمعرفة ما تعكسه عيون المسافرين من مناظر.

لم تقتنع بجواب الشاب:

– السماء زرقاء، لا غيوم فيها، والأرض غبراء موحشة.

– خير لي أن أحمل على ظهر بغل لو أستطيع الثبات.

– لِمَ كل هذا القنوط ؟

– هيَّا، أرحني على ظهر امرأة.

حوّلها إلى رفيقته التي نقلتها بالسرعة نفسها إلى ظهر أخرى، ثم إلى التي تليها، كلهنّ أجبن بفتور واستهتار. كيف استعصى عليهنّ فهم مرادها؟

في آخر المطاف، حملها مأمون كأنها ريشة طائر، استقرت على ظهره المفرطح، مستمتعة بذلك المقدار الرحب من السعة، سألته قائلة بدلال كبار السن:

– هل أنت مأمون الجزار يا بني؟

– نعم، أنا هو عاثر الحظ.

– أأنت فارع الطول لأني أسمع أصوات النساء تأتي من الأسفل؟

– نعم، طويل وعريض، لكن الرصاص يحصد كل شيء يقع عليه.

– نعم، عندك حق في ذلك.

وأضافت بعد هنيهة باهتمام:

– هل تستطيع أن تصف لي ما تراه في الطرق والقرى والوديان؟

– ما أفظع ما أراه، كأن أسوار القرى مدمرة، وعدد كبير من منازلها محطم، وما زال الطلاء حديثاً على الجدران، وأمتعة الناس مبعثرة بين الحطام، كأن ثلة من الأطفال ينقبون عن بقايا ملابسهم بذهول.

انفجرت العجوز صارخة وهي تلوِّح بعكازها في الهواء لتلفت انتباههم:

– أيها المهاجرون الحمقى، هل اجتزنا عقبة نقيل الحدبة؟ إن أدركنا الليل قبل أن نبلغ مشارف قرية "حازم" هلكنا.

عجز الجميع عن الجواب، فأخذت على عاتقها مهمة إرشادهم إلى الطرق التي تظنها آمنة، استعانت بذاكرتها الثاقبة ومهارة مأمون الفائقة على وصف الأماكن. يخترقون قرى صغيرة تقف على طريقهم، ويهتدون بأسمائها التي لا تتغير بسهولة مع التقادم. ليس فيها غير أطفال ونساء يكدحون في الطرقات والحقول، ألقى إليهم الرجال الأقوياء مهمة إعالة أنفسهم، بينما ذهبوا للقتال في صف قبيلتهم. كان ذلك عُرفاً شائعاً للتحالف، ومناسبة غير محببة للتعارف بين كم كبير من المحاربين، ولكنّ الذين يتقابلون في الجبال لا يأملون أن يلتقوا مرَّة أخرى، لأنهم يصبحون عرضة للموت في أية لحظة.

أخذت المجموعة تتحرك بسرعة في محاولة يائسة للوصول قبل حلول الظلام، لا تكف مرشدتهم العمياء عن السؤال عن الأمكنة، أما

الأزمنة فهي تهتدي إليها بواسطة إحساسها بوطأة أشعة الشمس على جلدها الجاف، أو بالأصوات التي تأتي من القرى والعزب القريبة، بكاء الأطفال أو نباح الكلاب أو غناء الرعاة أو صراخ النساء، كل هذه الأصوات لها زمن تستطيع تكهنه، فالبكاء والنباح والغناء أصوات تحدث عادة في الظهيرة، حين تنشغل الأمهات بالطهي أو إطعام الحيوانات، وإذ ذاك تحس الكلاب والرعاة والأطفال بالملل والجوع، أما صراخ النساء فإنه يرتفع مع دنو الليل، حين يشعرن باقتراب اللحظات القاتلة التي يقضينها متقلبات على فراشهن البارد، بأجساد ذابلة متعبة تتوق إلى ملامسة أجساد رجالهن الغائبين، لكن أصوات المؤذنين في المساجد هي أبرز العلامات، ومن قرية صغيرة ارتفع صوت المؤذن معلناً عن ميقات صلاة العصر، وقررت المجموعة إقامة الصلاة في ميقاتها تحت ظل شجرة خنس كبيرة، وطفقوا يفرشون الأرضية بالسجاجيد، وصاحت العجوز بقلق:

– أين نحن الآن ؟

أجاب مأمون الجزار:

– إننا عند شجرة خنس ضخمة على قمة ربوة.

– أعرف هذه الشجرة، إنها مثلي معمرة، آه ما كان أجملها. هل ما زالت جميلة؟

لم يجبها أحد، لأنهم كانوا مشغولين بطقوس العبادة، لكنها لم تلبث أن صرخت:

– لماذا توقفتم عن السير إذن؟ هيا، انطلقوا، لسنا في الموضع المريح.

– إننا نصلي.

– هيا أيها المسافرون، الله باقٍ ويمكنه الانتظار. أسرعوا، حياتكم في خطر.

أفلحت الجدة سودة في جذب اهتمامهم، لأنهم يحبون الحياة وإن تظاهروا بعكس ذلك، وواصلوا السير. سلكوا طريقاً جبلياً وعراً غير واسع بما يكفي. وسرعان ما جذبت أنوفهم روائح نتنة لجيف متفسخة، وتطايرت من أمامهم عشرات النسور. وهناك رأوا جثث المواشي النافقة على المنحدر، وظهرت مواقع المحاربين في الجبل المقابل واضحة للعيان. كانت هناك عين ماء جارية غزيرة تصب في الأسفل، لذا كانت الأرض مبللة زلقة، فصاروا يمشون بحذر شديد.

في تلك اللحظات تساقطت القذائف عليهم، وتصاعدت أدخنتها عالياً في السماء، إلا أن أحداً منهم لم يصب بأذى، لكنهم أدركوا أنهم في عقبة الحدبة الخطيرة، وهي تشبه مضيق خانق، وليس هناك من منفذ آخر للعبور. وأحاطوا بالجدة سودة من كل جانب، ليس من أجل حمايتها، لكن من أجل أن ترشدهم إلى طريق النجاة. وجاء صوتها مفعماً بالحزم والقوة قائلة بثقة:

– تفرقوا أيها الحمقى، تخففوا من ملابسكم، دعوا شيئاً للستر، اطلوا أنفسكم بالطين لتصبح أجسادكم أقرب إلى شكل المنحدر، هيا لا تخجلوا.

احتاروا من غرابة الحل وصعوبة الموقف، ورد الشاب بارتباك:

– حتى النساء نطليهن بالطين؟

– نعم، لا ريب أنهن ناصعات البياض وواضحات للعيان.

تحرر الجميع من بعض ملابسهم تحت ضغط النيران المتساقطة، ثم تلطخوا بالطين، ماعدا العجوز الضئيلة المتوارية خلف الرجل الضخم، وتسللوا يتقدمهم الرجال عبر المنحدر متعاقبين، ورغم خطواتهم الاحترازية ارتجّ المكان ثانيةً، وتصاعدت من حولهم أدخنة كثيفة. مرت لحظات رهيبة أنستهم أسماءهم وصفاتهم، وعللت النسوة سبب تعرضهم للقصف إلى ضخامة جسد مأمون الجزار، وحسدن جدتهن على هدوئها.

انزوين في الأسفل جانباً ليمسحن الطين عن أجسادهن العارية، ثم ارتدين ملابسهن متحاشيات الأنظار غائصات وسط الغروب، والحقيقة إن الرجلين كانا مشغولين بنفسيهما، يفكران فقط في البقاء على قيد الحياة. لم يكن هناك من جهد في جسديهما للشقاوة واختلاس النظر، وأتى صوت الجدة مرتبكاً مبدداً أفكارهم:

– هل الجميع بخير؟

– نعم.

– انتهى الجزء الشاق من الرحلة، والآن إن كان لا بد من أن نريح أجسادنا، هنالك مغارة مخفية كنا منذ زمن بعيد نأوي إليها.

ثم أشارت إلى أوصاف طريق سلكوها بحذر شديد، وساعدهم على العبور احتجابهم عن الجبل الذي يحتله المحاربون، ولم تخذلهم ذاكرة الجدة سودة هذه المرة أيضاً. لقد وجدوا آثار المغارة حيث أشارت، واستطاعوا بالكاد المرور عبر فوهة مغطاة بتوليفة متنوعة من الشجيرات الشوكية. كان التجويف رطباً بارداً من الداخل، فأخذوا يحفرون بأصابعهم أماكن لأجسادهم المتعبة، ثم افترشوا بعضهم غير

مكترثين بالآداب العامة، بل إنهم أكلوا في الظلام مستمتعين بالاستلقاء والراحة. وخرج صوت العجوز ممزوجاً بإرهاق واضح :

– نسير مع طلوع الفجر، ففي ذلك الوقت ينام المحاربون وتصحو العصافير.

ارتموا نائمين منهكين كالموتى، ونامت نوماً عميقاً على صدر مأمون. كانت مرهقة بالرغم من إنها بقيت طوال الوقت محمولة على كاهله وكاهل الشاب، إلا أن التعب الذي يتملكها كان يأتي من داخلها، من أشجانها ومخاوفها، ومن المجهود الذهني الذي أرهق روحها وذاكرتها القديمة، وللشيخوخة أيضاً إرهاقها الخاص في جسد امرأة معمّرة كفيفة البصر.

عند الفجر استيقظوا، وأخذوا ينفضون الغبار العالق بملابسهم وأطرافهم، ويتحسسون أعضاءهم بسرية تامة، لا سيما النسوة، وقطعوا المسافة القصيرة المتبقية إلى قرية "حازم" وسط ضياء داكن يصفو مع مرور الوقت، حتى وصلوا بسلام مع أشعة الشمس الشارقة. صادفوا عند ناصية القرية لفيفاً من فلاحات فقيرات وفتيان حفاة كانوا في طريقهم إلى الحقول، ولما عرفوا العجوز أخذت حلقة المحتفين بها تتضخم وتتسع، أحاطوا بهيكلها الضعيف متشبثين بردائها القديم، حتى نزعوها عن ظهر مأمون. وحملوها مسرعين صوب الدار الكبير مهللين.

ودوت الزغاريد في أرجاء القرية، وأفاق الأطفال الصغار من نومهم قافزين إلى الأبواب في فضول زائد، وأطلّ بعض الشيوخ المقعدين من نوافذ الدور القديمة، تطفر من عيونهم الدموع، لأنهم لا يستطيعون

لقاء جدتهم سودة، وبعضهم تمكنوا من العبور مستعينين بعكاكيزهم أو أكتاف ذويهم، والبعض طلب أن يُحمَل على ظهر حيوان إلى الدار الكبير. أرادوا جميعاً أن يقفوا على أخبارها، لأنها لا تأتي من دون أسباب وجيهة، ولكنها قالت بغضب:

– أين الرجال الأوغاد منتهكو الأعراف؟

صاحوا بصوت واحد:

– إنهم على قمم الجبال البعيدة يحاربون آل طعيم.

– أخبروني حين يأتون للطعام والشراب.

عند الظهيرة عبرت أعداد معقولة منهم طرقات القرية بملابس وأسلحة الحرب المغبرة، متباهين ومنهكين، ولجوجين في طلب المؤن الضرورية. رائحة الشواء والطعام المقدد ملأت الفراغ. كان ذلك اليوم مختلفاً عن الأيام العجاف السابقة، فالنساء تطهو طعاماً إضافياً على شرف الجدة سودة. سار طالبو المؤن متباهين وواثقين بأنفسهم، حتى دخلوا الدار الكبير. أطلوا كصقور أرهقها التحليق، وازدحموا على رأس المرأة المسنة ليحظوا بفرصة التحديق فيها، هتفت بصوت مستفهم:

– أأنتم طالبو المؤن؟

– نعم، وجئنا للطعام.

– ستحملون أيضاً خصلة[1] من رأسي إلى منتهكي الأعراف.

وأخرجت خصلة معقودة في طرف ردائها المخملي العتيق،

١ عندما تبعث النساء خصلات الشعر إلى الرجال فذلك يعني أقصى حدود العتب واللوم، وعلى الرجال التوقف عن العبث.

فارتفعت زفراتهم المتأففة حتى تحولت إلى أصوات تشبه العواء، ثم أشاحوا أنظارهم في جفاء، لكنهم رغم ذلك أخذوا الخصلة البيضاء وعادوا بالمؤن إلى الجبل. وسألت من حولها بتهيب:

– هل كانت أفواه أسلحتهم منكسة للأسفل أم مرفوعة للأعلى؟

حلّ الصمت لوهلة، ثم نطق أحدهم بيقين:

– أظنها مرفوعة للأعلى، بل أنا متأكد من ذلك.

حسم الأمر شخص آخر:

– نعم، نحو الأعلى.

أدركت أنها تحاول عبثاً أن تعيد الحياة إلى عروق الأعراف الميتة. في المساء أسرّت إلى مأمون بعض الأسرار والأمارات، وطلبت منه أن يراقب في الغد، فإذا أنكب منتهكو الأعراف قرب قدميها، فإن ذلك مؤشر حسن، وإن وقفوا في أماكنهم جامدين كالأصنام، فينبغي ألا يعول على حمايتها، أو يأبه لمصيرها، لأنها استوفت حياتها، وصارت اللحظات التي تعيشها مملة، ولا تنتظر شيئاً جديداً من الحياة.

ينبغي أن يمضي مسرعاً في طريق العودة دون أن يلتفت إلى الوراء. وجاء الغد ولم يحضر منتهكو الأعراف، وهذا بحد ذاته هو أقصى درجات الاستخفاف واللامبالاة، ولا يمكن أن يرجى منهم أي خير، وما كانت تظن أن يصل بهم الحد إلى درجة إهمال دعوتها وتجاهل أمر مجيئها. وطلبت منه الاستيقاظ عند الفجر، والاستعداد للعودة إلى دياره، قائلة:

– الجو ينذر بالسوء، أعرف هذا الشعور من قبل، لا أريد أن نتمرغ في الامتهان أكثر من ذلك، مصائرنا الآن أصبحت في أيدي منتهكي الأعراف.

لم يفهم أنّ كلّ شيء يصبح مباحاً عند انتهاك الأعراف حتى أجساد الطاعنين في السن، وأصر على تحقيق هدفه. لقد جاء من أجل تسليم نفسه للقبيلة آملاً أن يجد فيها قلباً رحيماً يعفو عن حماقة جزار وضيع، لكنها قاطعت أفكاره مضيفة بصوت خفيض حاد:

– لا تتأخر في العودة إلى أطفالك وزوجتك الحمقاء.

كانت الكلمات مؤثرة، ورغم ذلك ظل يفكر في العنف الذي سوف تلقاه به زعفران عندما تعلم أنه لم يطلب الصفح. لن يعود خائباً بعد كل ما كابده من عناء السفر. وقال بتأكيد:

– لن أعود خالي الوفاض، لابد أن أقابل آل شهوان.

– افعل ما تشاء.

وعقب صوتها الحزين، ساد الصمت.

***

كان صعود الجبل الوعر هو الجزء اليسير من المهمة، وأما الجزء العسير منها فهو التفكير بعد ذلك في ما جرى. في الجبل مر بأسوأ ظرف في حياته. حيث اعتقل داخل كهف مظلم يحرسه رجال بشعون لا يرى الإنسان أي أمل في النجاة بمجرد رؤيتهم. كانت تشع من عيونهم نظرات الحقد والإجرام، وتبدو رغبة الأذى واضحة عليهم وهم يقودونه إلى نقيب القبيلة. بعد قليل أجبر على الوقوف بشكل مهين أمام الرجل القوي منتهك الأعراف النقيب حسون. ورغم ذلك وقف معتدلاً بثقة شخص يظن نفسه مدركاً ما يفعل أو يقول، ولكن بمجرد

أن وقع نظره على الوجه الصارم ذي الكدمة على الجبين، تذكر أنه رآه يطلق النار على النقيب أرحب، وسأله الرجل بقسوة سؤاله المزدوج:

– من أنت وماذا تريد؟

شعر بخدر في ساقيه، ولم يسعفه الوقت والمباغتة ليفكر في جواب زائف فقال:

– أنا مأمون الجزار، وأتيت أطلب الصفح.

قهقه الرجل ذو الكدمة بصوت فج، ثم بسط أنامله للسلام قائلاً بسرور ظاهري:

– أنت في بالي على الدوام، أهلاً بك في أرضنا أيها الجزار الطيب.

تشجع إثر المديح والترحاب وصافحه وهو لا يدرك حجم السخرية التي تملأ ألفاظه، وتابع الرجل:

– ثم أي ذنب اقترفت حتى تطلب الصفح!

– كنت أظنكم ناقمين و...

– لا، أنت رجل أصيل وشهم، ولا تكذب أبداً، وأظنك رأيتني أطلق النار في السوق.

– رأيت السيارة و...

– نعم، أنا أصدقك، وبما أنك صعدت إلى مخبئي في الجبل ينبغي أن أستضيفك بعض الوقت. ونظر إلى أتباعه: أكرموا هذا الرجل الطيب.

تنفس مأمون الصعداء، وظن أنه سينجو، لكنه فوجئ بنفسه يسحب بقسوة، كانت أذرع الأتباع الخشنة تتجاذبه من جميع الاتجاهات. رنا إلى الرجل الذي أكمل معه الحوار للتو، فألفاه منشغلاً بالنظر إلى جهة أخرى، وأحس أن هناك سوء فهم من الرجال الذين يسيئون معاملته. لابد

أنهم سيدركون خطأهم عما قريب، ثم سيأتون نادمين معتذرين، ولكن عندما لفوا حول جسده الحبال أحس بالارتياب، وندم لأنه لم يسمع نصيحة الجدة سودة ويرحل إلى ولده وامرأته. وهكذا ظل معتقلاً في كهف كبير مظلم، يحرسه حارس يظل يدخل طيلة الوقت، ولا يتبادل معه أي حديث رغم المحاولات المتكررة من طرفه، وكان أحياناً يفارقه ويجلس عند المدخل ليدخن غليونه بصمت، ولا يدرك الأسير بفعل الظلام متى يطلع النهار ومتى يغرب، إلا من خلال بعض الخفافيش التي تنشط أحياناً وتصول وتجول داخل الكهف، ومن حين لآخر يلمحها متدلية بتكاسل على جدرانه وسقوفه المائلة بشدة ناحية المدخل.

وصار يُنقل من كهف إلى آخر، ويتحرك مع المحاربين من جبل إلى جبل، وهذا أضفى على أيامه الرتيبة بعض التغيير. كانت الكهوف مليئة بالزواحف السامة والحشرات المخيفة كالعناكب والخنافس والدبابير، وفي أحد الكهوف ذات الأرضية الرطبة شاهد خيال عقرب بحجم راحة اليد يتجه ناحيته، فأطلق صيحة استغاثة، وأتى الحارس وغرز خنجر الكلاشنكوف في وسط الزاحف، وأخذ يشهره أمام عينيه، مستمتعاً بصراخه وخوفه الفطري من الزواحف، وازداد اليأس في نفسه حين تعرّف على وجهين راسخين في ذهنه، وهما وجها شقيقي النقيب حسّون، وهما الرجلان الآخران اللذان رآهما يطلقان النار على النقيب أرحب آل طعيم في سوق الربوع. كانا في الجبل قائدين ميدانيين يتمتعان بنفوذ وسلطات واسعة، وطالما سمعهما يصرخان في الحرّاس، ويحشران أنفيهما في كل شيء. وسمع آسريه يتحدثون عن الحرب الدائرة بين القبيلتين، وعن وجود أسرى من الخصوم، وعن نوع

المعاملة القاسية التي يتعرضون لها، ولم يصدق ذلك في بادئ الأمر، حتى دخل الشقيقان إلى كهفه، وجعلا يسرفان في شتمه وتوبيخه، ثم وضعا نعالهما في ذقنه ووجهه، وصفعاه في خديه، وهذه أقسى إهانة يمكن أن ينالها إنسان في تلك الأصقاع، ومع ذلك ظل صامتاً حتى فقد معذبوه صبرهم فشتموه وتركوه في حاله وانصرفوا يائسين، إذ كانت لديهم مهام كثيرة وأضرار جسيمة، وقد شاهد بأم عينيه بعض الجرحى ممددين على الأرض، جراحهم بليغة ودماؤهم تنزف بشدة، ومع ذلك يعالجون بطرق تقليدية، وبأساليب يائسة، وسرعان ما يموت معظمهم بين أيديهم، ثم يدفنون داخل الكهوف. وكان يزعجه كثيراً البقاء هناك عاجزاً مصفداً يحيط به الألم والموت والدماء من كل جانب. بعد بضعة شهور أطلق سراحه لأنه صار عبئاً عليهم في ظل احتدام وتيرة الحرب، وأرادوا استغلال ضخامته في نقل الذخائر والمؤن كأي بغل من البغال التي تساعدهم على حملها إلى مواقع المحاربين.

كان سعيداً بفعل التحرك والمشي رغم العناء الذي يناله، حيث أمسى يتعرض للقذائف، بينما الرجال يحتمون وراءه وكأنه صخرة أو جدار، وكان من لحظة إلى أخرى يظن أنه سيسقط مثقوباً برصاصة أو شظية، ولما كان يرهقه التعب يتمنى على الرصاصة أن تتجه ناحية قلبه، لكنها في كل مرة تخطئه لتصيب أشخاصاً آخرين لم يتمنوها. رأى أموراً فظيعة فعلها المحاربون، كانوا يخطفون المواشي من الرعاة، ويغتصبون الفلاحات وسط الشعاب والحقول، ويغيرون على القطعان والمحاصيل ويسرقون الحملان وأكواز الذرة ويشوونها في الليالي الباردة، وكانوا دائماً يلقون التهم على الخصوم، وينتقمون من

أي شخص يقف في طريقهم، لكنه كان حذراً متكتماً، يحبس ألمه وغيظه في أعماقه، ويفعل ما يؤمر به، ويأكل ما يقدم له دون أن يند عنه أي تبرم أو استياء.

أدرك رغم سذاجته أن لا جدوى من التوسل، لذا لم يحاول أن يقترب من ذي الكدمة، أو يلقي إلى وجهه نظرة عابرة، بينما أخذ الرجل القوي يقترب منه ويعرض نفسه عليه تاركاً له فرصة مناقشته، إلا أن الأسير ظل يتجاهله ويرد طرفه عنه حتى لا تلتقي أعينهما ومن ثم يكون الحديث أمراً محتوماً. ذات مرة اقترب منه وقال بنبرات حادة:

– لِمَ لا تتكلم؟ لو كنت في مكانك لعبرت عن تذمري من سوء المعاملة التي ألقاها.

– لن يفيد التذمر، لقد جئت إليك بقدمي وأستحق أن أقضي عمري في الجبل.

ضحك الرجل، ولكن قذيفة سقطت بالقرب نثرت التراب والحصى، واختفى الرجال خلف الصخور السوداء. وراح النقيب حسّون يتحسس أعضاءه، ثم ترك موضعه بحنق، وراح يشهر سلاحه ويطلق النار باتجاه العدو. ومرت الأيام والأسابيع دون أن يفكر في المدة التي سيقضيها في الجبال، لقد أمضى كثيراً من الشهور بلا ريب، حتى اعتاد عليه المحاربون، ونسوا أنه أسير لديهم، وفوّت فرصاً كثيرة للفرار.

مع مرور الأيام، تضاءل أمله في الخروج سالماً من الجبل، وفي يوم اكتشف أن الشقيقين وحشداً كبيراً من المحاربين يقيمون طقساً احتفالياً كالمنتصرين، ولم يعد أحد يسمع صوت رصاصة واحدة إلا

ما تطلقه بنادقهم في خضم الفرحة والاحتفال. وسمع أن الحرب قد توقفت بصلح طويل الأمد بين القبيلتين، ورغم ذلك لم ينزلوا عن الجبل، وأتى الرجل ذو الكدمة وقال له ببرود:

– انتهت الحرب، واسمك من ضمن الأسرى المطلوب إطلاقهم.

– ...

– الأجدر بك أن تفرح، لقد أبليت بلاءً حسناً في الجبل واليوم حانت عودتك.

– ماذا! عودتي؟

– أنت رجلٌ ساذج من فئة البَيَع، ولا أظن موتك سيشكل فرقاً في حياتي.

صرخ أحد الشقيقين معترضاً:

– أيها النقيب، هذا الجزار أنقذ ابن عدونا، وقد رأى وجوهنا.

– وإن يكن، لقد انتهت الحرب، ولا أحد يستطيع أن ينال منا في الجبل.

ثم أضاف بصوت آمر:

– اذهب أيها الجزار، لا أريد أن ألوث شرف القبيلة بدم فرد من البَيَع، ولا تنس أن تعرج على القرية لتأخذ ميراث جدتنا سودة، فقد أوصت به لك قبل أن تلفظ روحها، ولعلها فعلت ذلك لتنقذ روحك. إن رأيتك مرة أخرى لن تفلت من يدي.

وتذكر مأمون الجدة سودة وأحس بالحزن عليها رغم توقعه موتها في أي لحظة، وتاق إلى معرفة ما خلفته له. هبط من الجبل وهو غير مصدقٍ أنه أفلت من قبضتهم، ودخل القرية سائلاً عن قبرها، وهناك

وقف على تربتها باحترام، وجاء أحد أحفادها ممسكاً بالعكاز، وقدّمه إليه بتهيب، وأحس بثقله في يده وبغرابة شكله وهو يحمله، إنه من خشب الصندل الباهظ الثمن، مزخرف بالرسوم والحروف الغامضة والأشكال الهندسية البديعة، لذا تنعكس على حامله مهابة السحرة وأرباب الكرامات.

راح يفكر في الفائدة التي سيجنيها منه! ما زالت قدماه قادرتين على السير، ولكن يبدو أن العكّاز كان رفيقاً عزيزاً للمرأة المسنة، أو لعلها أرادت أن تنقذه فعلاً أو تترك لديه شيئاً للذكرى، وسرعان ما أمسكه بيمينه كالسيف، وراح يعدو كأن هنالك من يطارده، كان في الحقيقة فرحاً بنجاته، ويتمنى أن تنبت له أجنحة ليطير إلى سوق الربوع، ومن حين إلى آخر يرمي على نفسه سؤالاً ساذجاً، هل ستتعرف عليه امرأته وولده؟ ويضحك منتشياً بسعة خياله، ويفكر في فترة غيابه التي لا يدري كم دامت، وهي مدة تبدو كدهر طويل.

كان الطريق آمناً ساكناً لا يسمع فيه أي صوت غريب، وصادف النسوة اللواتي جئن والعجوز في المرة السابقة، كن يمشين بسعادة عائدات إلى عائلاتهن. كانت الفرحة ناقصة بفعل غياب المرأة المسنة، ولكن سيرتها الطويلة حضرت، وأحياها العائدون إلى قراهم بحديث متقطع متناثر. استمع إلى حديث موجز عما جرى لها أثناء غيابه، فقد ظلت تحت الإقامة الجبرية في الدار الكبير، ومنع الزوار من رؤيتها، وهي المعتادة على التحدث والثرثرة لكل من هب ودب، تركوا لمساعدتها امرأة غليظة الطباع خشنة اليدين، تخدمها بصمت تام، وكأنها خرساء، كانت تمارس عملها بإتقان ودقة آلة، تقدم الوجبات

في أوقاتها دون تأخير، وتغسلها أربع مرات في الشهر، وتنام في الغرفة المجاورة، وإذا احتاجتها في أي وقت خلال الليل، تهز خيطاً بجانبها موصولاً بين الغرفتين، وينتهي بوصلة معدنية تشبه الجرس تصدر صوتاً منبهاً، فتذهب المرأة إليها، لتسقيها أو تأخذها من جنبها وتقودها بصمت إلى الحمام. عرفت المرأة المسنة أن هذا جزء من العقوبة التي ينبغي أن تنالها، وظلت في عذاب داخلي أليم، وراحت تناجي الموت في أغلب أوقاتها، وقبل شهر هزّت الخيط، ولما أتت المرأة ناولتها العكاز وقالت لها بعبارات واهنة:

– هذا العكاز رفيقي منذ زمن طويل ولا أملك شيئاً غيره، ينبغي أن يكون لأسيرٍ في الجبل اسمه مأمون الجزار، وهذه أمنيتي الأخيرة.

وفاضت روحها بهدوء وصمت، وأبلغت المرأة عن موت حكيمة الأعراف، وعن وصيتها الأخيرة، وظلت تحتفظ بالعكاز، لحين يطلق الأسير.

كان هذا الحديث مؤثراً، وفي مكان ما انفصل عن مجموعته ليستطيع التفكير والشرود بلا قيود. مرّ صعوداً عبر طرق لم يعرفها من قبل، وقرى صغيرة صامتة منزوية في بطون الجبال الصغيرة، والتقى ببعض المسافرين، وكان يخاطب من يعرفه ومن لا يعرفه قائلاً بجذل:

– أنا خادمكم مأمون الجزار، هل هذه الطريق تؤدي إلى سوق الربوع؟

صارت هذه الكلمات جواز مروره، يفعل ذلك عن طيب خاطر، وبهذا لم يواجه أي مشكلة حتى وصل إلى سوق الربوع. وهناك وجد الخراب والفوضى. وارتاب أن يكون قد أخطأ في تحديد المكان، لكن

المعالم الطبيعية المحيطة بالسوق لم تتغير. إنها نفس التلال والشعاب المائلة الشديدة الاغبرار التي يعرفها.

ألقى نظرة بائسة ناحية كوم من الأحجار والتراب في موضع يظن أنه يخص حانوته. كان منزله سابقاً يقف إلى جوار مجموعة تضم ما يربو على عشرين مسكناً شعبياً صغيراً، تخص فئة البَيَع، متجانسة في نمط البناء مع فوارق شكلية وفنية طفيفة، جلبت أحجارها من جبل قريب، وبنيت على طراز محلي خالص، لقد وحدت بينها الأضرار أيضاً، وطمست القذائف معظم ملامحها، حتى بات من الصعب تمييزها، ورغم ذلك استقام قرب بناء خرب يظنه منزله، بابه مخلوع، وسقوفه مهدمة، وجدرانه الداخلية مخربشة وقاعاته عارية من الأثاث.

وفي الداخل استطاع تمييز الأبواب المجدولة والزوايا المهشمة، وبقايا ستار أبيض يتمايل من نافذة إحدى الغرف بتأثير الهواء. لقد تحول مأواه إلى طلل بدا غارقاً في القدم، حتى الموضع الذي يخص الأخدام والشحاذين تحول إلى أرض محروقة سوداء، ينتشر في أجزائها بقايا من الزنج وقطع الطرابيل الزرقاء المهترئة، وكتل صغيرة مفتتة من الطوب الرخيص، وعند هبوب الريح تصدر من ذلك الموضع أصوات شبحية مرعبة، وكأن تلك البقعة مسكونة بالشياطين. خرج من المكان يمشي فوق أرض ميتة خالية من أمارات الحياة، وشعر بحاجة ماسة إلى المواساة.

أجال نظره إلى الجهات الأربع آملاً أن يعثر على حسّ لآدمي، رأى في أحد الشعاب البعيدة نقاطاً صغيرة بيضاء تتحرك ببطء، سار باتجاهها وجسده يرتعش من التأثر، وكلما دنا منها تكبر وتتجلى

حتى ظهرت في صورة أغنام ترعى، وبرز الراعي على نحو مفاجئ من تحت صخرة صمَّاء وفي يده كلاشنكوف، وجعل يطلق النار على أغنام شذَّت عن القطيع، فتبعثرت الحيوانات مذعورة في طول الشعب وعرضها. واختبأ مأمون خلف صخرة، وبعد لحظات خرج متسللاً رافعاً ذراعيه في الهواء ليرى الراعي أنه لا يشكل خطراً عليه، وجعل يطلب منه الهدوء حتى يجمع شملها بنفسه، لقد قطع مسافة شاسعة وتخطى كثيراً من الأخطار، ولا ينبغي أن يموت في آخر المطاف على يد راعٍ مجنون.

ظهَر الغرور وشيء من الرضا على قسمات الراعي، وراح يتأمل ساخراً عابر السبيل الضخم الذي شرع ينادي الأغنام بصفير متناغم ويقذفها بالحصى، وفوجئا معاً بها تعود بحذر إلى أماكنها، وعند هذه الوهلة طفت مسحة من الغضب والتصلب في وجه صاحبها القانط، وأخذ يشتمها لأنها دائماً تكفر بمآثره وجهوده في رعايتها وتذعن للغرباء، ولم يجد الغريب رغبة في إطالة الحديث معه وهو في هذه الحال، لكنه تجرأ وسأله عن مصير سكان السوق، والمدة التي مضت على هذا الخراب. رفع الراعي سبابته بتأفف وأجاب:

– مضى عام واحد على مقتل النقيب أرحب.

وحين سأله عن سكان السوق أضاف الراعي بسخط:

– هاه، يا لك من فضولي! اذهب إلى كازم وقد تلقى هناك خبراً.

أشار إلى منطقة بعيدة، وعاد إلى الظل تحت الصخرة، ولاحت على بُعد قرية كازم مركز قبيلة آل طعيم بمنازلها البيضاء الصغيرة المبعثرة، ومضى بلا تردد نحوها يفيض قلبه بمشاعر شتى.

الفصل الثاني

هرب جميع البيع من السوق حين سقطت أول قذيفة على منازلهم، ذهبوا إلى أقارب لهم في المديرية، لم يبق هناك غير عائلة واحدة غاب عائلها، ولم تتمكن من الهروب في الوقت المناسب، وظلت المرأة وابنها تحت النيران، يفرّان من غرفة إلى أخرى، ومن زاوية إلى زاوية، لكن المنزل كان صغيراً، سرعان ما تداعت جدرانه الأمامية، وصارت الأم وفتاها مكشوفين لا يبصران بسبب الركام والغبار الذي غمر جسديهما، لكنهما رغم ذلك لم يصابا بأذى ما عدا الخوف الذي شلَّ بدنهما، وجعلهما لا يستطيعان حراكاً. ثم على نحو مفاجئ، انبعثت من الغيب سيارة مجهولة انتشلتهما من وسط النيران. ونظرت المرأة المصدومة خلفها فرأت السوق حطاماً وأنقاضاً، وفرحت في البدء بالخروج، وأيقنت أن الله قد أرسل إلى عائلتها ملاكاً من العلياء، لكنها بعد وهلة قصيرة رمقت السائق بارتياب، وأخذت تتلفت حولها بقلق، وهي لا تشك في أنها تختطف وتقاد إلى آل شهوان، بينما حاول جابر أن يقاوم ويبدي رباطة جأشه كرجل، لكنه أخذ يسعل بفعل الغبار العالق في أنفه ورئتيه، وقال السائق بغلظة مختطف:

– لا تشتّتا انتباهي، ستموتان إن لم تطمئنّا.

هزت الأم رأسها لتوهمه بقليل من الثقة، إنه أسمر طويل، خصلات رأسه متدلية تحت شاله الأبيض، ليس بضخامة زوجها المفقود، ولكنه يبدو أشد قسوة وبأساً، إلى جانبه سلاح ناري، ويلف جسده شريط طويل من الرصاص الأصفر الرهيب. قال كأنما أحس بحرارة نظراتها تحرقه:

– أنا أعمل لدى عائلة النقيب أرحب آل طعيم.

بعد قليل من السير المتعرج السريع والالتفافات الجنونية لتفادي القذائف، عاد القلق إلى روحها، ولم تجرؤ أن تتحدث إلى الرجل. عادت تراقب الطرق والهضاب التي تقف بشموخ عن يمينها ويسارها، كأنما تحاول استنطاق تعبيراتها لتستلهم المكان الذي يسيرون إليه، لم تحس بالدوار الذي تشعر به كلما رأت سيارة تعبر وسط السوق، ربما لأنها ظلت مشغولة بشيء أعظم وهو مصير عائلتها، ولعلها خافت من عواقب الركوب أكثر من خوفها من الموت نفسه، ومع ذلك لم تتأثر في سفرها الأول، لقد انحصر خوفها الآن على مصيرهم، يا ترى إلى أي مكان تقودهم السيارة؟ وقال السائق بعد أن تجاوزوا الخطر وكأنما قرأ السؤال في عينيها:

– زوجكِ أسدانا معروفاً.

سرح تفكيرها فجأة نحو زوجها حتى خشيت أن تكون قد فقدته بالفعل، وهي التي طوال عمر زواجهما لم تحن إليه أو تخشى فقدانه. وفكرت عما يعني ذلك الشجن الغريب الذي يخالجها، وساورها شعور متشائم بأن هذا الإحساس ربما يأتي النساء حين يموت أزواجهن

في أماكن بعيدة. لكنه لم يذهب بعيداً، لقد ذهب في رحلة قصيرة من أجل أن يسترضي آل شهوان، وليس من الممكن أن يصاب بسوء. ليس لأنه غير مذنب، بل لأنه جزار، ولكن ماذا لو كان مذنباً بحيث يطغى ذنبه على العُرف الذي لا يجيز الاعتداء على أفراد فئة البَيَع.

لقد مرت بضعة أيام وهو غائب! وهي مدة تنذر بوقوع مكروه، وما زال وعده بالعودة السريعة يرن في أذنها. عند هذه اللحظة فرَّت من عينها اليمنى دمعة حارة، فمسحتها بسرعة حتى لا يلاحظها السائق أو ابنها، ومن ثم تتهم بالضعف أو الميل إلى زوجها الذي لم تذرف دمعة من أجله مذ تعرفت إليه ليلة الدخلة. ولكنها لسبب ما تبكي، ربما فرحاً لنجاتها وجابر من القذائف، أو حزناً على مفارقتها سوق الربوع وسيرها نحو المجهول، أو من أجل الغائب الذي ألحت عليه بالخروج من المنزل، وتمنت بحرارة أن لا تصل إلى مرحلة الاعتراف بذنبها أمام هذا الرجل. كانت نظرة واحدة عبر المرآة العلوية كافية للإدراك بأنها مغتمة، عاد السائق يهدئ من روعها وهو يعتقد إنها ترثي حالها.

– تكفلت بمعيشتكم ناجية بنت أبو الحيد، هل سمعت عنها؟

– نعم، سمعت امرأتين من البَيَع تتشاجران في السوق وقالت إحداهن للأخرى: "هل تظنين نفسك ناجية بنت أبو الحيد؟" وحينها عرفت أنها امرأة عريقة النسب.

– إنها امرأة مخلصة لذكرى زوجها، تعرفين، هناك رجال لا يقدرون بثمن، والنقيب أرحب أحدهم.

لِمَ لا يسألها عن زوجها وهو المنقذ للطفل؟ أم إنه بلا ثمن لأنه ينتمي إلى فئة البيع! ولكن سرعان ما تذكرت أن الرجال لا يذهبون

أبعد من مواقع القتال، والسؤال عن مكان رجل في أيام الحرب ما هو إلا ضرب من الغباء، وذلك لأن جميعهم صعدوا نحو رؤوس الجبال للثأر والانتقام. أضاف السائق بحرقة:

– لقد انتهك آل شهوان العرف القائم منذ الأزل، وحرمونا من أبينا الحنون النقيب أرحب، لن تسكت حناجر البنادق أبداً.

وبدأ يشرح لها الطريقة التي استقبلت فيها ناجية خبر مقتل زوجها، لقد تزلزل كيانها ودخلت غرفتها ولم تخرج منها إلا بعد أيام، ورغم ذلك لم تذرف دمعة واحدة، فالموت بمثل هذه الحوادث ليس غريباً على الأهالي، لكن المؤلم في الأمر هو أن يُقتل نقيب شهير وسط السوق في عز الظهيرة، وما مقتله سوى ثمرة أحقاد خسيسة من خصومه الذين عجزوا عن إيقاف مجده الصاعد وصيته الطائر في كل الأرجاء، فقرروا غدراً إيقاف حياته الغالية، ناهيك أنه كان قد قدم طلباً لمشروعين إلى وزارة الإنشاءات والمشاريع، لينتشل القرويين من جهلهم وأمراضهم، مدرسة ومشفى، لكنهم سيدفعون الثمن الباهظ جراء فعلتهم المنكرة. ورغم توقها الشديد للمواساة لم تستطع إقحام زوجها في الحديث. لقد تحدثا عن أشياء كثيرة إلا عنه، حتى السيارة حظيت ببعض المديح والشكر، وظلت في المنعطفات المتعرجة تقفز وتحن بشدة كأنما يسوء مزاجها وتتفاعل غاضبة جراء ما حدث، أو تضطرب خجلاً من الثناء.

إنها رفيقة الفقيد منذ خمس سنين، لم يستبدلها رغم نزول موديلات أحدث إلى معارض البيع في المحافظة، لم يستغنِ عن خدماتها رغم إمكاناته المالية الكبيرة. أحب فيها أصالتها وقوتها ومتانة حديدها،

وهي خفيفة ومريحة وسريعة وقليلة الأعطال، وقد وثق بها في معظم الأوقات، وبادلته الثقة فلم تخذله في الطرقات الوعرة، ومن أجل ذلك أحبها كما لو كانت فرداً من عائلته، حتى يقال إنه خشي عليها أن تصاب بالرصاص يوم مقتله، لذلك لم يلجأ إليها وسار باتجاه الخصوم، ولو كان على متنها حين بوغت بالهجوم لاستطاعت أن تقيه الخطر.

أخيراً ظهرت المساكن، وخففت السيارة من سرعتها، ووقفت فعلاً إلى جانب منزل متوسط الحجم ضيّق النوافذ يعتبر قصراً مقارنة بمساكن البيع الوضيعة. وهناك وجدت الأم في المخزن بعض المؤن، وعثرت على أغطية وفُرُش تكفي العائلة المؤلفة من امرأة وولد وعائل مفقود، وبدأت تسبر أغوار الغرف الخمس الصغيرة وتنظفها، يساعدها ابنها جابر، ولما أحست بقليل من الأمان ألقت نظرة فاحصة عبر النافذة إلى الخارج.

كان هنالك حركة دائبة في قرية كبيرة تضم مساكن قاتمة غبراء متناثرة هنا وهناك، ورجالاً يحملون المؤن والعتاد الحربي على ظهور الحمير والبغال، وفي فترات متقطعة تُسمع أصوات الطلقات النارية ودوي قنابل تتردد بقوة في الجبال القريبة. تحس زعفران بوحشة شديدة، وتستعيد ما حدث في السوق، ويقشعر بدنها من هول الموقف، وفي كل يوم يمر يتضاعف إحساسها بأهمية وجود الرجل في العائلة. في البداية شعرت بالندم الشديد لأنها أرغمته على مغادرة المنزل، ثم أمست مستاءة منه، لأنه لا يتصف بالقدر الكافي من العناد، فالرجل الثقيل اليد والكلمة هو المفضل لدى غالبية النساء هناك، أما زوجها فهو يذعن إلى السلام ويتفادى إغضابها بشتى السبل، ولكن ألا يجب

أن يكون فظاً في بعض الأحيان؟ أما ينبغي أن يتخلى عن روتين لطفه الذي يكون لائقاً أكثر بالنساء؟ هنا في هذه الأرض التي لا ترحم، ينبغي أن يقود الرجل العائلة ويتولى توجيهها، أما النساء الحمقاوات فإنهن يحببن التملك والاستئثار وإثبات أنهن قادرات على فعل كل شيء. هكذا لخصت زعفران موقفها، ورغم مرور أكثر من سنة على الحادث ما زالت تشعر بالحنق، حتى إنها يئست من عودته، وباتت تضع نفسها على قائمة الأرامل الطويلة في قرية كازم. خلال هذه المدة لم يزرها أحد من الجيران، ولم تتحدث إلى أي إنسان، حتى زارتها قبل أيام ناجية بنت أبو الحيد. كان السائق الذي أنقذهما يرافقها ومجموعة من الرجال المسلحين ذوي القعاش[1] الملبدة. بدت طيبة رغم قسوة ملامحها، وقد زودتها بالمؤن، وطبطبت على رأس جابر، ووعدتها بالسعي لتحرير زوجها من الأسر.

***

هاهي تنظف المنزل اليوم وتتمنى لو يأتيها أي خبرٍ عن الغائب، حتى لو كان سيئاً، وصارت تخاطب جابر الذي أجبره الغبار على الخروج لتنفس الهواء النقي في الخارج:

– انظر ما فعل والدك يا جابر، ما كان ينبغي أن يذهب إلى آل شهوان، أرجو يا بني ألا تخنع للمرأة التي ستكون زوجتك في يوم ما،

١ جمع قعشة وهي الشعر الكثيف المتجعد القذر الذي يتربع على رؤوس المحاربين.

النساء ناقصات عقل وميراث كما يقال.

– أبي إنسان طيب، ماذا تريدين أكثر من ذلك؟

ردت بغضب شديد:

– أنت صغير لا تفهم شيئاً، أريد رجلاً في المنزل، ألا تسمع الرصاص والقذائف؟

صرخ جابر فجأة بصوت مفعم بالنشوة كطفلٍ ناضج:

– أمي، جاء أبي، هاهو أبي.

– كف عن الهزل، ما بالك تصرخ كالمجنون؟

– إنه أبي.

كان الرجل الضخم يقترب من المدخل ببطء وحذر، كأنه لا يدري أين يتجه وماذا يفعل! كانت علامات الرهبة والغرابة من المكان ظاهرة عليه، وكذلك الخوف الذي نجم عن الأحداث التي عاشها أثناء غيابه. وظل الولد المسكين يضج صارخاً من الفرح. خرجت أمه مرتابة ومرتبكة بعد أن أعياها الضجيج، فرأت زوجها بشحمه ولحمه يقف متجمداً، وكأنه غريب ينتظر الأذن بالدخول إلى ملكية غيره، أصبح هزيلاً كالمريض، تطل من عينيه الدهشة وذلك السؤال المتوقع عن أحوالهم وعن ظروف انتقالهم إلى هذا الموضع الغريب، ولكن اللحظة لا تسمح بسؤال وجواب، وفي نفس الوقت كان يخشى من لسان امرأته، لكنها نظرت إليه بفرح حاولت عبثاً أن تخفيه، وقالت لتشجعه على الاقتراب والنطق:

– أدخل، تبدو شاحباً كأنما رجعت من الموت.

لم ينطق بحرف واحد، بل دخل وقفز على الفراش كالغواص حين

يقفز في الماء، لم يسأل أو يطلب شيئاً، لقد قام بتأجيل جميع الرغبات لحين يرتاح ويشفى من الإرهاق، وغط في نوم ثقيل، وحين أفاق في المساء وجد صفاً مضيئاً من الشموع، واستنشق رائحة الطعام التي تأتي من بيت النار، وبعد لحظات وضعت أمامه المائدة كضيف عزيز. كان ينتظر أن تبادر امرأته ويسمع منها تفسيراً لما حدث. كانت حركاتها توحي باللامبالاة المعهودة، بدا في عينيها خيال فرحة مختبئة وشيء من شجن، ودام الصمت بضع دقائق حتى انفجرت قائلة بغضب:

– إلى متى ستظل هكذا ساكتاً كأنك عروس ريفية صغيرة في ليلة دخلتها؟

– وماذا يمكن أن أقول؟ ها قد عدت وكفى، بحثت عن جثثكم في أنقاض السوق.

– لولا أتباع آل طعيم الذين أنقذونا من القذائف كان يمكن أن تبتلع جثثنا الكلاب والضباع.

– حمداً لله.

اكتفى بذلك، ولاذ بالصمت متطلعاً إلى جابر ببهجة فقير عثر على كنز، وحبذ عدم إثارة المواضيع الشائكة مرة واحدة حتى لا يتوه في غمارها، أو يفتح ثغرة للهياج الأعمى الذي لن ينتهي بسلام، وما دامت امرأته هادئة فهذا من حسن الحظ، ولعل المتاعب التي مرت بها قد صقلتها وجعلتها تعيد تقدير الأمور.

مضى يغمس الخبز الحار وسط صحن الفول ويبتلعه بشراهة، ولم يأبه لغياب اللحم عن المأدبة، وكأنه يود ألا يدرك أن اللحوم والحانوت لن يعودا إلى حياته ثانية، وهذه من الأمور التي لا ينبغي أن يفكر فيها

ذلك المساء، وإلا فإنه لن يتذوق نكهة الهدوء والنوم، ولعل من أهم أولوياته أن يشكر من أنقذ عائلته، ومنحه هذا المسكن البسيط، لذا لا يجب أن ينشغل الآن بمسألة البحث عن مهنة جديدة، لأنه لا يعرف شيئاً عن أسباب وجودهم هنا، ولا يتكهن المدة التي يمكن أن يُسمح له باللجوء في هذا المنزل، ولعل هناك الكثير من الأشياء التي تأتي دون ترتيب مسبق...

وقطعت امرأته حبل أفكاره بدموع غريبة ولهجة أقرب إلى الشكوى:

– أنتظر منك أن تكون صارماً كجزار أصيل، لقد ترعرعت طويلاً في منزل أبي، وكان إذا دخل المنزل ترتعش النوافذ، وإذا غضب وصاح نتبول في سراويلنا. أما أمي فكانت تتحرك متحاشية النظر في عينيه الناريتين، وإذا خرجت من غرفته تكون مبتهجة تخفي سرورها بما منحه لها على الفراش، وتعرف الجزار مسعود والجزار إبراهيم...

قاطعها قائلاً بضيق:

– لِمَ تقولين ذلك؟

– أشعر بالخزي لأنني جعلتك تذهب إلى آل شهوان. أريدك أن تغضب مثل كل الجزارين وتعاقبني على ما بدر مني من ذنب.

نظر زوجها حوله بغرابة، ربما تتغير أفكار الناس جرّاء اختلاف الأماكن أو الطقس. ورأى ولده جابر ممتعضاً من الحوار، فأجاب بشيء من اليقين:

– ولكني لم أشأ في يوم من الأيام أن أكون جزاراً، لم تعلمني هذه المهنة الحزم والقسوة والصفات التي تريدين أن أتسم بها، لا ينبغي أن

يكون الجزارون متشابهين.

– ولكني أريدك أن تكون رجلاً حقيقياً، كل النساء يحسدنني على جسدك العملاق وعضلاتك المفتولة.

– أرجوك، ليس اليوم يا زعفران، لا تتحدثي إليّ هكذا أمام جابر، إنه يمتعض ويتكدر.

– ينبغي أن يكون رجلاً لا أرنباً مثل أبيه.

– صه، أرجوك، ليس اليوم، دعيني أهدأ وأفكر.

– ارفع صوتك أكثر، دعني أخضع تحت قدميك، ولكن قبل ذلك يتحتم عليك اقتناء بندقية لتدافع بها عن عائلتك...

قاطعها بتنمر:

– لا تدعيني أخرج عن طوري، لِمَ لا تطردين الشر من رأسك، لا تدفعيني إلى الدرك الأسفل من الغضب والجنون.

– نعم، اخرج عن طورك، اغضب، مزقني، اضربني، الأهم هو أن تكون روحك ملائمة لضخامة جسدك، وإلا أصبحت وعاء رخيصاً لا نفع فيه. إنك تربي هذا الجسد لديدان الجثث.

– سأقتلك إن لم تغادري المكان، هيا انصرفي من أمامي ودعيني آكل اللقمة دون منغصات.

– أنت بحاجة إلى الراحة، نعم، أنت منهك لا شك. سأعد لك فراش النوم.

وانسحبت بخضوع يعلو وجهها الرضا والافتتان، ودهش وهو يراها منكمشة خانعة، وأحس بالغرور. كان غاضباً حقاً ومزمعاً أن يقوم بخنقها والتخلص منها، ولمح جابر مجفلاً مرعوباً، وأشاح بوجهه

بعيداً، شعر أنه صرخ كما لم يفعل من قبل، وأنه لا يتقمص دور الزوج الغاضب المستبد وحسب، بل إنه فعلاً في كدر حقيقي، وقد عاف الطعام رغم أنه ما زال جائعاً. لقد بدأ يفكر في أن يسحق كل من يقف في طريقه. وترددت أصوات طلقات نارية في القرية، وشعر بأهمية السلاح الذي سيدافع به عن نفسه، وصاح بلا شعور بنبرات حادة:

– يا امرأة.

فأقبلت مسرعة كالنادل، وكأنها معتادة على أسلوبه الفظ في النداء:

– نعم يا أبو جابر.

– انظري إذا كان بحوزتك قطعة حلي، لنقايضها بسلاحٍ ناري.

– هاك القرطين.

وفكتهما من أذنيها، ووضعتهما في راحته بتمهل وغنج، وانسحبت إلى مأواها وهي في قمة السعادة، وأحس هو بقليل من الارتياح، ثم زفر الهواء المحبوس في صدره بإعياء، وفي تلك الليلة جذبها إليه بقسوة رجل بدائي، وامتطاها كما لم يفعل من قبل، وفي الصباح لم تنظر في عينيه، بل ظلت سكرانة تائهة في عالمها الداخلي لمدة يومين ولا تتكلم إلا لماماً. وهذا أرضى غروره.

الفصل الثالث

ولج قرية كازم آلاف من رجال القبائل، ورجال بارزون في الحكومة. أتوا مستترين وراء الحرّاس والأتباع. وتم دفن النقيب أرحب آل طعيم وسط مظاهر حزن مؤثرة، في مقبرة معظم سكانها من المحاربين الذين سقطوا في الحرب الأخيرة. لكنه كان أول القتلى وآخر المدفونين، وقد مكثت جثته في مشرحة مشفى المحافظة لمدة عام كامل، ولعل أقصى فترة يمكن أن تبقى فيها الجثث هناك هي خمسة شهور، لكن هذه الجثة بقيت لأهميتها، ولم يجرؤ الإداريون أن يخالفوا تعليمات المحافظ، وعلى إثر اتفاق الهدنة قام أهل الميت بطلب سحبها للدفن.

في ذلك اليوم تورم خدا الطفل هزّام من فرط التقبيل والمواساة، وأجبره الرجال أن يمسك السلاح ويطلق النار في الهواء فوق قبر والده، ما يعني أنه قادم لا محالة لأخذ الثأر. وقام مدير الأمن يلقي كلمة لتهدئة النفوس، كان يود القول إنه فعل ما بوسعه من أجل حل القضية، وإنه لم يجد الفرصة للتحرك والبحث بفعل الحرب الدائرة بين القبيلتين، لكن صرخات الاستهجان والغضب أجبرته على التوقف، فانكمش وغادر المقبرة نافذاً بجلده من اللوم والأذى، ولحق به مدير مديرية

"العزلة" متعثراً وهو يحاول ألا يبدو بارزاً للعيان، لكن لم يكن يعرفه أحد أو يوليه اهتماماً، فطالما عاش معظم أيامه في المحافظة تاركاً مهامه لمدير الأمن.

وعلى إثر انتهاء مراسم الدفن نُقِل هزّام تواً إلى جبل أبو الحيد ليتلقى التدريب والتأهيل اللازمين. وكان لا بد من التدخل، فخلال عام تساقط الرجال كالأوراق، لكن القاتل لم يصب بمكروه، لذا ما إن اختفى ممثلو الدولة عن الأنظار حتى شرع رجال القبائل يتداعون إلى خارج المقبرة، صار عليهم أن ينظروا في أمر هذا الحادث غير المسبوق، لأن مقتل "نقيب قبيلة" في السوق ليس بالأمر الهيِّن، وعلى المذنب أن يدفع الثمن الباهظ.

ووقف نقيب قبيلة "المناحم" متكلماً، وهذا لا يعني أنه الأعلى مرتبة بين النقباء، ولكنه الأكبر في السن، وله باع طويل في فهم الأعراف، ومنطق قوي في مثل هذه القضايا. وخرج المجتمعون ببنود صارمة تدين "آل شهوان" لاختراقهم الأعراف، وقرروا أن الانتقام هو الخيار الأمثل، وعلى أولياء دم القتيل أن يأخذوا "الثأر"، أما الحرب فيمكن الاستغناء عنها، لأنها لم تحقق الهدف المرجو منها. وبرز وجه "ناجي" شقيق النقيب أرحب، وهو الوصي على القبيلة حتى يعود الفتى من جبل أبو الحيد. وتفرق الرجال وخويت القرية من المعزين وعمّ الهدوء والصمت.

أخذ مأمون يمشي في القرية تتملكه هموم عديدة، بدا مرتبكاً مشوشاً ينقّل قدميه بلا اتزان. لقد وجب عليه أن يستأذن النقيب الجديد في البقاء داخل القبيلة، ومع ذلك ظلّ يتصرف على طبيعته، ولم يكلف نفسه عناء إشعار نقيب القبيلة بوجوده، ويكلم نفسه أن ذلك غير ضروري، وبعد

أن باع القرطين لأحد الأهالي، سار يبحث عن قطعة سلاح.

في آخر المطاف، وقف قرب دكان صغير يحوي قطعاً متعددة من البنادق والمسدسات والقنابل وصفائح معدنية مليئة بالرصاص. ألقى نظرات شاملة طائشة على القطع المعلقة على مشاجب في الجدار، ثم قال مخاطباً البائع الضئيل الجسد الذي استقبله:

– أريد قطعة سلاح عملاقة تناسب جسدي.

تناول البائع قطعة كبيرة وشريطاً طويلاً من الرصاص وأجاب:

– هذا السلاح مناسبٌ لك.

– كم ثمنه؟

– عشرون ألفاً.

– كأنك تسترق النظر في جيبي.

– أنت غريب هنا، مخاوي[1]، أليس كذلك؟

– لا لا، أنا منقذ الطفل، كنت أقطن في سوق الربوع، تعرِف! ينبغي أن أحمي عائلتي.

– نعم، الحشرات تفعل ذلك، الدفاع عن النفس مشروع.

ثم استدرك فجأةً:

– أتعلم، أظن أفراد فئة البَيَع لا يحق لهم اقتناء قطعة سلاح، لأن القبيلة تحميهم.

صرخ مأمون في وجهه بغضب:

– أنا أعطيك النقود وأنت تعطيني قطعة السلاح، لا شأن لك بأي شيء آخر.

---

١ شخص يطلب الإخاء والسكن في القبيلة.

– نعم، أفهم، لا شأن لي، لا تغضب يا رجل، أنا فرد من البَيَع أيضاً، وأملك أنواعاً عديدة من الأسلحة.

وناوله رزمة الأوراق المالية، وأمسك السلاح بيد متشنجة، وجعل يتأمل الأجزاء التي سيتعامل معها، ولاحظ مدى لمعانها ورونقها، قطعة جميلة ذات براويز ذهبية في الوسط. إنها تبدو كتحفة فنية، أو أفعى زاهية اللون. سار في طريقه إلى منزله وهو في غاية الشوق لإطلاق عدد من الأعيرة النارية على شيء ما، كان متأثراً وغاضباً أيضاً. دخل إلى الغرفة الخاصة به، وعلق السلاح على المشجب. فجأة أتت زعفران متسللة من خلفه وقالت بصوت حاد:

– هيه، انظر إلى الزاوية، لقد تبرع الأهالي ببعض الإسفنج والأغطية.

أجفل بفعل المباغتة، ثم نظر إلى حيث أشارت بطرف عينه، وهز رأسه دون أن يتكلم، فاستأنفت:

– هل قضم الفأر لسانك أم تحاول أن تمثل دور والدي...؟

قبل أن تكمل وجَّه إليها صفعة قاسية، أطاحت بها إلى الخلف، كورقة يابسة اعترضها إعصار، لحسن الحظ أنها سقطت في الزاوية على كوم الفُرُش والأغطية. وفوجئت هي أيضاً بالتحول المريع في شخصه، لقد صار بسرعة أقسى وأشرس من الجزارين الذين تعرفهم، ولا تتذكر أن والدها قذف أمها كل تلك المسافة، وإنما كان يركلها في مؤخرتها، وهي منطقة ضخمة لا تؤثر فيها الركلات.

نظرت زعفران بقلق إلى السلاح الناري القابع على الجدار، وأدركت أن الخطورة تكمن هناك. من الآن وصاعداً لا ينبغي أن

تخاطب الجزار الذي تعرفه في السوق، بل ذلك المحارب القاسي الذي سكن جسده الضخم. لا شك أن رحلته الماضية إلى آل شهوان أكسبته هذه القسوة، وعاهدت نفسها على الحذر منه، ثم زحفت كحيوان جريح حتى توارت في الغرفة المجاورة.

فوجئ هو نفسه بخفة امرأته وبالقوة الكامنة في ساعده، لا يدري كيف واتته الشجاعة ليفعل ذلك! اكتشف أنه يملك كل هذه الطاقة الشريرة الكبيرة العاطلة عن العمل. لقد كان يستعملها لإسقاط الثيران الضخمة أرضاً، أما البشر فإنه ينظر إليهم بتهيب وخوف. ولا يذكر أنه تعارك وإنساناً من قبل، وقد أوشك أن يهب لنجدتها حين رآها تسقط، لكن جانبه القاسي كان أقوى، إذ لا فائدة ترجى من اللين، ولن يحصد من ذلك إلا مزيداً من الجفاء والازدراء، آه، ما أروع أن يكون قلبك أصلب من مطرقة تكسير الصخور!

بعد مدة وجيزة خرجت زعفران من غرفتها وقد أزالت آثار حنقها، وقدمت وجبة الغداء دون أن تنظر في عينيه. عصيدة الذرة، قليل من البطاطا المقلية، وبعض الخبز، كان هذا غريباً، إذ لم تنقطع عنه وجبة اللحم المطبوخ منذ أن بزغت أسنانه في فكيه، ويظن أن غيابها سيجعله متوتراً طوال الوقت. وهذا بعث في نفسه هاجس الخوف من المجهول، وأي شخص في مثل حاله يجب أن يقلق، هناك ثلاثة أفواه في المنزل تريد أن تأكل ثلاث وجبات في اليوم، وهو الآن بلا مهنة، أو بالأحرى لا يجيد أي مهنة أخرى غير تقطيع اللحم وبيعه، كما لا يستطيع أن يفتح حانوتاً في قرية صغيرة أغلب سكانها لا يتذوقون اللحم إلا في أيام الجُمَعْ، وفي الأعياد الدينية، ورغم وفرة مخزون الطعام في المنزل

الجديد ظلّ في غمٍّ وكدر، حتى جاء المنادي يدعوه إلى زيارة الدار الكبير. وهناك في قلب القرية حدّق في المنزل الجاثم كالجبل على مساحة شاسعة من الأرض. لاح محصناً بسور رافع يخفي المدخل، كما يليق بعائلة نقيب مشهور، ويبدو الحس الأمني بارزاً في تشكيل غرف الحراسة الصغيرة المنتشرة عن يمين وشمال البوابة الضخمة.

برز رأس حارس أشعث محاط بشريط طويل من الرصاص والقنابل. بدا متأهباً للانفجار، ولا ينقصه إلا الصاعق ليصير قنبلة متحركة. بدا هذا المظهر المخيف نوعاً من فرد العضلات أو للزينة ولفت النظر، أو إشارة إلى مناعة المكان وأهميته، وفي هذه الحالة، أخذ مأمون، رغم لامبالاته، يفكر في أن الإنسان ليس الكائن الوحيد الذي يجيد التمويه والتظاهر بالقوة، بل هنالك الكثير من الكائنات الحية الصغيرة تتلون وتنفش أجسادها لتبدو كبيرة ومخيفة. صاح الحارس مصوباً نحوه بندقيته:

– قف مكانك أيها العملاق، وقُل ماذا تريد؟

ولما أدرك من يكون، أشار له إلى مدخل البهو وارتد إلى الخارج، وطرق مأمون الباب وانتظر بضع دقائق، ومن باب من الأبواب خرجت سيدة المنزل وهي غارقة وسط ملابس الحداد السوداء، ملفوفة بوشاح قاتم يغطي رأسها، كشف وجهها الأبيض عن جمال مختبئ وسط هالة من الحزن والقسوة، توقفت على مسافة منه تناسب حزنها وقالت:

– ليس هنالك أحد قدَّم لهذه العائلة معروفاً كما فعلت، لذا ستكون ضيفاً على القبيلة حتى تنجلي الأمور ولن نخذلك أبداً.

– بصراحة، لقد ارتمى الفتى عليّ، لم أستطع تجاهله.

– إسمع، بعثت إليك لأني أريد أن تكون وكيلاً لأعمال عائلتي.

ألقت بين يديه رزمة من الأوراق لكي يطلع عليها، وأضافت:

– إنها إيصالات عقارات في العاصمة، وعناوينها مدونة على الورق، وفي رأس كل شهر تقبض الإيجارات من المؤجَّرين.

أجاب بيأس:

– ولكني لا أقرأ.

– يكفي أن تعرف عناوينها مرة واحدة فقط.

– اطمئني، سأفعل.

– أرغب في استضافتك في المنزل، لكنك تعرف التقاليد، أنا أرملة.

– نحن نعيش في ضيافتكم على كل حال.

خرج وهو يحمل انطباعاً جيداً عن ناجية بنت أبو الحيد، امرأة صارمة تدير شؤونها بنفسها، وفكر في أنه لا ضير أن يموت المرء، مخلفاً امرأة قوية حزينة تدير شؤون منزله وترعى أولاده. وراح يبحث عمن يقرأ الأوراق، ولمح رجلاً يطل بجسده من باب أول منزل صغير يصادفه، اقترب منه وقال:

– أين أعثر على قارئ؟

حك الرجل رأسه بقلق بالغ، وجعل يفكر وكأنه أمام أحجية، وتردد قليلاً قبل أن ينصحه بالاتجاه إلى رجل واحد في المنزل المجاور للمسجد، وهو من فئة الفقهاء، ورث عن والده القراءة والكتابة، لكنه غير ودود، يظل نزقاً معظم الوقت دون سبب. شكره وسار بثبات ليجرب حظه مع ذلك الرجل، وطرق الباب بأدب، ولم يجب أحد،

وأعاد المحاولة مرات عديدة دون جدوى، ثم لجأ إلى المسجد، ومكث ينتظر في الباحة الخارجية للفناء، وعند الظهيرة اقترب رجل خمسيني العمر متجهم الوجه كأنه خرج للتو من شجار مع شخص ما، أو أن هناك ما يؤرقه، يرتدي عمامة مستديرة غريبة، وعرف أنه الفقيه النزق، فوقف في طريقه وكأنه سيهرب قائلاً:

– مولانا، أتوسل إليك أن تقرأ لي هذه الأوراق.

أجاب الرجل بجفاء وتعالٍ:

– أنا لا أقرأ سوى القرآن.

– ولكني أحتاج أن أعرف عناوين العقارات في المدينة، أنت الوحيد الذي يقرأ في هذه القرية.

– يمكنك الذهاب إلى المدينة لتتعلم القراءة.

– أرجوك، سأهبك النقود.

– لا تحاول التأثير عليّ، أنا أتقاضى راتب "إمام وواعظ" من وزارة الأوقاف والإرشاد.

– هذا لن يكلفك شيئاً، ما كان ينبغي أن أحتاج إليك.

وصرف نفسه عن فكرة الانقضاض عليه، لقد وضع نفسه في موقف مخجل، وتوسل إلى حد الذُل. نظر إلى بعض المحاربين وهم يحملون بنادقهم بقنوط متجهين صوب مكان ما وسط القرية. لحق بهم وهو يأمل أن يجد قارئاً، ومضى يسأل نفسه: أهكذا يكون حالهم عندما تتوقف الحرب؟ يمشون بتثاقل، يلوح على وجوههم الذل ونفاد الصبر! ترى أي عمل يمكن أن يزاولوه في ظل الجفاف والبيئة الرديئة التي تحيط بهم؟

لاحظ إنهم يعيشون كيفما اتفق، على الرعي في الغالب، ولا يوجد بيت في كازم بلا حيوانات، أبقار أو أغنام أو ماعز، يرعاها أبناؤهم في الشعاب والجبال القريبة، بل ويهاجرون بها إلى أراضٍ بعيدة بحثاً عن الكلأ في أيام القحط الشديد. انتابه الفرح حين رأى دائرة متسعة من الناس يجتمعون في باحة واسعة، حاملين أسلحتهم ويصرخون بأصوات عالية غاضبة. كان جلياً أنهم لا يبغون أن تتوقف الحرب، ولكن الاتفاق الذي أبرم ينص على نزول المحاربين من الجبال. وجاء صوت النقيب ناجي موضحاً ضرورة الثأر من القاتل، ولو بعد حين. على أفراد القبيلة أن ينصبوا الكمائن للقتلة، وينالوا منهم في أي مكان، في سوق أو مسجد أو حمام. لأن الأعراف انتهكت، ولم يعد لها أي قيمة أو وزن، لكن المشكلة التي أثيرت هي إن القبيلة لن تقبل بأقل من رأس النقيب حسّون. عند هذه النقطة الشائكة دخل الرجل الضخم إلى قلب الدائرة. لفت هيكله وشكله الغريب انتباه الجميع، فتوقفوا ينظرون إلى الشخص الذي فضّ اجتماعهم دون مبالاة، وصاح النقيب ناجي:

– انظروا ماذا يريد هذا الرجل الغريب الذي أقحم نفسه في الاجتماع؟

قفز الرجال وأمسكوه، بينما سيطر عليه العجب من خوفهم وهجومهم العنيف. لم يدرك أنه قاطع اجتماع القبيلة، بل يظن نفسه شخصاً مهماً يدين له أفرادها بالعرفان، هل يعقل أن هؤلاء المحاربين لا يعرفونه؟ هل حقاً يجهله النقيب ناجي والأهالي؟ وصاح على المحيطين به بثقة:

– ألا تعرفون مأمون الذي أنقذ نجل النقيب أرحب في السوق؟

تذكر القليل منهم قصة إنقاذه الفتى، وبشوا في وجهه، والأكثر لم يتذكروا شيئاً، أو تجاهلوا أهمية ذلك. نظر النقيب ناجي جانباً بتأفف، وكأنه تذكر شيئاً غير مهم متوارياً في ذاكرته المتعبة، وقال بدون حماس:

– نعم، أنت الجزار مأمون، ماذا تريد؟

– أبحث عن شخص يقرأ لي بعض الأوراق.

– أنا القارئ الوحيد في هذا المكان.

ناوله رزمة الورق بفرح، فتأملها النقيب ناجي قليلاً، ثم صاح بتجهم:

– من أين لك بهذا الورق الخاص بشقيقي الراحل؟

– أنا وكيل أعمال عائلة المرحوم النقيب أرحب، وكلفت بذلك للتو، وعليّ أن أعرف أملاكه لأتقاضى الإيجارات، إنني أقطن القرية منذ يومين.

– كيف تسكن قريتنا دون أن تأخذ أذناً مني؟

ودمدم البعض محتجاً، وأعلنوا عن تذمرهم، ورد مأمون بفجيعة:

– لا أدري. أحسبكم تعرفون أني أقطن هنا، بل أنتم من أنقذ عائلتي حين هجم آل شهوان على السوق، نحن هنا لاجئون ليس أكثر.

وأكد البعض روايته، وهز النقيب ناجي رأسه بخبث، ثم لف الورق وأخفاه في ثيابه ومضى يقول:

– اذهب الآن، ليس عليك أن تتواجد في اجتماعات القبيلة أو مناسباتها، سوف نناقش أمرك لاحقاً.

– والأوراق.

– اذهب، لا تسل عن شيءٍ الآن، لدينا مشاكل جمة.

ودفعوه بأذرعهم على نحو مهين، حتى وجد نفسه خارج الدائرة كالمنبوذ، أصبح غاضباً على غير عادته. فكر أن يعود ليمزق عنق النقيب ناجي، لكنه عرف أنه سيرتكب حماقة أخرى، وانتبه إلى أن النقيب ناجي قد يكون ممتناً من آل شهوان لأنهم أزاحوا شقيقه من طريقه، وظل يفكر بأن الحياة هنا أضيق من خرم الإبرة، ولن يستطيع العيش بين هؤلاء الناكرين للمعروف، حتى شعر بنفسه وهو يصافح وجه ناجية بنت أبو الحيد. وشرح لها بأسى ما حدث، فأعطته شال[1] زوجها الراحل، وطلبت منه أن يعود إلى بيته مطمئناً، ورغم ذلك عاد وهو مكسور الخاطر موجوع القلب، وقد غابت عن وجهه الغطرسة السابقة والثقة، وخشي أن تعود امرأته إلى التقليل من شأنه، ولومه على أتفه الأمور.

واتته فكرة أن يكون طاغياً جباراً في منزله، ووديعاً مسالماً عندما يجتاز عتبة بابه نحو الخارج، لكنه فقد رباطة جأشه، وظهر الانكسار على وجهه وفي نغمات صوته، ولم تغفل امرأته عن ذلك، وجعلت تحاصره بحذر حتى تمكنت من تعنيفه على قطعة السلاح التي ابتاعها، ثم عمدت إلى إخفاء الرصاص خوفاً من ردة فعله، ولم تكن لتفعل ذلك لو لم تتيقن أنه غدا هشاً كالزجاج، واحتار بين أن يعود إلى تمثيل دوره الأول، فيكون جزاراً ذليلاً مسالماً، أو يتقمص دور الرجل الطاغي المثقل بجسد عملاق، وربما يكون مجبراً على اقتراف جريمة ما أو يطلق النار على جسد أحدهم حتى يهابه الجميع! لكنه سيحاول أن ينقذ الموقف ويتلافى الزلل منذ اليوم التالي، ينبغي أن يتجهم ويلصق الخشونة على ملامحه وصوته حين يقترب من منزله. عليه أن ينفش

١ هو الشماغ الذي يُربط به الرأس، وله قيمة كبيرة لدى القبائل.

شاربيه وجسده ليبدو عنيفاً فتاكاً، إلا أنه يخشى أن يرتبك وتختلط عليه الأدوار، إن هذا صعب ومرهق، وتعوزه مقدرة هائلة على التمثيل والتقمص، وتكمن الصعوبة في القدرة على تطويع إرادته المنهكة من أجل هذا الأمر.

***

في ساعة مبكرة من الصباح كانت ناجية بنت أبو الحيد وسائقها راكنين السيارة أمام داره. مضوا جميعاً في طريق ترابي وعر، دون أن يتبادلوا الكلام كأنهم في خصام، أو ذاهبون في مهمة سرية. ساروا عدة ساعات وهو يعاني من أعراض السفر، إذ ليس معتاداً على ركوب السيارات، وأحس بالارتباك عندما قدَّم له السائق قرص دواء دون تعليق، وكأنما لمح طيف ابتسامة في شفتيه، فابتلع القرص على مضض. أرملة النقيب جالسة في المقعد الأوسط، لا تبدو مهتمة بما يجري حولها كراهبة صائمة عن الكلام، وظل دائخاً حتى عبروا في خط ترابي مدكوك.

هب على وجهه تيار هواء قوي عبر النافذة، فانتعش وأفاق، وظن إن معاناته قد انتهت. لكنهم دخلوا مدينة صغيرة تغشاها الضوضاء والأقذار، وهي مركز المديرية، سرعان ما تخطاها السائق إلى طريق إسفلتي، وبعد ساعة من الزمن دخلوا مدينة أكبر حجماً وأقل ضوضاء، والتفت مأمون ناحية السائق بنفاد صبر، فقال جارحاً صيامه بكلمة واحدة فقط:

– المحافظة؟

كان يظن المحافظة شيئاً غريباً فريداً من نوعه، ولكنها لا تختلف

كثيراً عن مركز المديرية. رجال مسلحون يجولون في شوارعها بسياراتهم المكشوفة القديمة الطراز، باعة يفترشون الأرصفة بشكل عشوائي. ليس فيها شيء مميز باستثناء بعض التحسينات على بعض المباني الحكومية والأهلية، ووجود خط إسفلتي واحد يقسم المدينة إلى نصفين. وخاف أن يسأل عن المكان الذي يذهبون إليه، سيبدو في نظر الأرملة جاهلاً وغير أهل للثقة، من العار على رجل في سنه أن يكون جاهلاً بكل شيء. يا له من موقف مخجل!

رغم ذلك تحسن حاله أكثر بهبوب الريح، ومضى يراقب الشعاب الجافة التي يكسوها الصبار وأشجار القرض والسدر، والجبال الدكناء المتناثرة عن يمينه وشماله. في اليمين ظهرت أبراج معدنية شاهقة وفي الشمال أعمدة خشبية تتصل بأبراج أخرى من جنسها، بواسطة خطوط رمادية وسوداء. أراد أن يسأل، ولكنه خشي أن يكسر عرفاً من أعراف السفر، وهو الصمت المطبق، فاكتفى بالنظر في وجه السائق الذي جرح صومه بهاتين الجملتين الصغيرتين:

– الأبراج المعدنية للكهرباء، والأعمدة الخشبية لخطوط الهاتف.

لم يفهم شيئاً وكأنه يدخل لتوه عالماً آخر لم يسمع عنه من قبل، وهم قليلون جداً الذين يزورون المدن، ربما النقباء وأقرباؤهم المقربون وهذا السائق، لكن بعض منتجاتها بدأت تتسرب إلى الأهالي، لاسيما في السنوات الأخيرة. ربما تكون ناجية قد سلكت هذا الطريق من قبل، لم يجرؤ على الالتفات إليها ليرى ذلك على ملامحها. أراد أن يتقمص شخص الرجل الرزين غير المندهش، فرسم على وجهه هالة من السكينة، وصرف عينيه عن التحديق والاهتمام بما حوله، وظل يقاوم

إغراء الاندهاش حتى دلف الليل.

بعد زمن لا يعرفه، أطلت السيارة على مظهر خلاب لأنوار متأججة تمتد مسافة كبيرة وتشكل بؤرة عظيمة تشق الظلام إلى نصفين، وعند هذه الوهلة تخلى عن حذره، وانكمش في مقعده قرب السائق مرعوباً من هذا المشهد الغريب، فابتسم الأخير وقال:

– العاصمة.

وانتبه إلى دهشته فحاول أن يطمرها، وغطسوا وسط أنوار شوارع متشابهة لا يستطيع التمييز بينها، رغم اختلاف مبانيها وألوانها، وتعدد طوابقها، ووقفت السيارة أمام مبنى كبير مضيء كالنجم، واستقبلهم حارس ببنطال أزرق وسترة بنفسجية، ووصلوا إلى بهو ببراويز ذهبية وجص منقوش بدقة متناهية ولوحات عالمية وثريات مشتعلة، وانتهوا إلى رجل خلف حاجز برونزي، خاطبه السائق برصانة:

– من فضلك، ثلاث غرف متجاورة.

– الطابق الخامس.

ردّ الموظف ولم تخفت طلاقة وجهه بعد، وناوله ثلاثة مفاتيح مسجل عليها أرقام الغرف، ووقفوا قرب حاجز معدني، ثم دخلوا غرفة معدنية عليها مرايا كبيرة وأزرار، وضغط السائق على زر يحمل الرقم خمسة، وانغلق بابها ذاتياً، وصعدوا إلى الأعلى دون أن يحركوا أقدامهم، وعجز مأمون عن تقمص اللامبالاة. ولما دخل غرفته أحنى رأسه، وجعل السائق يرشده إلى كيفية استخدام التلفاز، وكيف يضيء النور ويطفئه بالضغط على الزر الموجود على الجدار، ثم أخذه إلى دورة المياه، ودرّبه على كيفية فتح صنبور الماء الساخن، وكيف

يتخلص من الفضلات.

استلقى على سريره منهكاً كما لم ينهك من قبل، وتذكر ارتباكه عندما تحرك المصعد الكهربائي. كاد يقع أرضاً لولا تشبثه بذراع السائق، ولما سمع طرقاً على الباب لم يدر كيف يتصرف، وكان ذلك هو الخادم الذي جلب إليه وجبة العشاء، ومضى يأكل بنهم.

في الصباح كانوا بباب المحكمة التجارية، من أجل عمل تفويض رسمي له باستلام إيجار العقارات، سمع لأول مرة أسماء هذه الممتلكات، فندق صغير في "التحرير"، فيلا راقية في حي "حدة"، ومركز تجاري كبير في شارع هايل. وحضر المُؤجّرون وتعرفوا على الوكيل الذي يجب أن يدفعوا رسوم الإيجار إليه، وراقهم جهل ودماثة الرجل الآتي من أعماق القبيلة، وأخذ مأمون التفويض، وأقترض من السائق سراً بعض النقود، ورفض أن يعود معهما إلى القبيلة دون أن يفعل شيئاً. لقد افتتن بهذا العالم الغريب، ووجد في ذلك مناسبة للبقاء حتى يتسلم إيجارات ذلك الشهر، ومضى يهيش في بعض الشوارع القريبة ويعود سريعاً إلى الفندق خوف أن يتوه.

وفي مطلع يوم ربيعي، جال في شارع الزبيري ووقف أمام دكان جزار فتح محله للتو، كأنما غمره الحنين إلى مهنته السابقة. تحدث إلى زميله في المهنة بضع دقائق عن ظروف العمل في المدينة مستغلاً خلو المكان من الزبائن. وعلى عكس الواقع بدا مأمون بشكله وحجمه كجزار أصيل ذي خبرة وباع طويل في مهنته، وهذا أكسبه ود الجزار الشاب، فسمح له أن يدقق النظر في الميزان الحديث الفضي اللون، وأن يتصفح المقاطع والمدى الأنيقة ذات المقابض السوداء العاجية

والأنصال الحادة، وأفصح له مأمون بأنه لا يعرف الأماكن التي سيذهب إليها، ولا يستطيع القراءة والكتابة، ويريد النزول في فندق زهيد الإيجار، فوعده أن يخرج معه في آخر النهار. وأتى الجزار الشاب حسب الوعد وأخذه إلى فندق في التحرير، ولما دخلا إلى البهو تعرَّف عليه صاحب الفندق، وقام يستقبله كما يليق بشخص هام:

– الوكيل مأمون، أهلاً وسهلاً، نورت الفندق بمجيئك.

– يا للعجب! أنت صاحب الفندق. لا أريد أن أتطفل. لقد أخذتني الصدفة إلى هنا.

– لعلك تبحث عن غرفة للإيجار. طالما تبقى غرف شاغرة، لا ضير في أن تقطن إحداها.

– أريد أن أقضي هنا بعض الوقت، واعتبرني زبوناً مثل غيري ولابد أن أدفع.

– كما تشاء، هيا. من هُنا، إلى غرفتك.

وأدرك مدى أهميته كوكيل عقارات، ولم ينم في تلك الليلة سوى عند الفجر. مضى في الظهيرة إلى مسجد الحي، ودخل يبحث عن الفقيه، رأى عدداً كبيراً من الناس يصلون، فتربص عند مصلى الإمام المنقوش بالآيات المزخرفة وأسماء الله الحسنى. فطن إلى شخص ملتح وقور منكمش وسط معطف واسع يتصرّف وكأنه مسؤول عن المكان. تقدّم وسلم عليه، ثم سأله عن الخدمات التي يقدمها المسجد، أجاب الرجل بأن هنالك مدرسة لتحفيظ القرآن وتعليم التجويد والقراءات السبع. رد مأمون بسذاجة بدوي:

– القرآن محفوظ في الكتاب ولا ينبغي حفظه، أريد فقط أن أتعلم

لكي أقرأ عقود الإيجارات وما يفيدني في دنياي.

غضب الإمام حين سمع ذلك الكلام الغريب، وحاول عبثاً الوصول إلى عنقه ليخنقه، وقال:

– لعلك إبليس اللعين متمثلاً بشكل إنسان ريفي عملاق، لسوء الحظ أنك طويل بعيد المنال.

وأخذ الرجل يردد آيات صرف الشياطين، فانصرف مأمون قبل أن ينهي الإمام ابتهاله. لا ريب بأنه سيكون موضوع حديث الإمام للأيام التالية، سيزعم أن شيطاناً عملاقاً دخل إلى محرابه لكي يغويه متقمصاً شخص رجل قروي، ولكنه تصدى له وطرده بآيات صرف الشياطين.

في شارع جمال المزدحم صار يعترض المارة ويخبرهم أنه وكيل عقارات ويريد أن يتعلم القراءة، ثم يسألهم أين يمكنه أن يتعلم، وقابله البعض بالضحك والبعض بالاهتمام، وظلوا يبعثونه إلى أماكن وشوارع مختلفة يتوه في أحيائها، ولا يجد شيئاً. أخيراً تطوع أحدهم وأوقف له سيارة تاكسي، وطلب من سائقها أن يقل ذلك الرجل الريفي إلى مركز محو الأمية وتعليم الكبار في شارع حدَّة، وهناك أستطاع أن يدخل البناء ويسجل اسمه بيسر كتلميذ جديد في فصل التعليم الأساسي، وطُلب منه أن يحمل كرَّاساً وقلماً، ويلتزم بالحضور الدائم في الساعة الرابعة عصراً. عند عودته دخل في سوق مزدحم قريب، ورأى رجلاً يعانقه ويتشبث بثيابه وكأنه يعرفه من قبل، ثم اعتذر وادعى بأنه أخطأ، واختفى في الزحام، أخذ مأمون سيارة أجرة وأفلح في إرشاد السائق إلى مكان إقامته، ولما أراد أن ينقده المال، فتش ثيابه ولم يجد شيئاً، وأعاد التفتيش ثانية بمزيد من الارتباك. لحسن الحظ كان صاحب

الفندق يرى المشهد عبر زجاج المدخل، فأتى مسرعاً وأنقذ الموقف بشهامة لا توجد في أيامنا، وأخذ بيد مأمون المرتبك وقاده إلى الداخل، وحذره من النشالين والمحتالين، وسرد له عدداً من الحيل التي يتبعونها لاصطياد الأموال من الجيوب.

عرف مأمون أن المدن ليست مقدسة كما يظن، ورأى أنه وقع في مأزق كبير، ولن يستطيع العيش من دون مال.

ذهب إلى صديقه الجزار، وعرض أن يساعده في الحانوت مقابل مصاريف المعيشة، وسرعان ما أصبح يرتدي المريلة البيضاء والزي الرسمي للجزارين، وطلب منه صديقه أن يرتدي القفازات التي فرضتها أمانة العاصمة على جميع الجزارين، وألا يرمي الجلد والفرث والدماء في الشارع، ولكن منظر الحوانيت في الشارع العام لم يكن لائقاً، فالحيوانات التي تعلق على مدخل الحانوت كانت تجلب الذباب والكلاب والقطط، وأما المخلفات والدماء فكانت رغم إزالتها تترك روائحها راكدة في الجو، واستغرب جزار المدينة من رفض جزار الريف أن يذبح الحيوانات، بينما اقتصر عمله على السلخ والتقطيع، وقال مأمون مبرراً ذلك الأمر:

– لم أذبح أي حيوان إلا مكرهاً.

– ولكنك جزار في النهاية.

– نعم، أكره ذلك الوضع، لكنها مهنتي، من الجميل ألا تظل بلا مهنة! وها أنا أعجز أن أكون وكيل عقارات دون أن أعرف القراءة.

واستمر يعمل في الحانوت ويدرس في مركز محو الأمية لثلاثة شهور، وأخيراً استطاع أن يتهجى ما كتب على لوحة الإعلان التي تقع

فوق الحانوت الذي يعمل فيه، "مسلخ اللحم الطازج (بقري، غنمي، رضيع) لصاحبها رزق الدميمي". وتسلم الإيجارات وقرأ العقود الخاصة بها، وعاد إلى القرية وهو بمنتهى الفرح والتباهي، لقد كان خاوياً من أعماقه حين دخل المدينة، وحين آب إلى بيته كان قد عرف شيئاً بسيطاً من الدين والحساب والعلوم وبعض الأناشيد الصغيرة، وأمسى يقرأ بشكل مكسّر، ويكتب بخط رديء وبأخطاء إملائية كبيرة، وقد يخونه سن القلم رغم محاولته البقاء على خط مستقيم، فينحرف السطر الذي يكتبه نحو الأسفل، ومع ذلك جلب بعض الكتب التي لا تتناسب ومستواه في القراءة والفهم، مجلدات ضخمة عن اللغة العربية والشعر، وأصبح في كلامه لكنة غريبة مقتبسة من لهجة سكان العاصمة.

***

في القرية وجد عائلته في ضيق شديد، لا يجدون متنفساً للخروج، وجابر لا يجد أصدقاء يلعب معهم، بينما تتوالى رسل النقيب ناجي، لإنذارهم بالنزوح عن القرية. خرج مأمون إلى باحة كازم، منتفشاً مرتدياً شال النقيب أرحب آل طعيم، وأقبل النقيب ناجي ونفرٌ من أتباعه، وعندما رآه صاح بغضب:

– لِمَ لا ترحل من القرية؟ ألم أنذرك أيها الجزار من قبل؟

– ولكني أعيش هنا مخاوياً مجاوراً النقيب أرحب، وهذا هو شاله.

– أعرف أن ناجية بنت أبو الحيد تتدخل في ما لا يعنيها، وما أنت سوى جزار من فئة البَيَع، ولا فخر لقريتنا في انضمامك إليها.

– نعم، أنا جزار لا أنكر ذلك، أنا الصغير وأنت الكبير، فافعل بي ما بدا لك.

– لا أستطيع طردك وأنت تحمل شال أخي، ولكني سأدعو القبيلة إلى الاجتماع.

وبعث إلى رؤساء العشائر في آل طعيم رسائل نداء عاجل للتشاور، وسرعان ما جاء رجال القبيلة من كل حدب وصوب، حاملين أسلحتهم على أكتافهم، وهم ينشدون أشعارهم المحلية، ويدقون الطبول ويرقصون رقصتهم الشهيرة "البَرَعْ"، وكانوا يتوقعون أن تكون الحرب قد استؤنفت، لذا كان في حركاتهم كثير من الحدة والحماس، فالحرب هي الموهبة التي يشعرون أنهم يجيدونها، لا سيما أنّ لديهم هدفاً يقاتلون من أجله وهو الانتقام لاغتيال النقيب أرحب، لكن ما إن طرح عليهم النقيب ناجي قضية الجزار حتى تصاعدت الأصوات في غضب:

– أهذه قضايا هامة تجمعنا من أجلها؟ دماء شقيقك النقيب لم تجف بعد.

وتصاعدت أصوات حادة تقول:

– أنت بعت قضيتنا لتتربع على رأس القبيلة، هذا الجزار أنقذ الطفل من الموت.

قال النقيب ناجي بيأس:

– نعم، إنه يرتدي شال النقيب أرحب.

قال فجأة أحد كبار عشائر القبيلة بحدة:

– وشيلان[1] أفراد العشائر.

١ جمع شال باللهجة المحليّة، وهو الشماغ الذي يُربط به الرأس.

نزع الحاضرون الشيلان عن رؤوسهم، ووضعوها على كاهل الرجل الضخم الذي يتوسط الدائرة، حتى أصبح محنياً تحت ثقل العشرات منها، وبدا مأمون محتاراً لا يدري كيف يتصرف! لكنه لاحظ أن مكانته بدأت تزدان، صاروا ينظرون إليه بشكل مختلف.

وعاد يترنح تحت ثقل الشيلان حتى وصل إلى منزله، وهناك لم يستطع أن يقنع زعفران بأهمية الاحتفاظ بهذا القدر الكبير من أغطية الرأس الرجالية، وهددت بأنها ستقوم بإحراقها، إذا لم تجد لها مكاناً في المنزل. لكنها باتت لينة مطواعة بعد تلك الصفعة العنيفة التي ذاقتها من كفه العملاق، وكل تحذيراتها ليست جادة في الغالب. كان في المساء يتحدث بفخر عن التكريم الذي لمسه من أفراد القبيلة، وقالت زعفران بشيء من التهكم:

– من أين اكتسبت هذه اللكنة الغريبة في حديثك؟ هل يعقل أن تكون قد تأثرت بلكنة أهل المدينة خلال ثلاثة أشهر فقط؟

– لا تنسي أني صرت أقرأ وأكتب، ومن الطبيعي أن يتغير لساني قليلاً، وأنوي أن أبعث جابر ليدرس في القسم الداخلي بالمدرسة، لقد أدركت أن الذين يدرسون يصبحون بعد أعوام معلمين يتقاضون رواتب. هل تصدقين ذلك؟

– لا أعلم ما سيصنع هناك ولا أي عناء سيلقى، لا، لن أدع الولد يخرج من البيت.

بدا جابر فرحاً، ويتمنى أن ينفش والده شاربه ويصمم على رأيه، وصاح مأمون بامتعاض:

– أتريدين أن نتعفن في هذه القرية يا زعفران؟ إننا من البَيَع،

ونتعرض للازدراء من رجال القبيلة، ولو تعرفين مقدار اللذة التي أشعر بها لأني أستطيع أن أقرأ، لن يتغطرس عليّ فقيه القرية بعد اليوم، ولن يخدعني النقيب ناجي ثانيةً.

ومضى يتحدث عن العجائب التي رآها في المدينة. يمكن للمرء أن يقطن هناك بلا جهد كبير، ليس عليه أن يأخذ شال أحد ليضمن عدم طرده من الحي، بل يذوب بين كم هائل من الناس كالإبرة في كوم القش. كل شخص يدب في طريقه، لا شيء يعيقه أو يهدد حياته، لا حروب ولا أسلحة بأيدي الأشخاص المجانين. الشرطة فقط هي التي تحمل السلاح وتحمي المواطنين. دكاكين الجزارين نظيفة للغاية، والأنوار لا تنطفئ في ليل أو نهار. أشياء كثيرة مختلفة وغريبة ليس لها نظير في القرية.

هزت امرأته رأسها وقالت بارتياب:

– أخشى أن تتغير طباع الولد، ولا أستطيع أن أفهمه حين يتحدث، لأنه سيمكث مدة طويلة في المدينة.

ضحك زوجها من خوفها الشديد، وطمأنها أن ذلك لن يحدث.

مع مرور الأيام لاحظ مأمون أن حالهم يتحسن. كان يجني راتباً سخياً من ناجية، ويكدسه في مخبأ سرّي على شكل رزم كبيرة وصغيرة. ولا يدري ماذا يمكنه أن يفعل بها، لأن نفقات المعيشة كانت تتكفل بها ناجية أيضاً، ولم يعد يعوزهم أي شيء. الجيران وثقوا بهم وأمسوا يزورونهم، وأصبح الأولاد يلعبون وجابر، وكأن الحظر الاجتماعي قد انتهى، وصار يستدعى إلى مجالس القرية، ويستشار في بعض الأمور الصغيرة التي تتناسب ووضعه الاجتماعي المتدني، ويشار إليه على أنه

وكيل أعمال عائلة النقيب أرحب، وهو مركز يحسده عليه رؤساء العشائر في القبيلة. وقد اكتشفه الأهالي كقارئ جديد، واستبشروا، لأنهم ملّوا من مزاج الفقيه النزق، وضاقوا من غروره كونه القارئ والكاتب الوحيد.

كان مأمون يفرح ويتباهى وهم يحفون حوله، ويستقبل الجميع بالترحاب. ويصب للزوار كؤوس الشاي بالنعناع. باتوا يأتون إلى قارئهم الجديد ليقرأ لهم الرسائل بشكل رديء، أو ليكتب العقود بخطه الركيك. واعتادوا على قراءاته المكسرة، والنتائج السيئة التي تصدر عنها، وقد يقرأ خطاباً من ابن يعمل في محافظة بعيدة إلى أبيه:

"لا أتخطى الحدود المرسومة لي لدى أصحاب العمل، وفي أول فرصة لن أتردد في العودة إلى القرية...".

يقرأ الكلمات الأولى بطريقة توحي بأن الشخص المُرْسِل يقول إنه سوف يسافر عابراً الحدود، وليس هناك سوى دول الخليج التي يتهرب إليها الناس ليعملوا ويجنوا الثروة، ولكنها طرق محفوفة بالمخاطر يتعرضون فيها لأقسى المتاعب حين يضبطهم جنود حماية الحدود، وهذا يجعل الأب حزيناً على مصير ولده، ولكنه في الجزء الأخير من الخطاب يسمع ما يوحي بأنه سعيد وعما قريب سيعود إلى القرية. وبات يحذر من الجمل الركيكة والكلمات التي تحمل أكثر من معنى.

***

في يوم استدعت ناجية بنت أبو الحيد مأمون، وطلبت منه التوجه بشكل سري إلى جبل "أبو الحيد" الذي يتأهل فيه ولدها هزّام، ليقف

على حاله ويأتيها بخبره، وهمست له بالكلام الذي يجب أن يقوله لأقاربها حتى يثقوا به. ولم يستطع الرفض رغم أنه بات يمقت السير على قدميه بعيداً عن أرض القبيلة.

كان خط سيره آمناً، محاذياً لنهر شقته الأمطار بين الجبال ويجري نحو البحر، كانت أشجار الإجاص واليراع على حافة المجرى من الجانبين، بينما أشجار الجوافة والمانجو والموز تغطي النحور والفجوات الصغيرة الخصبة التي تتدفق إليها المياه. كان النهر جارياً في ذلك الوقت من العام، وعلى جانبيه عيون صغيرة تغذي بعض الواحات، مخلفة بعض البرك الضحلة والجداول التي تكون موطناً خصباً للطحالب والبعوض والضفادع. وظهرت الفتيات حاسرات الرؤوس مشمرات السيقان، وهنّ يغسلن الثياب والأغطية عند ضفتيه، ويفركن أجساد الأطفال، أو يسرّحن خصلات الصبايا، وينزعن القمل والصئبان ويتركنها تغوص بعيداً مع الأوساخ السوداء القادمة من أعلى النهر.

وفكر في أن هذا الممر يؤدي بعناية إلى السكينة التي ينشدها طفل مهدد، وأن من أختاره ليكون ملاذاً حسناً لم يفعل ذلك عبطاً، ولعل الفتى يتمتع بنقاهة غير عادية، ويقضي أوقاتاً ممتعة لدى أقاربه.

دار هذا في ذهنه وهو يرى الماء يحيط به، ولكن ما إن وصل إلى آخر علامة من العلامات حتى سلك الطريق التي أشارت ناجية أن يسلكها، وهو طريق متعرج صاعد، ووجد نفسه يرتقي نحو قمة جبل جرانيتي شاهق هرمي، ينتهي بقلعة تظهر من بعيد كالتاج على رأس ملك حميري، محاطة بمنحدرات قاتلة من جميع الاتجاهات ما عدا

منحدراً واحداً أقل وعورة، وهو نفس الاتجاه الذي أمسى المدخل الوحيد للقلعة، ولما وصل إلى بابها المشرع تصدى له مجموعة من الرجال المسلحين فقال ما أملت عليه ناجية بصوت متقطع لاهث:

– رسول من الغصن إلى الشجرة.

كانت تلك كلمة السر المتعارف عليها للدخول لمقابلة صاحب القلعة النقيب محسن أبو الحيد. وبعد قليل وقف أمام رجل ذي وجه مدور وسوالف بيضاء نازلة من عارضيه، يلفه معطف طويل داكن ورداء أبيض، ما يجعله يشبه الحكماء الإغريق في المسلسلات التاريخية. كانت الأعراف عند آل أبو الحيد تفرض على الزائر أن يمكث ثلاثة أيام في ضيافتهم، إذ ليس من اليسير الصعود والهبوط إلى القلعة في يوم واحد.

وهناك وجد فسحة من الوقت ليتجول في أرجاء المكان، وكاد يسقط في جوف بئر عميقة محفورة في دهليز مظلم، وتمتع بمشاهدة التفاصيل الدقيقة لقلعة دفاعية قديمة، ولمح على البوابة الخشبية العملاقة ثقوباً صُنعت لتخرج عبرها فوهات البنادق لإطلاق النار على الغزاة، وأطلع على بقايا مصنع آجر، و"محدادة" لصقل السيوف، ومرابط حيوانات، ومسجد صغير وبرك عميقة مقضضة، ونظام مائي لجلب مياه المطر النقية عبر سواقي مصقولة مطعمة بالقضاض الأبيض إلى خزانات محفورة في الصخر.

مرّ في أصيل اليوم الثاني على باحة خلفية، ورأى مجموعة من أحفاد النقيب محسن أبو الحيد يتلقون بعض التدريبات الجسدية المضنية، كانوا يحملون الأحجار الثقيلة، ويتدلون على فروع الأشجار،

ويتشقلبون فوق الحصى، ويركضون على الباحة باستمرار، وفي ظهيرة اليوم الثالث صادف فتى هزيلاً عارياً ذا بشرة قاتمة مستلقياً على لسان صخري تحت أشعة الشمس اللاسعة، وسمعه يطلق أنيناً يقطع نياط القلوب، وثمة شخص قوي البنية يرشه بالماء لكي يحافظ على درجة حرارته معتدلة.

من جانب الباحة كان جده النقيب محسن أبو الحيد جالساً تحت ظل طولقة[1] ضخمة، وكأنه مخرج يتفرج على مشهد تعذيب في فيلم يدور في أحد سجون الأمم البربرية القديمة. بعد لحظات جلب المدرب بطانية مليئة بشوك القُطبة رباعية الأسنان، ووضع الفتى عليها بلا رحمة، فأخذ الأخير يصرخ، بينما النقيب محسن ينظر إلى المشهد متبسماً بإعجاب، ولكنه على عكس المخرج لا يأمر بإيقاف التصوير للانتقال إلى مشهد آخر، بل يواصل التحديق باهتمام إلى مشهد حقيقي مستمر، وممثل واحد هو حفيده هزام، وأوضح الجد أن حفيده يتلقى نوعاً من التأهيل القاسي ليكون رجلاً قوياً جلداً، لكن الجانب الزائد في التأهيل هو أن الفتى يتلقى تدريباً مضاعفاً ليقوم بالثأر من قاتل والده.

وبين فينة وأخرى تتوالى التمارين المؤلمة كالوخز بالإبر والدبابيس الحادة، وإيلاج نبات "الحرِّيق" تحت ملابسه، وينجم عنها حكة شديدة الألم، تتحول إلى أقراص حمراء على البقع التي تلامسها الوريقات الصغيرة المشرنفة. وبعد كثير من التحديق أدرك أن هذا الفتى هو من جاء من أجله، والذي أوشك أن ينساه لفرط كرم الضيافة والآثار المدهشة التي رآها في القلعة، وكان لسذاجته يظنه يعيش ببحبوحة

١ اسم محلّي لشجرة معمّرة، وتسمّى شجرة العسق أيضاً.

في ضيافة أخواله. انحنى مأمون بشفقة كما لو كان ينحني على عجل سوف يحز عنقه، وجعل يرنو إلى جلد الفتى وعينيه الوانيتين، وصدره الذي ينخفض ويعلو ببطء، وكأنه يتأكد من بقائه على قيد الحياة، ثم لمس جسد الفتى برؤوس أنامله المرتعشة، فرفع وجهه المعفر بالتراب ونظر في وجه الزائر نظرة معذبة تحمل أكثر من معنى. قال مأمون:

– أنا وكيل أعمال عائلتك، وجئت لأرى أحوالك.

انكسرت نظرة الفتى نحو الأرض بلا مبالاة، ولم يجب. قال النقيب محسن أبو الحيد بثقة:

– إنه الآن لا يستطيع النطق بسبب الألم، إنها مرحلة متقدمة من مراحل التدريب.

نظر الزائر إلى الفتى بقلق بالغ، وسطع في عينيه الارتياب والامتعاض، فأضاف النقيب محسن أبو الحيد بشيء من الفخر:

– اطمئن يا ضيفي الكريم، إن الفتى قوي صبور، لم يعد يصدر أي بكاء أو شكوى.

لم يحتمل مأمون مزيداً من السكوت، فصاح قائلاً:

– الفتى يوشك أن يموت، أرى ذلك في عينيه. لا ينبغي أن يعذب على هذا النحو حتى لو كان يتأهل إلى مصاف الإله.

– عندما كنت صغيراً تعرضت لنفس العذاب وأكثر، تعلم أن الزمن قد تغير ودخلت تقاليد جديدة، في طفولتي لم نجد شخصاً ينطق مثل كلامك الغريب الرحيم، وها أنذا أمامك حي أرزق أتقدم نحو الثمانين بجسد صلب لم ينحنِ، لا يوجد نقيب في المديرية لا يوجد في جسده كسورٍ أو كدمات.

– الحمد لله أنني لم أولد نقيباً.

ضحك الرجل الكبير بطيبة فريدة، بحيث لا يصدق من يتعرف إليه أن هذه الممارسات تحدث تحت نظره، ومضى يتحدث عن الجسد الآدمي، وقابليته للتشكل منذ وقت مبكر، وأنه ليس سوى وعاء فارغ، ومع الاستمرار في التأهيل نصل إلى مرحلة نفقد فيها الإحساس بالآلام، بل إن الألم يأتي حين نبتعد عنه أو نخشاه، بمعنى آخر إنه حالة نفسية تصيب المرء أكثر منه حالة جسدية، وكلما تجاهلناه فقدناه، وازدادت مقاومتنا له.

خرج مأمون من القلعة دائخاً مما سمع. كان يعتقد أنه في بعض الأوقات يفكر بأشياء غريبة مجنونة، ولكنه اليوم يكتشف أن هناك من هو أكثر جنوناً منه. لا شك أن القلعة مليئة بالمجانين. وهبط ذلك المنحدر على الفور، ومضى نحو كازم وهو يتلفت خلفه خائفاً أن يلحقه الجنون، واتجه تواً إلى ناجية بنت أبو الحيد. كان محتاراً ومتردداً، لأنه يشعر أنها تثق بحكمة والدها في تأهيل فتاها ليصبح نقيباً قوياً، ورغم ذلك وقف بين يديها كعسكري بليد، وأخبرها أن الطفل يتعرض للتعذيب وأن جسده أمسى مخدراً ووعيه غائباً، ويخشى أن يصاب بمكروه. وفوجئ بالرضا يرتسم على قسمات وجهها الحزين، حتى خيل إليه أنها تبسمت سروراً بالخبر، يا للعجب! لم تغضب أو تغتم مما سمعت، بل راحت تهون عليه وتطلب منه أن يتجاهل ذلك. إنها أغرب أُمٍّ يراها في حياته، وعاد إلى منزله مرهقاً متضايقاً، وما إن وضع مؤخرته على الأرض، حتى خاطبته زعفران بتهكم:

– إنك تبدو محطماً، كشخص سقطت على جسده صخرة.

– كيف تهزئين بي وقد قطعت مسافة شاسعة لأتفقد حال ابن طعيم! من الطبيعي أن أتحطم وهم يدفعون لي راتباً كريماً من المال لقاء خدماتي، ولكني متضايق.

وصمت قليلاً، ثم استأنف وهو يتنفس بصعوبة:

– أنا أعمل مع أناس مجانين، وأخشى أن أفقد عقلي أو صبري. الفتى الذي نجا من اعتداء السوق، وعانينا كثيراً من أجله، سيموت على أيدي أهله بحجة تأهيله وإعداده لمهام النقيب. لشد ما يغضبني جده ذلك العجوز الذي يدعي الحكمة والفطنة.

– لا تتدخل في ما لا يعنيك يا رجل، لا تكن كالدجاج التي تترك الحبوب جانباً وتنثر التراب على جسدها بحثاً عن دودة.

وهتف جابر بشيء من الرجاء:

– لا تفعل شيئاً يا أبي يجعلنا نطرد من القرية. ها قد بدأ أبناء الجيران يدعونني للعب معهم.

– لن أدعك تقضي عمرك في الغوغاء يا بني، ما إن تنقضي عطلة الصيف حتى تذهب معي إلى المدينة.

وبقيت امرأته تتحدث عن جاراتها، والأطعمة المتبادلة والزيارات. لقد بدأ الأهالي يعتبرونهم عائلة مرموقة، حتى هو نفسه، مأمون، بات مزاراً لبعض الأشخاص البائسين الذين يطلبون قرضاً آجلاً أو استشارة في أمر ما، وقد يأتي خلسة بعض المتخاصمين الفقراء ليحل مشاكلهم حتى لا يضطروا إلى الوقوف أمام نقيب القبيلة أو رؤساء العشائر، الذين يتقاضون المال لقاء إصلاح ذات البين. وبعد عودته من القلعة راح يكافح قلقه بالانشغال بأمور شتى، وما كاد يشم عبق الراحة، حتى أتت

إليه امرأتان حزينتان، وكانت شكواهما شائكة جداً، وتطالبان بإطلاق سراح زوجيهما المعتقلين على ذمة مقتل النقيب أرحب، وهما التابعان اللذان كانا في رفقته يوم قتل، ووقع عليهما العقاب بسبب تخلفهما عن حمايته. إذ كانا يوم ذاك غافلين يبتاعان المؤن، وقد أذن لهما النقيب أرحب بفعل ذلك.

وقف مأمون أمام ناجية بنت أبو الحيد، وسرد تمهيداً طويلاً يثبت وضاعة أصله الاجتماعي، ومقدار حبه لأرباب نعمته، وفي آخر المطاف سألها إطلاق سراح التابعين السجينين، ثم هبط بنفسه إلى قبوٍ أسفل الدار الكبير، يصطحبه الحارس، وتوغلا في ممر طويل مظلم ينتهي بغرفة صغيرة جداً ليس لها نوافذ، وفي داخلها يقبع التابعان وهما في حالة مزرية، وما إن رأيا الرجل يدخل حتى حاولا النهوض دون جدوى، إذ تيبست أقدامهما وأعصابهما، وساعدهما مأمون، وقادهما كطفلين حتى باب الدار الكبير. وهناك أطلقهما كعصفورين صغيرين لا يجيدان الطيران، وظلا يتخبطان في السير حتى دخلا بيوتهما بشكل مفاجئ.

ولما سمع النقيب ناجي عن إطلاقهما أيقن أنه أمسك مأمون بالجرم المشهود. ودعا القبيلة للاجتماع، وجاء الرجال بملابس الحرب، ولكنه طرح مسألة إطلاق سراح التابعين، واتهم مأمون بالضلوع بهذا العمل الخطير، ورغم غضب الأهالي من هذه الدعوة إلا أن الموضوع كان هاماً، وإطلاق التابعين ليس بالأمر الهين، ووقف المتهم في منتصف الدائرة ليدافع عن نفسه، وخاطبه النقيب ناجي قائلاً:

– أيها الجزار الوضيع، كيف تجرؤ على تهريب شخصين من

الأتباع مستغلاً كرم أرملة شقيقي؟

– التابعان معتقلان دون ذنب، بينما ما زال القاتل طليقاً، وما حدث هو انتهاك للأعراف، ولم يكن أحد في السوق يتوقع أن يحدث ذلك.

وصدرت عن الحشود همسات تنم عن اليقين بصدق هذه الحجة، وصاح النقيب ناجي:

– أنت أنقذت الفتى، بينما التابعان لم ينقذا النقيب.

– التابعان بريئان براءة الذئب من دم يوسف، لقد وقع كل شيء بسرعة. ولا أحد كان يدرك ما يحوكه القدر.

واستغرب رجال القبيلة الجملة الخاصة ببراءة الذئب من دم يوسف، والتي سمعها مأمون في المدينة. من أين لهذا الرجل تلك الكلمات والجمل الغريبة؟ وظهر التابعان وسط الدائرة وهما بحالٍ مزرية، وأشارا إلى النقيب ناجي بإصبع الحنق واللوم وقالا بصوت صاعق:

– أهكذا نجازى يا آل طعيم؟ يعتقلنا هذا الرجل في وكر لا تسكنه الفئران! نحن نحتكم إلى رؤساء العشائر. ونرجو منهم الحماية لنا وللجزار الطيب.

ونُزعت الشيلان عن الرؤوس، وتساقطت على كواهل الرجال الثلاثة، ونظر مأمون إلى الأغطية باغتمام، وأراد أن يعيد حصته إلى الرجال شاكراً، ولكن التابعين عضّا على شفتيهما للتحذير، ما جعله يدرك أن من العار فعل ذلك، ولم يجد من سبيل آخر سوى الإذعان للأعراف، ليس هناك من ضير في حملها، ينبغي أن يصبر قليلاً على تبرم امرأته، وربما يستطيع أن يحشرها خفية إلى جانب الأغطية الأخرى.

وسرى نقاش حامٍ بين رؤساء العشائر وبين النقيب ناجي، فما

زالوا غاضبين منه بفعل دعوته لهم لشيء آخر غير الحرب والانتقام لمقتل شقيقه، وخرج حانقاً من الاجتماع، وتفرق الرجال إلى قراهم ومنازلهم غاضبين، بينما حمل مأمون الشيلان الخاصة به، ومضى إلى بيته وهو يفكر في ذريعة مقبولة لإيداع الأغطية في زاوية ما في المنزل بحيث لا تلاحظها امرأته زعفران. ودخل متسللاً إلى المنزل وامرأته تطهو الغداء، ورماها بالفعل فوق الأغطية السابقة دون أن يلاحظ أحد.

***

صار النقيب "ناجي" يحوم حول امرأة أخيه. ظل يبعث إليها بالرسل وكلمات الود القليلة التي يعرفها، حتى تبرمت الأرملة من إصراره وعناده، وفي سبيل تحقيق إرادته اقتنى مذياعاً من المحافظة ليسمع أغاني أيوب طارش المفعمة بكلمات الهيام واللوعة، ويتعثر به الأهالي ليلاً هائماً على وجهه في الطرقات، حاملاً المذياع مستمعاً إلى أغاني الهوى، وحين يُعاتب على ذلك يدعي أنه يحرس مداخل القرية، ويسهر من أجل سلامة الأهالي، ومع ذلك لا يجرؤ أن يقترب من دار أخيه المزود بحرّاس وعدد من الكلاب الضارية. لكنه في النهار يدخل سائلاً الأرملة عن أحوالها، حاملاً في كفه هدية أو أكلة تعدها امرأته بعناية دون أن تدرك ما يعتمل في نفسه.

ويبدأ يحدثها عن مغامراته وحياته التي لا تخلو من الإثارة، وعن صولاته وجولاته وجهوده الدؤوبة للنيل من آل شهوان. وقد أفصحت أنها تعيش ما تبقى من عمرها فقط لكي تنتقم، وأن هذه المهمة العسيرة

لن يقوم بها سوى فتاها هزّام. لا تدري لماذا يثقل على مسمعها بمثل هذه الأحاديث العقيمة! ورغم أنها زجرت رغبته بجميع الكلمات المتخيلة، لكنه كان يزداد إصرارا وعناداً، ولما أعيته الوسائل والحيل زار مأمون في المساء. وبعد قليل من التمهيد قال:

– أنت مقرب من ناجية كثيراً، وأريدك واسطة خير لتقنع امرأة أخي بقبول الزواج بي. أنت تدرك، لابد لها وطفلها من شخص يحميهما من صروف الزمن، وأنا أكفأ رجل لها، لذا أرجوك أن...

قاطعه مأمون على غير عادته مستعظماً الطلب:

– أرجوك أيها النقيب، أطلب مني يد هذه المرأة الوحيدة في منزلي، ويمكن أن نتفاوض بشأنها، أما ناجية فإياك أن تفكر قطعاً أنني أستطيع إقناعها بشيء كهذا.

وأخذ نفساً عميقاً وأضاف:

– بل من العار أن أحدثها عن ذلك طالما هي مرتدية السواد، فإذا ارتدت لوناً آخر يمكنني أن أتحدث إليها بشأنك.

ضحك النقيب ناجي رغم يأسه، وقال بشك يشوبه المزاح:

– كأنك تريدها لنفسك أيها الجزار، ليس ناقصاً إلا زواجك منها. لأنها تثق بك كثيراً، وما أنت إلا جزار وضيع، لا تنسى ذلك.

– لديّ امرأة تبلغ قامتها إلى سرتي، ولسانها أطول منها، ولكنها بحجم جيش من النساء، ويكاد فراشي يشتعل من فرط شهوتها، ورغم ذلك أرجو أن نكمل الحياة معاً، لم يبق من العمر إلا القليل.

ضحك النقيب ناجي مرة أخرى رغم غيظه، وخرج وهو يشتم الشيطان الذي يرتدي جسد هذا الرجل الضخم، لأنه من خلال سخريته

من نفسه وبراعته في قول الفكاهة وإضحاك من حوله، كل ذلك يشفع له كثيراً من الهفوات، بل ويجعل الآخرين يشعرون بأنه إذا لم يقدم شيئاً نافعاً، فإنه في نفس الوقت لا يشكل خطراً على أحد. ورغم ذلك صاروا يشعرون أنه يزاحم ليشغل حيزاً من الاهتمام في القرية، وقد بدأ يلفت إليه الأنظار، يرونه يذهب باستمرار إلى المدينة ويعود، ويتحدث بلكنة غريبة. ولم يكن هذا يسر الأهالي، لكن هذا لم يكن سبباً كافياً يدعو إلى طرده من القرية، وخلال هذه الفترة استطاع مأمون أن يأخذ معه جابر إلى العاصمة رغم أنف زعفران، وطاف به أجزاء كبيرة من شوارعها ومعالمها المدهشة.

كان الأب ينتشي للذهول المرتسم على ملامح ولده، ويحيطه علماً بأسماء الأماكن التي يمرون فيها، وفي شارع حدَّة قال:

– في هذا الشارع يوجد مركز محو الأمية حيث تعلمت القراءة والكتابة.

وكان يفرح حين يستوقفه بعض معارفه ويحيونه باحترام أمام ولده، حتى أن امرأة راشدة مكتنزة الجسد مغلفة بروب نسائي ضاغط استوقفته، ومضت تحدثه عن الدراسة والمستوى الذي سينتقل إليه في الشهر التالي، ولكنه اكتفى بما أخذه. لا يريد التبحر في العلم أكثر. يكفي إنه يستطيع أن يقرأ الوثائق، ويحسب رسوم الإيجارات التي ينقده إياها المُؤجَّرون، وبعد أن ذهبت المرأة نظر إلى ولده بقلق وقال:

– أحسبك ستحدث أمك عن كل شيء رأيته في المدينة.

أجاب بيقين:

– نعم، سأحدثها أنك شخص مرموق جداً يعرفك كثير من الناس،

وسأحدث رفاقي عن كل شيء رأيته هنا، يجب أن يعرفوا ما في المدينة من عجائب لم يسبق لهم أن رأوها.

أحس أبوه بامتنان كبير، حتى إنه قال بتواضع الماكر:

– نعم، ينبغي أن تلقي على مسمعها شيئاً عن طيبة الناس، وعن مدى احترامهم وتقديرهم لوالدك، إن صيتي هنا واسع، ولكن يجب أن يظل ذلك طي الكتمان، لأنها لا تصدق إلا ما يوافق هواها.

ثم أستدرك زافراً في الهواء بقوة:

– اسمع، لا تذكر لأمك خبراً عن المرأة التي تحدثنا إليها في الشارع، إنها معلمتي في محو الأمية، ولو تسمع عنها شيئاً لن تتردد في الاعتقاد بأنها ضرتها. أنت تعرف أمك جيداً يا جابر، تشك في ظلها، ولن تتردد في تعكير صفو حياتنا.

– نعم، اطمئن. لن أخبرها عن نساء المدينة المغلفات بالسواد.

ورغم ذلك لاح على وجه الأب بعض القلق، وكأنما كان يفكر في شيء بغيض، ومضى يقول:

– لا تقل لأمك ورفاقك عن أي شيء، يجب أن نسير دون أن يشعر بخطواتنا أحد، أنت تعرف أننا من البيع، ولا يجوز لنا التباهي على رجال القبيلة. هل فهمت يا بني؟

– نعم، إن رفاقي يقولون إنني لا أستطيع الزواج من أخت أحدهم حين أكبر، هل هذا صحيح؟

– نعم، ذلك صحيح، ولكن عليك أن تجيب بأن بنات البَيَع أجمل.

– بنت النقيب ناجي نادية أجمل من كل البنات اللواتي رأيتهن في سوق الربوع.

أمسكه والده من عنقه ورفعه في الهواء كجرو صغير، وهو يقول بسخط:

– لا تتحدث عن بنات آل طعيم. إنهن بعيدات عنك وعن أهلك بُعد النجوم التي في السماء، عندما كنت في مثل سنك لم أتأمل حذاء بنت أتفه "قبيلي" منهم، أما عينك الزائغة الخبيثة فقد وقعت على وجه بنت نقيب القبيلة، وإن زاغت مرة أخرى سأفقأها.

لاحظ مأمون إن المارة ينظرون إليه باستغراب، فتركه يسقط من يده، وصمت قليلاً، ثم سأله:

– هل تحدثت إلى أحد عن جمال بنت النقيب ناجي؟

– لا، مازال هذا الكلام في رأسي.

– حمداً لله، نجونا من الشر. إياك يا بني أن تتحدث ونفسك حول هذا الموضوع ثانية.

تنفس الأب الصعداء. لقد تعامل مع ولده بحزم وقسوة لأول مرة، وذلك كي لا يتورط في متاعب العشق، لأنه لن يتمكن من الزواج بأي فتاة من فئة أعلى. وذهبا إلى الحلاق الذي شذّب رأس جابر الملبد المجعد، ثم سارا إلى الخياط فأخذ قياسه من أجل بنطال وقميص، وبعد ذلك عرجا إلى أستوديو تصوير والتقطا له الصور التي طلبتها المدرسة، ثم ذهبا لاستخراج شهادة ميلاد له، ووقف الأب حائراً أمام الموظف الحكومي في مكتب التسنين، لأنه لا يعرف تاريخ مولد جابر، ورد على سؤال الموظف عن العمر:

– اسمع يا أخي، لقد رزقنا بهذا الولد في العام التالي من عام الجراد. لا أدري بالضبط متى كان ذلك.

تبسم الموظف وقال بإحباط:

– طالما أعاني من مشاكل القرويين، ماذا أفعل الآن؟

– حاذر أن تعيدني خائباً، أريد أن أضمه إلى القسم الداخلي في المدرسة. تستطيع أن تقدر عمره كما يقدر الجزار كمية اللحم في جسد الحيوان.

ضحك الحاضرون، وحرك الموظف أنامله في الهواء كما لو كان قد فقد جميع الحيل، ثم أعاد النظر إلى الفتى بعينين فاحصتين، وكتب تاريخاً عشوائياً بحروف عربية وبخط رقعة مائل، وبعد قليل من الإجراءات الروتينية والتنقل بين موظف وآخر حصل على شهادة الميلاد المتأخرة، وفي اليوم التالي سارا إلى المدرسة وتأمل جابر البناء بتهيب، وقال بغتة:

– أي نفع يمكن أن نجني من الدراسة عدا القراءة والكتابة؟

– لا بد من منافع استدعت إنشاء هذا البناء الكبير. يكفي أن نعيش فخورين، على الأقل سيقول الناس: "مأمون الجزار ألحق ابنه في المدرسة". "ابن مأمون يتعلم في المدينة".

وسرعان ما تم قبوله، وإخطاره بالموعد الذي يجب ألا يتأخر عن فصله الدراسي الأول، وأحس الأب بالارتياح، وأوقف سيارة أجرة وذهبا باتجاه الفندق، وتبسم صاحب الفندق وهو يرى شكل جابر الجديد، وأخرج مغلف رسائل وسلمه إلى الأب قائلاً:

– طرد جاء إلى عنوان الفندق باسم المرحوم النقيب أرحب.

قلب مأمون المغلف بتهيب، ودقق النظر في ختم على خلفيته، ورأى شعار وزارة الإنشاءات والمشاريع، وتردد طويلاً قبل أن يفض

الطرد. لقد وجد نسخاً من وثيقتي مشروعين جاهزين للتنفيذ في منطقة آل طعيم، وابتهجت أساريره، وذهب وقابل المقاول الذي رست عليه المناقصتان، ويدعى عبسين العزعزي، وحين سأله عن موعد التنفيذ، وعده أن يتم ذلك قريباً جداً، وأحس بحماس شديد في العودة إلى القرية.

وما إن عاد وجابر حتى وجدا زعفران غاضبة بفعل الأسبوعين اللذين قضياهما في المدينة. لم يستطع الروب الكشميري النسائي الذي جلبه لها أن يهدئ من هياجها، واحتدم الشجار حول غياب جابر وشكله الجديد، وخوفها من أن تصيبه عين خبيثة أو أي مكروه، ورد الأب قائلاً بغيرة عجز أن يكبحها:

– لم يسبق أن أزعجك أمر غيابي من قبل، ولعلك تكونين سعيدة حين أفارق هذا المنزل.

– أنت رجل تستطيع الإفلات من قبضة الموت، لم أعد أخشى عليك بعد أن عدت سالماً من آل شهوان.

– نعم، أنت على صواب في ذلك.

خفت حدة غضبه، وقد أعجبه أن يبدو في نظرها رجلاً غير هيّاب، وأردف بصوت رجولي واثق:

– سيغيب لمدة سنة ليدرس في القسم الداخلي حتى تنشأ المدرسة ها هنا.

وأجدى صوته نفعاً، ومضت تتحدث بشك عن الجدوى التي سيجنيها ابنهما من الدخول إلى المدرسة، وعن مظهره الشاذ الذي سيدع أنظار القرويين تزدريه وألسنتهم تتحدث عنه بالسوء، وأسرعت

في إخفاء البنطال والسترة الملونة التي جاء بهما من المدينة، لكنها لم تستطع التخلص من قصة رأسه، فأمرته أن يرتدي كوفية بيضاء، أو شالاً من شيلان الأهالي التي تملأ زاوية في الدار.

لقد كانت ترسم له صورة راعٍ يقود قطيعاً كبيراً نحو الجبال القريبة، مثل كثير من الفتيان في القرية، بل إن مهنة الرعي كما تسمع مارسها بعض الأنبياء وأبناؤهم، ويمارسها أبناء القبائل أيضاً، لكن المعضلة هي هل تسمح الأعراف أن يمارس أفراد البيع هذه المهنة؟ هذا ما كان يؤرقها كلما فكرت في الأمر، ولكن ها هو الأب يصر على تعليم الفتى، ولا تدري أي نوع من التعليم سيتلقاه في المدرسة! ليس هناك شخص في القرية يفكر بمثل هذا العمل المجنون. أحست أنها لن تستسلم بسهولة لفكرة ابتعاده عن المنزل، وما زالت تتحين الفرصة للانقضاض على زوجها لثنيه عن رأيه وهو في حالة ضعف، لكنه صار أكثر ثقة بنفسه، بل صار يطالبها أن تحترمه وتعامله بتقدير لأنه صار يقرأ ويكتب.

***

غضب مأمون من الأهالي الذين تلقوا خبر المشروعات القادمة باللامبالاة وعدم التصديق. لم يتفاعل النقيب ناجي مع الموضوع، وكلما فتح مأمون الحديث عنه أرجأه إلى موعد آخر، وظل التجاهل قائماً حتى أقبل المقاول عبسين ومعداته وعماله، وأحدث ذلك ارتباكاً شديداً لأفراد القبيلة، وبرزت رؤوس العشائر والقرى المجاورة لقرية

كازم، وطالبت في البداية أن تنشأ هذه المشروعات في أرضها، ولولا العناية الإلهية لكانت حدثت مجزرة، ويبدو أن العشائر لم تعد تعترف بمكانة النقيب ناجي على رأس القبيلة، لأنها أتت من تلقاء نفسها إلى اجتماع طارئ، وبات المقاول عبسين حائراً، إذ لم يكن معتاداً على مثل هذا النوع من المشاكل.

لكن كان مأمون على كثب منه، يتحفه بالمعلومات التي يحتاجها ويهدئ من روعه، وأخيراً أنذرهم المقاول بأنه لن ينفذ أي مشروع، إذا لم يتفقوا على رأي موحد حول الموضع المناسب لإقامة المنشأتين، وارتفعت الأصوات والآراء، وسد المقاول أذنيه بفعل الصراخ الشديد، وبدأ يتأهب للمغادرة، ولكن مأمون خاطر ودخل إلى وسط الدائرة بانفعال، وطلب منهم الإصغاء إليه.

كان يعرف ما يريد أن يقوله، ومع ذلك بدا مرتبكا لأنه يعلم مسبقاً إنه ينتهك الأعراف، لا يتحتم على شخص من فئة البيع أن يدخل إلى وسط الدائرة قبل نقيب القبيلة ورؤساء العشائر، عليه أن يتقيد بالتسلسل الهرمي للفئات، لأن المجتمع القبلي مثل قطيع الذئاب، يخضع لتسلسلٍ صارم، بحيث يكون القائد هو المتصدر ثم الذي يليه، حتى أصغر عضوٍ في المجموعة.

ومأمون وغيره من البيع يقعون في آخر الهرم الاجتماعي، وفي الغالب لا يسمح لهم بالدخول أو الكلام، وقد تخطى حدوده كثيراً هذه المرة، وبفعل ذلك أخذ الهدوء يسيطر على المكان، وبدا الجميع مندهشين بفعل الجرأة التي يتحلى بها هذا الرجل الضخم، ولو كان الشرف والمنصب يأتيان من الحجم كان يمكن أن يكون رئيس دولة

أو عاهلاً في مملكة، وما زال أهالي كازم يتذكرون اقتحامه اجتماعهم في المرة الماضية، وقد شفع له يوم ذاك جهله وسذاجته ووقوف ناجية بنت أبو الحيد إلى جانبه، وكان عليهم، قبل إثارة المشاكل، أن ينظروا ما يحمل في جعبته هذه المرة من أنباء، فقال بصوت متلعثم:

– أعرف حجمي في القبيلة، فأنا آخر عضو فيها، ولكني أخشى أن نفقد هذه الفرصة، مشفى ومدرسة، ماذا نريد أكثر من ذلك؟ وأنتم تعلمون أن آل شهوان سوف ينتهزون الفرصة ويحولونها إليهم.

وعند هذه العبارة الأخيرة ثارت الدماء في عروقهم وصاحوا:

– لن نسمح بحدوث ذلك، مهما كان.

وصاح النقيب ناجي مختلقاً سبباً للشجار:

– أيها الجزار الحقير، كيف تجرؤ على التوغل إلى قلب دائرة القبائل والعشائر؟

– ليس هذا وقت مناقشة ذنبي، دعونا أولاً نمسك بالمشروعين، ثم أنا اللحم وأنتم السكين كما يقول المثل.

وطابت نفوسهم، وسألوه إن كان لديه رأي عن الموضع المناسب للمشروعين، فأجاب:

– سوق الربوع يتوسط القرى، إنه أنسب موضع، وليس مملوكاً لأحد.

وذهب المقاول عبسين إلى هناك، وشرع ينفذ العمل حسب المخطط الذي جاء به من المدينة، ولكن في موعظة الجمعة أفصح الفقيه النزق عن قلقه من دخول علوم غريبة تفسد عقول الأبناء، ولو كانت دروساً دينية لكانت أحسن وأجمل، وهو يقوم بتعليم الصغار في

المسجد منذ أمد طويل.

بعد انقضاء الصلاة، أفصح بعض الآباء عن مخاوفهم من تأثير المدرسة السيئ على أبنائهم وتأثير المشفى على أجسادهم، وأكد الطبيب أبو عيضة أن أعشابه وعقاقيره شاملة تشفي الأسقام، ولا حاجة لطبيب غريب وبناء كبير يأخذ حيزاً من أرض القبيلة، واستصوب عدد من الرجال هذا الرأي، ووقفوا في الفناء يتفاوضون حول كيفية إيقاف المشروعين. وأوضح النقيب ناجي أن الخطر يتعدى العلوم الفاسدة إلى تعطيل الأطفال عن مزاولة الأعمال في الفلاحة والرعي، وأخيراً اتفقوا أن يجبروا المقاول على العودة من حيث أتى.

كان مأمون في المسجد، حيث صار لا يفارق الأهالي أينما كانوا. ورآهم ماضين في طريقهم إلى سوق الربوع للقضاء على المشروعين، وغمره شعور الغضب، هل هؤلاء جادون؟ ومرة أخرى قام بتذكيرهم بأن المشروعين سيذهبان إلى آل شهوان في حال أقدموا على خطوة خاطئة، وأوهمهم بأن خصومهم يريدون أن ينشأ المشروعان في أرضهم، وقد قاموا باغتيال النقيب أرحب بفعل هذين المشروعين، ورفضهما يعني تحقيق طموح منتهكي الأعراف، ومخالفة جائرة لإرادة نقيب القبيلة أرحب آل طعيم المغدور به. وحينما سمع الرجال الغاضبون هذا الكلام ارتدوا إلى بيوتهم، وهم يلعنون المقاول عبسين وآل شهوان وفئة البيع، وكل من يقف حجر عثرة في طريقهم. خرجت هذه الكلمات من فم مأمون بلا وعي، نفثها بسذاجة شخص لا يجيد السباحة يلقي بنفسه في الماء لينقذ شخصاً آخر يوشك أن يغرق، وقد أثمرت جهوده وأثَّرت كلماته في نفوس الأهالي، فأوصدوا أبواب

منازلهم رافضين نداء النقيب ناجي والفقيه النزق والطبيب أبو عيضة الذين جاءوا يحثونهم على التوجه لتعطيل المشروعين، لكنهم أفلحوا في إنذارهم بمقاطعة عائلة الجزار لانتهاكه الأعراف، وقيامه بدور أكبر من حجمه، بحيث أوشك أن يتسبب بنزاع في القبيلة، ولم يختلف اثنان على ذلك.

وأحس مأمون بكثير من المقت والاحتقار في نظرات الأهالي. وبات جيرانه يفرون من طريقه، ويتفاداه الأشخاص الذين تربطه بهم علاقات وشيجة، وأدرك صعوبة العيش وسط هذا الجو المفعم بالجفاء، لاسيما أنهم في أعماقهم يعتقدون أنه أقل منهم شأناً، إضافة إلى أنه لا يفقه شيئاً عن أعرافهم، وقد احتار كثيراً كيف يتصرف في مثل هذا المأزق! وعجز أن ينسج حديثاً عابراً وأحد جيرانه.

خرج يهيم على وجهه في القرية، وسأل عن أكثر الأشخاص معرفة بالأعراف في القبيلة، وبالكاد أشار أحدهم إلى أحد المنازل ونطق اسم الجدة "جمرة" دون أن ينظر في وجهه، وسرعان ما اتجه إلى ذلك المنزل، ووجدها مقعدة على الأرض كحجر ساكن.

أحس أنه قد قابل امرأة تشبهها، وهي الجدة "سودة" آل شهوان، ووجد أيضاً في المنزل نساءً ورجالاً من مختلف الأعمار، وكلهم يودون سؤالها عما يبدر في أذهانهم حول الأعراف القبلية، ولكنها صماء لا تتلقى الأسئلة من أفواه السائلين مباشرة، بل تترجم لها إحدى حفيداتها الكلام عن طريق الإشارة، وسرعان ما تجيب بصوت واضح مستعينة بأحكام أهل العرف، وأقوال الحكماء المحليين القدامى، وبالأمثال الشعبية والحكايات. وحين دخل سألته المرأة التي استقبلته بجفاء

عن اسمه ومهنته وانجازاته رغم معرفتها بشخصه. فأخبرها كثيراً عن نفسه، ورغم ذلك كان آخر شخص في الصف الطويل، ولم ينظر إليه أحد من الحاضرين، لاسيما معارفه من أهالي كازم، ومكث منكمشاً مطأطئ الرأس، يشعر بالذل والحزن والاختناق، لكن إجابات الجدة جمرة كانت تغريه بانتظار دوره، وشغل نفسه بسماع الحديث الدائر حول الأعراف وقصص وأمثال قصيرة موجزة قديمة شيقة عن الأهالي والقبيلة، ثم دخل رجلان من أبناء العشائر، واستقبلتهما المرأة بالترحاب والبشاشة، وسألتهما نفس السؤال عن الاسم والمهنة والانجاز، ورغم سيرتهما الوضيعة أفسحت لهما مكاناً أمامه. فأحس بالغضب الشديد من هذه المحاباة، لكنه لم يستطع أن يتبرم في مجلس الأعراف، وبدلاً عن ذلك تمنى بحرارة أن يقفل باب الدخول. ودخل ثلاثة أشخاص آخرون، أخذا موضعه أيضاً، ووقف منزوياً بحزن في نهاية الصف.

لحسن حظه أن جسده الضخم سد المدخل، وفي الوقت نفسه كانت الإجابات مقتضبة وسريعة، لأن الجدة جمرة رغم صحتها الجيدة لم تكن تحتمل الإطالة في الحديث. بدت مثل أي حكيم حزين غزير المعرفة ذائع الصيت، كلماته محدودة ودقيقة وذات عمقٍ كبير، ولما جاء دور مأمون، كان قد خلي المجلس من الناس. ووجد في هذا فائدة لكي يسأل ما يريد، قالت الجدة جمرة بصوت متعب تخاطب المرأة التي بجوارها:

– انظري ما يريد أن يعرف هذا الرجل؟

قال مأمون بضيق:

– أريد أن أعرف أولاً لماذا أكون آخر شخصٍ في الصف؟

وكانت المرأة تترجم كلام مأمون، والجدة "جمرة" تجيب بصوتها المتعب.

– لا شك أنك جئت متأخراً أو تنتمي إلى فئة حقيرة.

– ولكني أكره أن أكون جزاراً، لا أرغب في قتل الحيوانات.

– ستظل وضيعاً وإن كنت بائعاً أو بقالاً أو حرفياً.

– ربما أتمكن من الانتقال إلى فئة أعلى، لقد أصبحت أقرأ وأكتب.

– لا أجد هذا في الأعراف.

– في المدينة فئة "البيع" هي أعلى الفئات، ويطلق عليهم للدلال اسم التجار.

– لا أجد هذا في الأعراف.

– أنا وكيل أعمال عائلة النقيب أرحب.

– عملك هذا لن ينقلك إلى فئة أعلى، بل سيوفر لك بعض المال، ناجية بنت أبو الحيد هي أكثر الأهالي كرماً وتمسكاً بالأعراف، وهي خليفتي، وأنا فخورة جداً بها.

– الأعراف الحسنة انتهكت، وما أنتم سوى حرّاس على جثتها، لِمَ تعاملوننا هكذا بازدراء؟ من كان سيمنحكم اللحم لو لم أكن جزاراً؟ ومن أين تحصلون على ملابسكم وطعامكم لولا البَيَع؟

– ماذا تريد يا بنيّ؟ أشعر بأنك واقع في ورطة.

– نعم، لقد دخلت في دائرة اجتماع رجال القبيلة قبل الجميع وبلا دعوة، والآن جفاني الجيران، ولم يعد الأهالي ينظرون إلى وجهي، أمسيت لا أتحمل العيش في هذه القرية.

– هل أنت مجنون لتفعل ذلك؟ لا أستطيع أن أفعل شيئاً.

– نعم، أنا أحمق أيتها الجدة، لا أستطيع ضبط نفسي حين يوشك الأهالي أن يفسدوا شيئاً ما يصب في صالح الجميع.

– الجفاء شيء يسير يا بني، انظر ما بوسع ناجية أن تفعل من أجلك.

– كلا، لن أتحدث إليها، جفاء الأهالي أيسر.

– لم يسبق أن تحدثت مع شخص مدة طويلة. كان الله في عونك يا بني.

خرج إلى مشارف القرية وهو يوشك أن يختنق. وقف إلى جوار شيخ مستظلٍّ شجرة، يرعى قطيعاً من الماعز، وسأله مأمون إن كان هناك مخرج من غضب الأهالي، وماذا يمكن أن يفعل؟ وفوجئ بالشيخ يتحدث إليه باهتمام، بل ولمس في محياه بعض الشفقة، ونصحه أن يذبح عجلاً سميناً في الموضع الذي انتهك فيه العرف، ثم يدعو النقيب ناجي والأهالي إلى وليمة، وما إن يشربون المرق ويتذوقون اللحم حتى يتشرب العرفان إلى نفوسهم والود إلى أرواحهم، ويكون هذا كافياً لإعادة الوئام إلى القلوب. وهذا الفعل قد لا يجدي نفعاً في حال أضمرت نفوسهم الشر، وليس هناك حل آخر غير تقديم العِجْل وانتظار الحُكم.

وفكر مأمون في مغزى ذبح حيوان سمين، ولكن الأعراف يجب أن تحترم، ولا يعدم الأمر من وجود حكمة وإن كانت غير مدركة.

وذهب سراً يبحث عن أروع عجل في القرى المجاورة لكي يحافظ على روح المفاجأة، ومن بين عجول كثيرة اختار عجلاً ممتلئاً أحمر اللون، وانتابه الحزن والتشاؤم لمجرد أنه سيقوم بذبحه. كان يظن أنه لن يعود ثانية إلى إراقة دماء البهائم، وفي باحة القرية أغمض عينيه وذبح

الحيوان، وأقام وليمة كبيرة، وانتظر بصبر نافد ما سيصدر عن الأهالي من قرار.

وفي آخر الوليمة غسلوا أيديهم وجففوها من آثار الدسم ومسحوا الودك عن أفواههم، واستخدموا العيدان الرقيقة لانتزاع ما علق بين أسنانهم من فتات اللحم، وشربوا الشاي على مهل، وبعد لأي اجتمعوا في منزل النقيب ناجي لحسم الموقف. وهناك قرروا بلا رحمة أن يطرد من القرية، وألا يتدخل في شؤون القبيلة مرة أخرى، وهزّ مأمون رأسه باغتمام، وانسحب من المكان وهو مكتئب، لكنه كان سيغادر القرية على كل حال، إذ لا يمكن أن يتحمل الحصار المضروب عليه من جيرانه.

في بيته انقضَّت عليه امرأته وهي ترى الانكسار الشديد الذي وصل إليه، فسدّ خرمَي أذنيه بالعُطب، وارتمى على فراشه وهي ترطن بجانبه، وكأنها تقرأ له قصة مرعبة، حتى جف لعابها وآلمها لسانها، وعندما شع نور الصباح ذهب إلى ناجية بنت أبو الحيد، واستأذنها بالعودة إلى سوق الربوع دون أن يذكر لها أي أسباب. كان واضحاً أن البقاء في كازم لم يعد مبرراً، حيث بدأ السوق يعود إلى سابق عهده، وصار البَيَع يخاطرون ببناء أكواخهم الصغيرة ويعيدون ترتيب حوانيتهم، متسترين وراء المنشأتين الحكوميتين القشيبتين. كان مغتماً وليس لديه أدنى شك في أنه سيعود إلى مهنته السابقة، لكن الأرملة أوضحت أنه ما زال وكيلاً، وفي هذه الحالة يستطيع جابر أن يدرس في المدينة، وهذا خفف عنه قليلاً.

الفصل الرابع

نصب مأمون الجزار خيمة تقيهم من الهجير وعيون الفضوليين، وأعلن عن رغبته في أن يستعيد منزله الصغير القديم، وما إن ذاع الخبر حتى اجتمع حوله جيرانه البَيَع للمساعدة، فأزالوا الأنقاض، وتركوا تلك المساحة خالية نظيفة جاهزة للبناء، ولما رأى ذلك تأثر، وأحسّ أنه في الوسط الذي يستحق أن يعيش فيه، ونظر إلى الموضع الذي رسا فوقه حانوته، وأحس بحنين حيوان أليف إلى مأواه.

وانبهر بمشهد المنشأتين الحكوميتين وهما تلوحان مميزتين كقمرين في ظلام دامس. كان العمال يشيدونهما كمجموعة مجتهدة من النحل تبني أقراص العسل داخل القفير، أصواتهم تشدو بأناشيد العمل المعربدة التي ترن في الآذان، وتشحذ الهمم بألحانها الصاخبة. وقف جانباً شخصان لا يعملان، وهما المقاول والمشرف. كانا هناك كشيئين فائضين عن الحاجة، لكن الحركة والدوران حول البناء كان جزءاً من عملهما، وأحياناً يلفتان الأنظار إلى وجودهما بإبداء بعض الملاحظات الصغيرة لهذا وذاك.

وفي إحدى المرات اصطدم المقاول عبسين بجسدٍ ضخم وهو

يدور حول البناء، وتبادلا الاعتذار على حد سواء، واندهش كل منهما لرؤية الآخر، كأيّ شخص يتعثر بصديق لا يتوقع وجوده، وبعد لحظة الانبهار تلك صافحه المقاول قائلاً بعجب:

– ماذا فعل الله بك يا رجل؟

– جئت كي أعيش هنا، تعلم أن هذا الموضع سيضج بالحياة، ويزداد أهمية بسبب المنشأتين.

لم يجد أي ضرورة ليشكو ما حلّ به في كازم، وكيف أرغم على العودة إلى السوق، وكأن المقاول أحس بالحيرة التي تغشى وجه الرجل الذي رآه في اجتماع آل طعيم، وهو يكافح لإقناع الأهالي بالمشروعين، وظنّ أنه يمر بضائقة مالية أو جاء يبحث عن عمل، فقال بصوت ذي رنة عالية:

– اسمع يا أخي، إنني في عوز شديد إلى حارس ليلي لقاء ألف ريال في الشهر.

– ولكني أعمل وكيل عقارات عائلة المرحوم النقيب أرحب.

– نعم، سمعت عن الحادث، وعرفت أنّ هناك جزاراً طيباً أنقذ ولده من الموت.

– نعم، ذلك الجزار اللعين هو أنا، ومنذ ذلك الحين لم أضع قدميّ إلا على أنقاض السوق.

– أنظر إلي، لا يقر لي قرار، أتنقل بين المدن والقرى، وأنام وجميع حواسي متيقظة خائفة، ودائماً أحلم بكوابيس مريعة، وذلك بسبب الإرهاق والتجوال في بيئات مختلفة والخوف من الخسائر.

أحس مأمون أن رجال الأعمال أيضاً يخشون فقدان أموالهم أكثر

من خشيتهم على حياتهم، بل إن حياتهم هي المال، وقد سمع الناس في المدينة يتحدثون عن انتحار مقاول كبير بفعل مدينة شيدها منفقاً جميع أمواله، لكن الممول العربي لم يسدد الأموال المتفق عليها، وتاجر آخر عَلِق داخل خزنة متينة كاتمة للصوت، عندما كان يرص رزم النقود فوق بعضها، ومات مختنقاً، الأغنياء أيضاً ليسوا سعداء، لديهم مشاكلهم وهمومهم، أو لعل في هذا الكلام سلوى للفقراء والمعدمين.

***

في يوم قريب كان المقاول عبسين يتجول في السوق، ومأمون يحث بعض العُمَّال على إنهاء حفر أرضية منزله القديم. كانت المساحة الفاصلة بين المنزل والحانوت كبيرة، وهي باحة ترمى عليها مخلفات الحيوانات التي تذبح، ونفايات المنازل والحوانيت الأخرى، وأصبحت هذه المساحة القذرة مرتعاً مناسباً للقطط والكلاب. وأراد صاحبها أن يبني منزله وحانوته على نفس الشكل والحجم السابقين، وبنفس مواد الحجر والطين، ولذلك أوصى العُمّال أن يحفروا فوق العلامات السابقة، وألا يتجاوزوها إنشاً واحداً.

أوقف المقاول عبسين سيارته بالقرب، وجاء يمشي يتقدمه كرشه البارز الذي يوحي إلى مكانته وترفه. بدا جذلاً يتهادى كشخص لم يصح من نومه بعد، تفوح من أنفاسه رائحة نفاذة سبق لمأمون أن تضوعها من أفواه سكارى في المدينة، وهؤلاء يكونون عادةً في غاية النشوة والمزاج الجيد، وأحياناً يتصرفون بشقاوة كالأطفال، وأحياناً

بغضب كالمجانين.

قال المقاول عبسين بلا كلفة:

– ماذا تفعل يا صديقي؟

تلفت مأمون حوله، ولم يجد سوى العُمّال المنهمكين في الحفر، فأضاف الرجل:

– هيه، أنت أيها الجزار، ماذا تود أن تفعل في هذا الموضع؟

نفخ مأمون في ضيق وأجاب:

– ماذا تظنني أفعل؟ إنني أستعيد منزلي القديم، أود أن أعيد إليه الحياة.

– وهل يتسع هذا الموضع الصغير لجسدك الضخم؟ لا شك أن قدميك يخرجان من النوافذ حين تنام.

انفجرت من شفتيه ضحكة صاخبة مجلجلة، وكتم العمال ضحكاتهم بأيديهم، ورد مأمون بغضب:

– نعم، إنه في حجم بطن أمي، لذا أنام فيه متكوراً كالجنين. إنه منزلي ويحق لي النوم بالطريقة التي تناسبني.

– لكنك وكيل عقارات أيها المخادع، وتستطيع أن تبني قصراً.

– أنت ثمل جداً، وفي وضع لا تستطيع أن تفهم شيئاً.

أمسك المقاول براحته وسحبه جانباً، وأخذ يقول بصوت متلعثم مرتعش:

– بل أنا في أحسن حالاتي، ولا أدري ما يجبرك على البقاء في هذا المجال الضيّق، لا ريب أنك لا تقطن هنا وحيداً. هناك أطفال وزوجة وصراخ. أنت تتعذب أيها المسكين.

– دعني وشأني أرجوك، أنت لا تفهم شيئاً.

– اسمع يا أخي، لقد قطنت وامرأتي في غرفة واحدة في المدينة، حدث هذا في العام الأول بعد الزفاف، ولكن ما إن تحسنت أحوالي حتى أنشأت منزلاً كبيراً.

استرد أنفاسه قليلاً وتابع:

– لن تصدق أي فائدة جنيت، لقد صرت أمكث في مكتبي أو غرفتي الخاصة دون أن يعكر صفوي أحد، بل هل تصدق أنّ لديّ غرفة سرية أهرب إليها من رغاء زوجتي وثرثرتها؟ إياك أن تظن أن أصحاب المال بمنأى عن المشاكل الصغيرة، امرأتي نصف متعلمة، وهذه هي المشكلة. ليست غرّة كالأمية ولا رزينة كالمثقفة. والمعضلة الكبرى أنها أصبحت متدينة متجهمة تظن نفسها على حق دائماً.

– لا ريب أن في حديثك حكمة لا أجدها فيك عندما تكون حاضر الوعي، ولكنك تغفل عن أعراف هذا المكان. انظر حولك إلى مساكن البَيَع، إنها متماثلة بسيطة كجحور الفئران، ولا أدري هل الأعراف تسمح للبيع بالتوسع في البناء، أم إننا نخشى من غضب رجال القبائل وحسب؟

– إنه المال، المال، ألا توافقني الرأي؟ ليس غيره ما يغل أيدي الناس وعقولهم، نعم، إنه مجرد ورق حقير، ولكنه قادر على فعل أي شيء، وطالما يلهث وراءه أرباب الشوارب العريضة كما يلهث الفحل خلف الأنثى.

شرد مأمون، ومضى يفكر بعمق، لم يعد يتابع الحديث، بل صار غارقاً في الطموح والغم، ولما أحس بالصمت مطبقاً حوله، أخذ يقول

وهو يعتني بألفاظه لتخرج تامة المعنى:

– أنا أملك رزماً كثيرة من الورق، لم أحصها بعد، لأنني ببساطة أجهل كيف أتصرف فيها. هل تصدق ذلك؟

– نعم، أنت على حق، أنت لا تملك الفكرة، هذا طبيعي، نحن جميعاً نخشى الأفكار غير المألوفة.

– نعم، أجهل أول خطوة، أخشى الفشل، أقاويل الناس، ردود أفعالهم، ولسان المرأة التي ترقد إلى جانبي، لا أحد يثق بي أو يقف إلى جواري ليشد أزري، الجميع وحوش.

– ها قد بدأت تتلمس الطريق، وترى الأشواك، لا بد لك من مصباح ينير لك الدرب، لأننا عندما نعبر وسط الظلام ونحن خائفون، نرى الأشياء التي في الجوار بأشكال مرعبة. وعندي دواء يقوي القلب ويدعك لا تبالي بأي شيء.

– ما هو؟ إنه حقاً ما يعوزني لأكون شجاعاً.

– إنه الخمر المعتق، الراح، النبيذ، الفودكا، الكونياك، المُدام، المارتيني، الأسماء كثيرة.

– الخمر؟ هل أنت سكران؟ نعم. أنت ثمل فعلاً ولا تعني ذلك! زعفران وحدها تجعلني أثمل كدراً، وذلك سبب كافٍ لأخاطر بتوسيع مجال الدار، ما أحوجني إلى غرفة سرية ألوذ بها أو نفقٍ!

– تعال لنتفق على الصفقة، ونرى كم بحوزتك من المال.

سارا إلى غرفة المقاول عبسين في المدرسة، ومأمون يحمل حقيبة سوداء كبيرة، ويمسكها بحرص كما يفعل تجار المخدرات في المكسيك حين يعقدون الصفقات المشبوهة، وهناك أحصيا المال،

وكان كثيراً. وكتبا العقد وميعاد التسليم، وشرع المقاول يخطط المنزل على الباحة الفارغة، وجعل له في المخطط فناء وحديقة صغيرة ومداخل عديدة وغرفاً مموهة، وحانوتاً تحسباً لعودته إلى مهنته.

بعد أيام أخذه وجابر بسيارته إلى العاصمة، وتركهما قرب الفندق، ثم انطلق إلى حال سبيله، وحين قضى مأمون شؤونه قرر العودة وحيداً، وتشبث جابر بثيابه لكي يعيده إلى المنزل، ولكن والده على غير عادته دفعه بقسوة، وطلب منه أن يكف عن تمثيل دور الطفل الجائع المتعلق بثدي أمه، ثم قدم له بعض الأوراق المالية والنصائح، وهرول دون أن يلتفت خوفاً من أن يرى ولده مدى تأثره، لأنه كان يعرف شعور الإنسان الغريب الذي يشبه إحساس الحيوان الذي يفارق بيئته الأولى. وآب إلى السوق ليرى ما أُنجِز من مشروع منزله العتيد، وقد بالغت زعفران في تهويل الابتعاد عن الديار، حتى بدا الأمر وكأن ابنها لن يعود، وظلت تثرثر حتى صار يتعجل المنزل لاسيما الغرفة السرية التي سيفر إليها.

وجاء يوم الأربعاء، وحضر المتسوقون والباعة، وفتحت بعض الحوانيت وساد هدوء حذر، وتعجب رواد السوق وجيرانه البيع، فقد ازداد عدد العمال واتسعت رقعة الأرض التي يرفعون البناء عليها، لتشمل المساحة الفارغة التي ترمى فيها المخلفات، ولم يكن لهذا تفسير واضح، وساور الجميع القلق، حتى امرأته صرخت من الخيمة تطلب تفسيراً لما يحدث في المكان، ولكن من حسن حظه أنه استطاع أن يقنعها بأن البناء الجديد يخص المقاول، بينما صار البناء يكبر يومياً، وتتضح معالمه أكثر، حتى دخله وعائلته واتضح اليقين من الشك.

وسرعان ما أعلن عن منزله الجديد، وأقام مأدبة وذبيحة على شرف

المناسبة. حضر إليها جيرانه البَيَع، أما رجال القبائل فقد كانوا غاضبين، ولم يرقهم أن يقيم أحد البيع داخل ذلك المنزل الجميل، وحاولوا أن يثيروا الموضوع على الملأ، لكن الجدة "جمرة" لم تجد بنداً في الأعراف يحول دون أن يبني البيع منازل كبيرة، وتلاشى هذا الأمر، وصار من الماضي، وظل هاجس الفراغ يشغل باله، لأن البقاء بلا عمل في محيط يعج بالحركة هو أكثر إرهاقاً من أقسى الأعمال. وعندما ذهب إلى استراحة زين المقهوي وجد عدداً من الزبائن مشتتين على المقاعد الخشبية، يحلق فوق رؤوسهم الصمت، ويظهر في وجوههم القلق، واستقبله صاحب القهوة بالتقدير نفسه الذي يستقبل به الأشخاص العزيزين على نفسه، لأنه صديق عمل قديم، وربما كان ودوداً وطريفاً، وأعلن "زين" إن قدح القهوة مجاني وقال:

– أهلاً يا مأمون، لم يعد السوق كما كان. أليس كذلك؟

– نعم، لا أدري كيف تحدث الأشياء الفظيعة على غفلة من الجميع!

– كيف فعلت ذلك يا شيطان؟

ضحك مأمون وقال:

– ماذا؟ إن كنت تقصد المنزل، فإنها فكرة المقاول عبسين.

– هل ترغب في أن تفتتح الحانوت وتباشر العمل؟

– لا، أنا لم أحب مهنتي قط، كنت أتمرغ في الدماء طوال اليوم، ولا أجني سوى القليل من الربح.

– أتظل عازفاً عن العمل؟

– أنا وكيل عقارات أتقاضى الإيجارات لمدة عشرة أيام، ثم أظل

عشرين يوماً آخر في فراغ تام، أفر من غرفة إلى أخرى متحاشياً لسان زعفران اللاذع.

– أوه، نعم، أنت تملك منزلاً كبيراً، كيف غفلت عن هذا، ولكن المساكين أمثالنا يمكثون تحت الحصار داخل منازلهم الصغيرة، فنضطر إلى عقد هدنة طويلة الأمد مع النساء.

في تلك الأثناء، أتى رجل في حال من الغم، يريد أن يعرف ما ورد في خطاب بعثه إليه أحد أقاربه في المحافظة، وشكا من اختفاء القُرّاء في السوق، ومدّ مأمون راحته إلى الرجل بثقة تامة، وأخذ الورقة وقرأ ما فيها ببطء متذرعاً بخط الكاتب الرديء، ونظر إليه زين المقهوي قائلاً بدهشة:

– هل أنت مأمون الجزار حقاً؟

– بل أنا فقيه قرية كازم النزق.

وضجوا بالضحك، وبدأ مأمون يتحدث عن المدينة وكأنه رائد فضاء حط على كوكب غريب يعج بالحياة. ظهر في عمله الجديد كرجل حالفه الحظ بين المنكوبين في السوق، ولكنه لم يكن سعيداً طوال الوقت، إنه شخص عاطل عن العمل تقريباً.

حين يدخل إلى منزله سرعان ما تهاجمه زعفران، مختلقة شكوكاً كثيرة ومشاكل ينبغي حلها، بينما تتصدر مشكلة فراغه قائمة الشجارات التي تدور، وكأنها تحب أن تراه متعباً ملطخاً بالدماء. لقد شرعت تتخلى عن حذرها وخوفها منه، مستغلة كآبته بفعل المتاعب التي عانى منها مؤخراً، ويأتي تالياً انقطاع أخبار جابر. وطالما تتوقع كثيراً من الأقدار السيئة التي تنتابه: "ولدي يتضور جوعاً بين أناس غرباء قساة".

"ولدي تائه في أرض غريبة ليس له فيها صديق أو قريب"، "ولدي مريض يشارف على الموت، ولا أحد بجانبه يداويه أو يغيثه".

لم تصدق كلام الأب عن الرعاية التي تمنح لطلاب القسم الداخلي في مدارس المدينة. وهكذا جعلت لياليه وأيامه جحيماً، ولم تنفع الغرفة السرية في شيء، إذ كانت تهتدي إلى مكانه بقرون استشعار خارقة، أو ربما بواسطة دقات قلبه وشهقات أنفاسه وروائحه، ولم تسكت حتى وعدها أن يصطحبها إلى المدينة. وانسلخ شهر وجاء الميقات الموعود، وتأهبت كما يجب لهذه الزيارة المهمة في عمرها. ابتاعت أرطال السمن، وصنعت بعض الكعك، عجنتها بالبيض والجبن البلدي كما يحبها فتاها، ثم أرادت أن تأخذ أكواز الذرة وكيساً من الحبوب، ولكن زوجها زجرها بشدة، فانصاعت له خشية أن ينتابه الغضب النادر، فيمنعها من السفر.

لحسن الحظ كانت السيارات القليلة الآتية من القرى تشق وسط السوق في طريقها إلى المحافظة، وفي الصباح ارتدت زعفران ملابس امرأة ريفية، وصعدت إلى جوف السيارة بتهيب، وكأنها ذاهبة إلى العالم الآخر، وما إن تحركت عجلاتها حتى غاصت وسط دوار شديد، ومضت تتقيأ، بينما صار زوجها يجاهد لكي يبدو متماسكاً كشخص تخطى متاعب السفر التي تصيب القرويين، ولما أحس بالدوار يوشك أن ينتقل إليه استطاع أن يفتح حديثاً شيقاً مع المسافرين، وما إن نفد الحديث حتى أرجع رأسه إلى الخلف وغاص في خدر طويل، متقمصاً شخص النائم. ووصلا مع الغروب، ليس إلى الفندق أو القسم الداخلي للمدرسة، ولكن إلى العيادة الطبية.

وجاء جابر يزور أمه التي أتت لزيارته، وقد بدا هادئاً رغم خوفه من أن تكون في حال خطير، وسرعان ما طلب الطبيب إجراء بعض الفحوصات والتحاليل الروتينية، ولكن مأمون أهمل الموضوع وأخذها إلى الفندق، فقد كان يظن أن كل قروي يحمل في داخله كثيراً من العلل، وعندما يُفتح عنها الستار سوف تطفو على سطح البدن، لذا ينبغي أن تظل مطمورة في غياهب الجهل، ولا يدري أين سمع عن أشخاص يدخلون المشافي أصحاء، وعندما يخرجون يكونون راقدين على النقالات. وحينما يدور في ذهن الإنسان أنه في خطر لا تقوم له قائمة.

وسرعان ما استعادت الأم بعض عافيتها، وأطلت بخوف من شرفة الفندق متلصصة على المدينة الغارقة في فوضاها وحركتها التي لا تهدأ، وأحست أنها في مكان بعيد جداً. وكان هذا كافياً لتقلق على وضعها الراهن. كانت رؤيتها الأضواء المبهرة والسيارات تشعرها بالغثيان، وتوشك أبواقها أن تشرخ رأسها المربوط بالأقمشة إلى شقين. كما أزعجتها العمارات المتلاصقة بإفراط، والشوارع المكتظة والمارة المتلاحمين أثناء سيرهم الحثيث، باتت تلهث ماطة عنقها لتستنشق الهواء وكأنها على وشك الاختناق، وما إن عاد مأمون وجابر من الخارج في العاشرة مساءً حتى ألحت في طلب العودة إلى القرية، ليس على سيارة، بل على ظهر حمار أو جمل أو على أي شيء غير مصنوع من الحديد والمعادن. واستمهلها زوجها بعض الوقت، لكنها ظلت على نار، ما جعله يقف أمام صاحب الفندق، ويقول بعد تردد وبصوت خفيض:

– سامحني يا أخي، سأعود إلى القرية صباحاً، زوجتي امرأة قروية تكاد تخرق الجدار للهرب من المدينة، إن صدرها يضيق في الأماكن المزدحمة.

صاح الرجل بنبرة صوته الحادة التي تنم دائماً عن تفاعله واهتمامه بالموضوع:

– نعم، كانت جدتي رحمها الله تضيق ذرعاً بالمدينة، لأنها اعتادت على سكينة وفضاء الريف المفتوح. ثم أضاف وكأنه انتبه إلى شيء هام، في هذه الحالة عليك المرور في الغد من أجل الإيجار.

هز رأسه موافقاً وحوّل بصره إلى ولده جابر، محاولاً تغيير مجرى الحديث قائلاً بحزم أبوي:

– أرجو يا بني، ألا تعود إلى القرية، حتى تتقن القراءة كالبلبل الذي يتقن التغريد، إذ لا يوجد في سوق الربوع قارئ واحد عداي.

***

عاد جابر إلى القرية في آخر العام وهو مكتنز الجسد ووجنتاه نديتان مبيضتان، فأزعج هذا والده الذي يريد أن يراه خشناً مثل أولاد الأهالي، ليس هزيلاً منهكاً كهزَّام نجل النقيب أرحب، ولا وديعاً رقيق الطباع كفتاة في المدينة، ارتسمت في ذهنه مزايا الولد وعيوبه، خطه جميل ومعلوماته غزيرة، رغم أنه لا يعلم إن كانت صحيحة أم لا، لكن لا بد أن يكون الفتى على صواب، إذ لا يمكن أن يصنع تلك الإجابات في خياله الصغير، وسأله والده سؤالاً ذا مغزى واضح تبادر في ذهنه:

– إذا رسبت يا ولد، ماذا ستفعل؟

– ربما نرعى الأغنام سوياً، أو أعمل إلى جوارك في حانوت المجزارة.

– لا شاء الله يا وغد، أنت تتحدث بما يبهج أمك.

ضحك جابر من خوف أبيه وقال بيقين:

– لن أرسب. أنا شاطر في الدراسة.

أخذ أبوه يتصفح شهادة ورقية تحوي درجاته ومستواه التعليمي، متمتماً بكلمات فارغة المعنى. أراد فقط أن يبهر امرأته زعفران، ويشغلها عن خطة تربية الماشية التي تريد تطبيقها، ما زالت تريد أن تربي بقرة حلوباً تستفيد من لبنها وسمنها، بينما على زوجها العاطل عن العمل أن يستفيد من وقته، إما أن يعمل في الحانوت أو حتى يرعى قطيعاً من الأغنام. ولقي اقتراحها هذا رفضاً قاطعاً في الشق الخاص بالرعي والعودة إلى الحانوت، بينما وافق بتحفظ على رغبتها في اقتناء بقرة حلوب، أما هو فيشغل مركزاً مرموقاً، ويجني مالاً وفيراً، وليس من اللائق أن ينتهي به الحال أن يعود جزاراً أو راعياً. فالرعي لا يعوزه أي مؤهل، وطالما يمارسه الفتيان الأميون أو الشيوخ الأرامل الذين لا يجدون أي شيء يستعينون به على الوحدة واليأس. لقد ولى زمن المهن المرهقة. بات جسده خائراً وعزيمته واهنة، والقوة والعزم هما أهم عنصرين لأي عمل عضلي متقن، وأمسى يتهم امرأته أنها لا تعرف قيمته كقارئ...

قطع حديثه طرق على الباب، وكان ذلك منادي الأهالي الذين يستعدون لتقديم الأضحية لربهم الرحيم، فقد فتك الجفاف بالمنطقة

كلها، ووجد الناس أنفسهم مضطرين لمناجاة الله والتوسل إليه أن يمن عليهم بالمطر، ووقف مأمون مستكيناً أمام رجال العشائر قرب استراحة زين المقهوي، ولما فهم مضمون الدعوة قال بعجب:

– ما حكاية الناس والمواشي؟ أنتم تريدون بقرة، وزعفران تريد بقرة حلوباً وأغناماً.

نظر إليه رؤساء العشائر بشيء من السخط، وفهم مغزى النظرات، لا ينبغي أن ينسى نفسه، أو يسخر من الأعراف، فهو جزار ابن جزار ابن جزار. ما زال كذلك في نظرهم، حتى لو تخلى عن المهنة أو حتى ظفر بعمل آخر، إذ ليس هنالك جزار غيره في السوق. وذعر مأمون واختفى غروره وراء هالة من الجدية رسمها على ملامحه، وتذكر أنه فعلاً جزار السوق، وليس عليه أن يغفل عن ذلك، أو يظن أنه بمنأى عن أيادي أفراد القبيلة، ولهذا السبب، شمَّر عن معصميه، وتناول ثمن البقرة وحبلاً متيناً من أيدي رجال العشائر، ثم سلك الطريق الذي كان يسلكه هو وأبوه وجده من قبل بحثاً عن البقرة الأضحية، وظل يتخبط في القرى من زريبة إلى أخرى، فاحصاً عشرات الأبقار، مراعياً العمر واللون الناصع والصحة والاكتناز، حتى وجد بقرة استرعت انتباهه وفتنت نظره فابتاعها. وآب إلى منزله، وأخذ يطعمها ويسقيها، وأقبلت امرأته تسأله عن بقرتها، فصرخ في وجهها، حتى أجفلت المرأة والبقرة على حد سواء. ثم أخذ الحيوان حانقاً إلى أسفل الجبل، ولم يفوّت تقليداً كان يفعله في الماضي. عند الضحى أقبل الأهالي للمرة الأولى بلا مظاهر مسلحة، بملابس مقلوبة ممزقة كالشحاذين، وقد صبغوا أجسادهم بالطيوب كالدراويش، وحملوا في أيديهم مشاقر الريحان

كالممسوسين، ورسموا على ملامحهم هالات الخوف والرجاء، وصعدوا نحو قمة الجبل، وهم يرددون وراء الفقيه نشيد الاستسقاء المألوف:

يا إله العباد، العبد واقف على الباب... منتظر للجواب يا
من إليك الشّكية[1]

لم يجرؤ أحد في غمرة ذلك الجو الروحاني أن يحمل في قلبه ذرة حقد على أحد، وكأنهم نفضوا أوزارهم وأحقادهم قبل الصعود، وجاءوا متحررين أنقياء، وتلك لحظات لا تتكرر في حياتهم، حتى النقيب ناجي صفّى نفسه وقلبه الولهان المتيم بحب ناجية، وجاء مرتدياً أسمالاً بالية كأنه رجل معدم لا يعرف لون الريال الجمهوري.

في قمة الجبل اقترب الفقيه النزق متجهماً كعادته، وأطلق البخور تحت جسد البقرة، وهو يتلو الدعاء راجياً من الله قبول الأضحية، وتوسله أن يفتح على أرضهم الظامئة صنابير السماء، وسقطت القطرات الأولى من عيونهم على شكل دموع مدرارة، ثم صلوا صلاة طويلة مملة، وبعد ذلك جاء دور تقديم الأضحية، وانتظر الأهالي خاضعين متذللين.

بدا مأمون واقفاً بلا حراك، لم يكن قد نسي عمله، وإنما لم يعد يملك الشجاعة ليمسك بالسكين ويذبح حيواناً بريئاً. كان يفكر في أن بوسع الله أن يسمح بنزول المطر من دون دم مسفوح، لماذا تُذبح هذه البقرة الوديعة؟ وتمنى لو تمطر السماء، وتعود البقرة البيضاء إلى

١ الشكوى.

كنف امرأته لتربيها، ولكن بفعل تململ الناس ونظراتهم الخارقة اقترب من البقرة بقلب راجف، ثم أغمض عينيه وأسقطها أرضاً وجز رقبتها، ولما توقف ارتعاشها مضى عائداً إلى منزله وهو ينشج كما لم يفعل من قبل، ونزل الرجال كذلك عن ظهر الجبل، وهم يحدقون فوق رؤوسهم منتظرين ظهور الغيوم السوداء المشبعة بقطرات الماء، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث. وظل الجو مشمساً حين وصلوا إلى مشارف قراهم. ومر الوقت دون أن تمطر السماء، وردوا ذلك إلى دم النقيب أرحب الذي أريق غدراً، وتوقعوا أن الله ساخط وغير راضٍ عنهم بفعل انتهاك الأعراف، وظن الفقيه النزق إن المنشأتين الجديدتين هما السبب، لاسيما المدرسة. وأما النقيب ناجي وأتباعه فقد خامرهم الشك في أن تلكؤ مأمون في ذبح الأضحية قد أفسد أمر قبولها. ولفت انتباههم إلى أن الجزار أضحى منفوخاً طامحاً، وقد سمعوا أنه يسخر من الأعراف، ويفكر في الانتقال من فئة البيع الحقيرة إلى فئة أعلى، ولكي يثبت النقيب ناجي ذلك طلب من العشائر الاجتماع في السوق عند انعقاده بنهاية الأسبوع القادم، وحين وصل مأمون إلى بيته الكبير كان في حالٍ يرثى له، ولما هدأ قليلاً، نظر إلى امرأته زعفران وقال وفي حلقه غصة:

– لم أحزن على حيوان كما حزنت على هذه البقرة، لقد تمنيت من صميمي لو عدت بها إلى المنزل.

واختنق بالبكاء، وكأنّ شخصاً عزيزاً قد مات، فأجابته قائلة بنزق:

– هل جننت يا رجل؟ تبكي من أجل بقرة! طالما عشت تذبح الأبقار، منذ متى دخلت الرحمة إلى قلوب الجزارين؟ إننا يقيناً على عتبات اليوم الآخر!

– لست جزاراً، أحذرك أن ترددي هذا اللغو القبيح.

– سترى كيف تأتي القبائل لتعيدك إلى الحانوت.

كان في صميم نفسه يوافقها الرأي، لن يمر وقت طويل حتى يجبروه على فتح الحانوت من جديد، وتكون ذريعتهم هي احتياجهم إلى اللحوم، لا يعقل أن يظل السوق بلا جزار، ربما في أي مكان آخر في المعمورة يمكن للمرء أن يختار مهنته، أما هنا فإن المهنة هي التي تختارك وترسم مستقبلك وأقدارك! ولكن حين يرى المرء الجو غير مؤاتٍ لما يريد، ينبغي أن يختصر الطريق. من حسن الحظ أن الحانوت يلتصق بالدار، وهو بناء صغير جميل يشبه حوانيت المدينة، مجهز بالمعدات الحديثة بما في ذلك المقاطع والمدى الأنيقة والميزان ذي المؤشر والأرقام، وعندما انعقد السوق وجاء رجال العشائر، وجدوا الحانوت مفتوحاً، وشخصاً آخر يعمل داخله، فيما كان مأمون يطعم بقرة حمراء قرب الكوخ، وإلى جانبه مجموعة متباينة الألوان من الدجاج المحلي. ونظروا إلى بعضهم البعض في حيرة وارتباك، وعادوا إلى قراهم غاضبين من النقيب ناجي الذي يجمعهم من أجل أمور أخرى غير الحرب.

الفصل الخامس

مع انتهاء العطلة الصيفية، أقبل نفر من المعلمين أرسلهم مكتب التربية والتعليم في المحافظة إلى مدرسة السوق، وعلى رأسهم مدير ملتحٍ يرتدي الملابس اليمنية التقليدية. كان عدد المعلمين العرب ستةً، مصريان وسودانيان وأردني وسوري، بدا المدير الإداري متكيفاً مع وضعه الجديد كما لو كان قد أدى معظم سنوات خدمته في مناطق صحراوية، طقسها حار جاف، وسكانها أشرس وأكثر تخلفاً وأمية من هؤلاء، وسرعان ما أقحم نفسه في السوق، وأعلن للمتسوقين في استراحة "زين المقهوي" عن بدء العام الدراسي الجديد، وطلب منهم إرسال أبنائهم وبناتهم إلى المدرسة، أولئك الذين لا تقل أعمارهم عن سبع سنوات.

كان البناء التعليمي مثالياً جداً، يشبه مدارس المدن، يحوي اثني عشر فصلاً دراسياً، ودورة مياه ومغاسل، ومكتبة ما زالت خالية من الكتب، إضافة إلى بيت المعلمين، وجميعها محاطة بسور رافع يمنع فرار التلاميذ. في منتصف الفناء تقف بشموخ سارية العلم، كجزء من الطقس التربوي الذي يقام للتذكير بالانتماء إلى الوطن، وبجواره لوحة

نقش عليها النشيد الوطني، وفتحت بوابة المدرسة العريضة، وتأهب المعلمون لاستقبال التلاميذ، لكنهم لم يحضروا، ماعدا جابر الذي أتى بالزي الرسمي مثل طلاب المدن، ثم رجع خائباً يزف الخبر إلى أبيه، فأمسك بذراعه، وعرجا على بيوت جيرانهم البَيَع، واستطاعا أن يقنعا خمس عائلات بضم أطفالها إلى الدراسة، ثم توغلا في أكواخ فئة الأخدام[1] ولم يجدا فيها سوى بعض العجزة، بينما كان الرجال منهم يجولون في القرى القريبة لإصلاح الفوانيس وتشليك الأحذية وتدبيلها وتلحيم المواقد المعدنية والشيش النحاسية التي يطلق عليها السكان المحليون اسم المدائع، وتقوم النساء ببيع البخور والحنّاء ورفو الأثواب الممزقة والتنبؤ بمستقبل المواليد، والأطفال يشحذون أو يجمعون النعال البالية والمعدن المحطم وعلب البلاستيك المتناثرة خلف المنازل وفي الأقبية والأماكن المهملة، ثم يبيعونها بسعر زهيد لمندوبين يأتون من مراكز إعادة التصنيع في المدن، وأحياناً يقتلون الكلاب المسعورة بالسم مقابل القليل من المال. أما الموهوبون والمحظوظون من هذه الفئة، فيشكلون فرق غناء تحيي أعراس بعض العائلات التي ليس لديها تحفظات دينية على صوت المزمار والرقص، والبعض يدقون الطبول على رقصة البَرَع، ويشعلون حماس الراقصين من رجال القبائل بتحريك شواربهم الغليظة وحواجبهم الكثة. وعلى هذا النحو يقضي هؤلاء نهارهم، ولا يعودون إلى منازلهم إلا مع حلول المساء، وفي هذه الحالة يقضون ليلهم في سهر ورقص ومتعة وتدخين، منفقين كل ما حصدوه في اليوم السابق، ولا ينامون إلا وهم صفر

١ المهمشون ذوو البشرة السوداء.

اليدين، ثم يبدأون يوماً جديداً لا يختلف كثيراً عن سابقه. وعندما زارهم مأمون في المساء، كانوا في خضم طقوسهم الاحتفالية. ولم يتمكن من رؤيتهم بفعل ضباب السجائر والشيش المحلية، ولم يأبهوا له بفعل النشوة والكيف، وضاع صوته وسط أنغام المزامير والغناء، فعاد خائباً يائساً من الوصول إليهم في ظل هذا الوضع، وذهب للتسجيل في المدرسة عشرة تلاميذ، إضافة إلى جابر مأمون ، ولكن مدير المدرسة الصارم هز رأسه قائلاً بغضب:

– لا جدوى، ينبغي أن يكون عدد التلاميذ ثلاثين طالباً كحد أدنى.

ردّ مأمون بيأس:

– أخشى أن يذهب هذا البناء الضخم سدى.

– نعم، إن استطعت استقطاب ما يلزم من التلاميذ، ينبغي أن تكون رئيس مجلس الآباء. افعل أي شيء لكي تقنعهم بإلحاق أبنائهم في الدراسة هذا العام، كل شيء مشروع في سبيل العلم.

وفرح بهذا اللقب، لكنه تذكر تعهده السابق بألا يتدخل في شؤون الأهالي، وفكر بعمق كيف ينذرهم دون أن يتدخل بشكل مباشر في شؤونهم! يجب أن يتصرف بسرعة وبشكل صحيح قبل فوات الأوان. لذا طار وولده إلى قرى آل طعيم، وصار الفتى يعرض جسده النظيف المرتب، وعلى ظهره الحقيبة التي تحمل كتبه ودفاتره وأقلامه، وكلما وجد طفلاً يقف إلى جواره متباهياً بأنه تلميذ سيكمل تعليمه في مدرسة سوق الربوع. وهكذا ظلا يلقيان أنفسهما في طرق الأهالي تحت ذرائع شتى، وأفلحا في الغالب في نسج أحاديث طريفة معهم، واستجابا لدعوات شرب الشاي في منازلهم، وفي الوقت الذي يجلس والده

والمضيف، يخوضان في الحديث عن مواضيع شتى، يتسلل جابر كالثعلب إلى أعماق المنزل، ويختلط بالأطفال، وينثر أمامهم الأقلام المتنوعة والمماحي والكتب ذات الصور الملونة، ويشرح للأمهات والأطفال عن شكل المدرسة الجذاب، وعن الرسوم والصور المتربعة على جدرانها الداخلية، وفنائها الواسع، والمعلمين العرب السمان الغريبي الأشكال. ويدخل الفضول في قلوب الأمهات أيضاً، وما إن يفارقان المنزل حتى يضج الأطفال بالبكاء مستميتين في الدفاع عن رغبتهم بالذهاب إلى المدرسة، والحصول على الحقائب ومستلزمات الدراسة، ولا يستطيع الآباء أن يقاوموا رغبة الأطفال والنساء مجتمعين.

ومرَّا على مشارف قرية كازم مركز القبيلة، ولم يجرؤ الأب أن ينظر إليها، وطلب من ولده الابتعاد عنها بسرعة، ولكنهما تعثرا بالفقيه النزق في الطريق، ووجد مأمون نفسه يقول بلا وعي:

– الحكومة غاضبة منك، وتنوي أن تجردك من وظيفتك في الأوقاف.

ذعر الفقيه وشحب لونه ورد بارتباك:

– ماذا تقول يا هذا؟ أنا أؤدي واجباتي على أكمل وجه. ثم تابع بغضب بعد لحظة وجيزة: أنت خصمي، لأنك الوحيد من الأهالي الذي يزور المدينة كل شهر.

– بل إن مدير المدرسة يريد أن يشكوك للأوقاف، لأنك لا تعظ الأهالي بإرسال أطفالهم إلى المدرسة الحكومية.

– سأفعل في الجمعة القادمة ما يسر الحكومة، على أن يسحب المدير شكواه.

هز مأمون رأسه موافقاً، وهو يؤمن إن الكذب أمر مشروع في سبيل العلم، وعاد إلى منزله خاوياً من أي أفكار. ويوم السبت خرج وجابر وفوجئ بمجموعة من الآباء بصحبة أبنائهم، كانوا يقفون بخجل خارج سور المدرسة، وأمامهم يقف المدير الصارم يخاطبهم بحزم حول ضرورة عدم الحضور بأسلحتهم النارية إلى حرم هذا البناء التعليمي، وأصر على أن يقدم الآباء اعتذارهم على الملأ. وبعد أن اعتذروا ألقى إليهم الأمر بأن يرشحوا رئيساً لمجلس الآباء على أن يكون رجلاً نشيطاً يهتم بقضايا التعليم، ويكون وسيطاً بين الأهالي وإدارة المدرسة.

نظر الأهالي إلى بعضهم البعض، واستقر نظرهم على وجه مأمون وردوا أبصارهم بأسف، لأنه من فئة البيع، ووجدوا أنفسهم في حيرة، حتى حسم المدير الموقف وصوّت لصالح مأمون، وتعجب الأخير على قدرة هذا الرجل الآتي من المدينة على ترويض الرجال الشرسين، وسُمح له بدخول حرم المدرسة، واندهش حين رأى عشرات الأولاد والقليل من الفتيات يقفون بخط مستقيم في طوابير متناسقة، واكتشف أن هناك تلاميذ مثل جابر عادوا من المدن، وفوجئ أنه ليس الوحيد الذي يبعث ولده إلى المدينة للتعلّم، لكنه الوحيد بلا شك الذي يفعل ذلك من فئة البيع، وشاهد الانضباط يدب في الفناء، والمدير والمعلمين العرب يوجهون التعليمات إلى الصفوف عبر مكبر الصوت، فيما يقف المعلم المصري فريد الرياضي الجسد، ويعلمهم كيف يؤدون تمارين الصباح.

في نهاية المطاف أخذ المدير يعلمهم كيف يرددون النشيد الوطني خلف جهاز التسجيل، وبعد أن رددوا النشيد بعشوائية المبتدئين، رفعوا

التحية للعلم الجمهوري على إيقاع الموسيقى المسجّلة، ثم انصرفوا إلى الفصول، وساد الصمت في الفناء العريض، بينما الآباء خارج سور المدرسة يراقبون ويسمعون، مشدوهين بما يدور خلفه من طقوس. أول مرة يسمعون الكلمات الثائرة الفخمة:

موطني... موطني
يا نشيداً رائعاً يملأ نفسي،
.....
عشت إيماني وحبي سرمديّا،
ومسيري فوق دربي وطنيّا،
وسيبقى نبض قلبي يمنيّا،
لن ترى الدنيا على أرضي وصيّا...

كانت ترددها الأفواه الصغيرة كشيء مقدس في جميع مقاطع الأنشودة، ولكن سرعان ما تبددت أحلامهم وعواطفهم حين أتت إليهم دعوة للاجتماع العاجل، فساروا حاملين أسلحتهم المُنكّسة خجلاً، وما إن ابتعدوا عن المدرسة حتى رفعوها بحماس استجابة لنداء القبيلة.

وأتت كل عشيرة يتقدمها كبيرها، حتى وقفوا جميعاً في كازم وشكلوا دائرة عملاقة كما جرت العادة، وهذه المرة وقف وسطها الفقيه النزق، لم يعلم أهالي كازم ما جرى لعقله بحيث أمسى يحثهم على تعليم الأبناء في المدرسة، وقال في موعظة الجمعة: "إن الله يحب الأشخاص المتعلمين، ويضيء لهم الطريق في اليوم الآخر حتى يوصلهم إلى الفردوس الأعلى، الله ينظر إلى المتعلم دون غيره من البشر، ويطبع

نجمة مضيئة على جبينه ليميزه عن جميع الناس، فاذهبوا بأبنائكم إلى المدرسة لكي يرضى الله عنكم وينظر إليكم...".

كان الأمر مريباً بعد أن حذرهم في وقت سابق من خطر المدرسة وعلومها الفاسدة، وفي صباح اليوم التالي وهو السبت، اصطحب قليل من أهالي كازم أطفالهم إلى المدرسة متأثرين بالموعظة، بينما الجزء الأكبر من الأطفال أتوا من القرى الأخرى. وغضب النقيب ناجي، ودعا العشائر لتشهد على ذنب الفقيه، واقتيد الرجل إلى أمام رجال القبيلة، واعترف بأنه فعل ذلك ليحافظ على لقمة عيشه، وسرد عليهم ما جرى بينه وبين مأمون، وتمّ استدعاء الأخير ليقف بمحاذاة الفقيه وسط الدائرة، ووجهت إليه الأصابع كالأسهم، فاعترف أن ما قام به هو من أجل العلم، وأكد لهم أن كل شيء مشروع في سبيل إحيائه، غير أن أفراد القبيلة لم يؤمنوا بنظريته، ورأوا بأنه مذنب، وتسلل الفقيه خارج الدائرة دون أن يعترض طريقه أحد، وانبرى رؤساء العشائر يجتمعون في زاوية، وجمعوا رؤوسهم كما لو كانوا يصطلون حول نار مضرمة في ليلة شديدة البرد، أو كأنهم أعضاء هيئة محلفين في محكمة أمريكية، يتشاورون على الحكم الذي سيصدر على متهم باغتصاب وقتل أطفال. وعندما رفعوا الرؤوس اتجهوا بحزم إلى أماكنهم. ولم يكن الحُكم خافياً على معظم الرجال، فقد نطقت به ملامح رؤساء العشائر، وعرف الراسخون في الأعراف أنه لا يقل عن النفي خارج القبيلة، وسيخرج المنفي يجر أذيال العار إلى الأبد، وجلسوا هنيهة صامتين متحفزين. كان التهيب والصمت يحلقان فوق الجميع، كانت أعصابهم مشدودة، أما مأمون فقد صار يتحرك بموضعه كأنه يقف على جمر، أخيراً وقف النقيب ناجي ووجه صوبه

نظرة طويلة ماكرة، ثم أطلق آهة حقيقية وقال يخاطب الرجال:

– الجميع يعلم أن وجود الجزار في القبيلة لا غنى عنه، ولكنه نكث عهده واقترف عدة أخطاء، وقد اتفق رؤساء العشائر...

قطع الحكم صوت إطلاق نار كثيف صدر من مشارف القرية، والتفتوا ليروا ما يجري، ورأوا سيارة مقفصة غريبة تطلق أبواقها، وتقترب بسرعة جنونية من ساحة الاجتماع مثيرة وراءها ذيلاً ضخماً من الغبار، وظهر فجأة رجل يعدو باتجاههم، نحيل كقصب الذرة الطويلة، عاري الجسد إلا من شيء يستر وسطه، ولما دنا منهم عرفوه، إنه "عنتر البرق" ساعي القبيلة الذي يبعثونه إلى أي مكان بالرسائل والأخبار الهامة، وهو رشيق سريع مثل فهد أفريقي، يمشي حافياً عارياً مثل سعاة الممالك القديمة، تستر عورته خرقة بيضاء وحسب، ويشاع أنه لفرط نباهته وبراعته في عمله، أضحى يتنبأ بمكان الأشخاص الذين يرسل إليهم، وكأنه يملك حاسة الشم التي تملكها الكلاب البوليسية. ووقف الساعي بتهيب خارج الدائرة، ورمى كفه عالياً في الهواء لتحيتهم، وصاح بصوت جهوري:

– عاد هزّام آل طعيم من جبل أبو الحيد.

اضطرب حال الرجال، ثم رموا شيلانهم في الهواء ترحيباً، ونكسوا أسلحتهم إجلالاً، وتأهبوا للاستقبال، وتوقفت السيارة المكشوفة جانباً، وهبط منها عشرة من الأتباع بحركة تمثيلية سريعة، وأحاطوا بالفتى عارضين قدرتهم على التصدي لأي عدوان، وتأمله الرجال بتمحيص دقيق وهو يترجل من السيارة، وربما انعكست على ملامحهم علامات الرضا، وهم يرون الفتى هزيلاً يمشي متمايلاً إثر عرج خفيف،

وآثار التعب والألم بادية على ملامحه القاتمة. ما لبثوا أن انتظموا في طابور طويل يبدأ بالنقيب ناجي، وينتهي بمأمون الذي غدا أقل الرجال منزلة في القبيلة.

كان من قبل يتقدم أبناء الفئات الصغيرة في الاجتماعات والطوابير، لكنه اليوم، أقصي إلى آخر الطابور، وهذا جعل عينيه تمتلئان بالدموع، وتخيل تأثير هذا الحُكم على زعفران وجابر، أين يمكن أن يذهبوا فيما لو طردوا من القبيلة؟ وتذكر، بأسف بالغ، الحوار الذي دار بينه وبين صديقه زين المقهوي، الذي يتحدث كحكيمٍ أو عرّافٍ بارع في قراءة المستقبل، إذ قال له في يوم قريب:

– انتبه لخطواتك يا صديقي، لا تحاول التقدم أكثر، لقد وصلت إلى أعظم مكانة يمكن أن يبلغها فرد من فئة البَيَع، لديك عمل مريح ومنزل كبير وعامل يعمل لحسابك في الحانوت، دع المدرسة وشأنها.

رد عليه بغرور:

– أنت لا تعرف شيئاً، الإنسان يضع نفسه في المكان الذي يريد، أنا القارئ...

قاطعه وهو يضحك قائلاً بصوت مرتعش كنبوءة:

– نعم أنت القارئ الوحيد في السوق، ويبدو أنك ستغدو وحيداً في آخر المطاف.

ولسوء حظه أنه لا يستطيع اكتشاف الأوقات التي يكون فيها جاره زين المقهوي على صواب في توقعاته، حيث تضيق الفروق بين مزاحه وحكمته، والعنصر المشترك بينهما هو التبسم والضحك. آه، ليته يستطيع أن يتحدث وهو مشدود الوجه منتفخ الأوداج، وفي هذه

الحالة قد يجد من ينتبه إلى أهمية كلامه.

وهكذا أخذ مأمون يلقي اللوم الشديد على نفسه، وهو يفعل ذلك عندما يكون في مأزق، أما في الأوقات العادية فإنه ينظر إلى نفسه بإعجاب، وكأنه إله وحيد على هذا الكوكب، ويحس الآن أنه أصبح نقيب الحمقى أو كبير عشيرة المغفلين، وبين لحظة وأخرى يراقب الفتى الصغير بفتور، وهو يصافح الأيدي التي تمتد إليه دون أن ينطق كلمة واحدة، بينما يعرّفه النقيب ناجي بالرجل الذي يصافحه، ناطقاً اسمه واسم عشيرته ومركزه في القبيلة إن وجد، ومآثره إن وجدت، ويقترب حثيثاً من نهاية الطابور، إلى حيث يقف مأمون، ولما وصل إليه قدَّمه النقيب ناجي بشكل مقتضب سريع وبنبرات ضعيفة فاترة:

– آخر رجل هو مأمون الجزار من سوق الربوع، وينتمي للبَيَع.

وكاد قلب مأمون أن ينفطر قهراً، وانعقد لسانه، إذ لم يتحدث عن مركزه أو على الأقل لم يذكر شيئاً من مآثره البارزة التي يعرفها الجميع، ولكن الفتى توقف وقال يخاطب من حوله:

– أليس هذا هو وكيل أعمالنا؟

أجاب النقيب ناجي بصوت هادئ واثق ينم عن انقضاء الأمر:

– إنه هو بعينه، وقد انتهك العرف وقد حكمنا بطرده من القبيلة.

نظر الفتى إليه ببرود، وكأن الأمر لا يعنيه، وقال:

– افعلوا ما بدا لكم، ولكن أمي لن يسرّها ذلك.

فوجئ الجميع بما سمعوا، وظنوا، لاسيما رؤساء العشائر، أنهم يتحدثون مع فتى غرّ لا يكاد يفقه شيئاً، كانوا ينتظرون أن يسمعوا رأيه الشخصي في الأمر، وإن كان مخالفاً لما يرون، وتقدم النقيب ناجي

خطوة، قائلاً بفرح:

– يا ابن أخي، الأعراف لا بد أن تطبق، فقد ترعرعنا عليها منذ نعومة أظفارنا.

صرخ هزام بنزق مفاجئ:

– الأعراف، الأعراف، تتحدثون عنها وكأنها ما زالت "بنت البيت"[1]، ماذا جرى لعقولكم يا رجال؟

– نعم، لقد انتهكت، والعار يقع على آل شهوان.

– لن أنسى ذلك اليوم أبداً، هذا ما أحس به.

– والأعراف؟

– لا تحدثوني عن الموتى.

صعق الجميع من جرأته وقال رؤساء العشائر:

– لن تقودنا دون أن نمتحن مهاراتك، وماعدا ذلك يمكن التغاضي عنه الآن.

– نعم، وهذا الرجل لن يمسّ بسوء.

– نعم، وإن أخفقت لن نسمع لك ولن نطيع.

– بل أراهن بحياتي على اجتياز الامتحان، وإن أخفقت لن أهتم إن يبقى الجزار أو يموت.

تقدم مأمون قائلاً بإشفاق:

– أيها النقيب، لا تضاعف الشروط على نفسك، لأن الإنسان قد يخطئ.

---

١ عبارة تدل على عذرية الفتاة. ويقال فلانة ليست بنت البيت، يعني أنها لم تعد عذراء.

– صه، لا شأن لك.

انكمش الرجل الضخم بخجل، واحتار رجال القبيلة في تحديد سمات الفتى، يبدو خاملاً ونزقاً، وحازماً ولا مبالياً، وصغيراً وكبيراً، ولعل التبرم من الأعراف هي السمة الأبرز. وذهب الرجال وهم يتحدثون عن ذلك، وأتت أمه ناجية بنت أبو الحيد مكللة بحزنها وسوادها وخوفها، لأن في هذا اليوم سيعرف الأهالي إن كان فتاها جديراً بالمنصب أم لا. وحضرت الجدة "جمرة" حكيمة الأعراف يحملها حصان عجوز يتناوب على الإمساك بمقوده رجال القبيلة المخلصين للأعراف، وأفصحت أن على الفتى أن يجول في أرجاء القبيلة، وذلك هو عرف التتويج والإعلان عن عودته من جبل أبو الحيد، وظهر إلى جواره عمه النقيب ناجي منكسراً ساهماً كالملك المعزول، وحوله رؤساء العشائر ومئات المحاربين من أفراد القبيلة. في آخر الحشد يلوح مأمون حزيناً يمشي بتثاقل، متوكئاً على عكاز الجدة سودة، وفي كل قرية يستقبل الفتى كالفاتح، وتقام على شرفه بعض الرقصات والطقوس الاحتفالية، ويبدأ هو بأداء رقصة البَرَع ونخبة من رؤساء العشائر. وقد أتقن هزّام الرقص، ثم اعتلى صهوة حصان والده الأبيض، ودار دورة سريعة شاهراً مسدسه للأعلى، وكأنه يعلن أمام رجال قبيلته إنه بات يملك القوة ويستطيع مواجهة الخطوب، ثم آن للرجال أن يمتحنوا قدرته ليروا ما استلهم في فترة تأهيله، وقد وضع أحدهم علبة سجائر مستورد، وقلبه يكاد يقطر دماً عليها، لذا وضعها على مسافة خمسمائة متر، إلا أن أمله خاب عندما تطايرت علبته في الهواء بعيار ناري واحد، وارتفعت صيحات الفرح والحماس من أفواه

الرجال. ثم أتى أحدهم بموقد ممتلئ بالجمر الملتهب، ونثره على الأرض، ثم طلب منه السير حافي القدمين، وسرعان ما تقدم الفتى دون تردد وداسها بباطن قدميه دون أن يند عن وجهه أو صوته أيّ أثر للألم. في قرية أخرى جلب الأهالي أفعى مجلجلة اصطادوها من شعابهم التي تزخر بهذا النوع السام من الأفاعي، ورموها على الأرض، وأخذ هزَّام يقفز بلياقة سعدان صغير، ويدور حولها، ويمسكها من ذيلها ويرفعها في الهواء، ثم يفلتها متحاشياً لسعاتها القاتلة. وحاول مأمون الفرار من هذا المشهد الرهيب الذي لم يتوقع أن يراه، ولكن الرجال المتكتلين خلفه أعاقوه عن المرور، فأغمض عينيه وبقي هكذا حتى انقضى هذا الاختبار بسلام، وأطلق الرجال النار على الأفعى الخاسرة، ففتح عينيه وولى هارباً. لم يكن هناك أشد رعباً في نفسه من مشاهدة الثعابين، وسبب ذعره يعود إلى زمن بعيد جداً من طفولته الأولى، حدث ذلك ذات أربعاء، عندما كان رضيعاً عمره شهور قلائل، في ذلك الصباح تركته أمه نائماً على وعائه الخزفي، وذهبت إلى جارتها، وانغمستا بالحديث بعض الوقت، ولما عادت إليه رأت منظراً مرعباً لا تتمنى أن تراه أي أم، وأطلقت عقيرتها بالصراخ وسط السوق، وأقبل والده والمتسوقون للنجدة، ولكنهم ارتدّوا للوراء مدركين أنهم لن يستطيعوا إجبار الأفعى أن تفلت جسد الرضيع، إذ كانت ملتفة على ذراعه ورأسها يتحرك على امتداد جسده الصغير، وكان يثيرها وهو يحرك أنامله فترفع رأسها متأهبة للانقضاض، ثم تتراجع وكأنها تشعر أن خصمها ضعيف. وأحس المنقذون أن أي محاولة لنزع الطفل عنوة، ليست مأمونة العواقب، وخشوا من الاقتراب أكثر، وتلاشت الحلول والآمال لدى

المتسوقين، وسقط الأب المسكين منهاراً يائساً رغم ما يبدو عليه من رباطة جأش. وفجأة ظهر رجل درويش بمزماره، إذ كان يجول وسط السوق كالعادة، نافخاً آلته النحيلة المثقبة أمام الحوانيت والمتسوقين، ويأخذ ما تجود به أنفسهم من قطع الفكة المعدنية الصغيرة القيمة، وما إن رأى جموع الناس حتى أقبل متوغلاً وسط الزحام، وأخذ يسأل عما يحدث، لكن أحداً لم يعره اهتماما، ولسان حالهم يقول ماذا يمكن لهذا الدرويش المتسكع أن يفعل؟ لكنه حشر جسده حشراً وسط الجموع، حتى وصل إلى مدخل الحجرة، ورأى المشهد المرعب، فنفخ بمزماره بصوت رخيم يخدر الروح والأعصاب، وصار يقترب رويداً رويداً من الفتى، ورأى الناس الأفعى تتحرك من موضعها، وهي تتمايل وترفع رأسها الكبير في الهواء، وأخذ الدرويش ينسحب، والناس خلفه ينسحبون ببطء وحذر، والأفعى تزحف باتجاهه يشدها صوت المزمار حتى أخرجها من الغرفة، وأراد بعض المتسوقين قتلها، لكنه أشار إليهم بعدم إيذائها، وظل سائراً ينفخ بالمزمار وهي تسير وراءه حتى اختفيا عن الأنظار، ولم ير أحد الدرويش بعد ذلك اليوم أبداً، والبعض يقول إنها لدغته حينما تعب وكف عن النفخ. وعندما كبر مأمون وسمع القصة صار يخشى هذه الزواحف، ولكن وجوده هنا كان حتمياً، فإذا اجتاز الفتى الاختبار لن يغادر القبيلة، وانتهى بهم المطاف تحت جبل كبير مشرنف الجوانب، وهناك طلب أحد أتباع النقيب ناجي أن يصعد الفتى إلى القمة، وهنا اعترض رؤساء العشائر طريقه، وأفصحت الجدة جمرة حين سُئلت عن رأيها في ذلك، إن التمارين يجب أن تكون في حدود المعقول، ولم يسبق أن قام أي رجل

في آل طعيم بتسلق جبل أملس كهذا، وليس لهذا الطلب سوى غرض واحد، وهو محاولة اغتيال النقيب الجديد. ونظر الرجال إلى صاحب الطلب بارتياب وكأنهم اكتشفوا نواياه الخبيثة، فتنازل الرجل عن طلبه وهو يشعر بالخجل، وانصرفوا جميعاً معلنين عن حصول هزام على منصب النقيب، وتألق وجه ناجية بنت أبو الحيد فخراً وفرح مأمون، ومكث بالقرب من الفتى المراهق محتمياً به.

كانا حين يسيران جنباً إلى جنب شبيهين بالرقم عشرة، وبدا الرجل العملاق وكأنه المرافق الشخصي للفتى الضئيل الجسد. وعرجوا على المقبرة وألقوا السلام على النقيب القتيل، ولما شاهد مأمون ذلك المشهد المهيب، انتفض قلبه فزعاً وكأن شيئاً ما سيحدث. وانسل عائداً إلى السوق محبذاً أن يعيش جباناً في بيته، وأن يمارس حياته كأي فرد من فئة البَيَع، وهذا أجدى من الموت شجاعاً على رأس جبل أو تل في قتالٍ لن ينتهي وليس طرفاً فيه. ولكن مر عام ولم يحدث شيء ذو قيمة، وما زال محاربو القبيلة ينتظرون نشوب الحرب بفارغ الصبر، ورغم ذلك استمر الفتى يراوغ، ويجري بعض الحسابات والاستعدادات الوهمية، ويطارده عمه وأزلامه والرجال النزقون المتحمسون للحرب. وشعروا أن نقيبهم الجديد تنتابه الحيرة، ويبدو مشوشاً متعباً، ولاحظوا أنه في بعض الأوقات لا يظهر ليوم أو يومين، وأشيع أنه يتردد على طبيب القبيلة "أبوعيضة"، وأيقن البعض أنه يخفي سراً ما حول صحته، وكان الجميع بما في ذلك أمه يعتقدون أنها وعكة صحية عابرة كالتي تحدث للناس إثر تقلبات الفصول، أو بفعل البرد أو الحر. وهكذا ظلت حالة النقيب هزّام متقلبة، وفي الأوقات العادية كان يقوم بواجبه في سماع

مشاكل أفراد القبيلة والفصل بين المتخاصمين، والأهم من كل ذلك هو تفكيره الدائم في الانتقام من قتلة والده، تحاصره مطالب الأهالي وعيونهم المتململة، يودون لو يفعل شيئاً يمحو العار عن القبيلة. وتظل والدته كذلك تحدثه عن دماء أبيه التي انسكبت في السوق، وتزداد الضغوط عليه من جسده أيضاً، وتتدهور صحته بشكل واضح، ولا أحد يلقي إلى ذلك بالاً. واستمر البعض ينقل إليه الأنباء المبالغ فيها عن عمل المدرسة المخالف للقيم والأعراف، ولم يكن يولي أهمية لما يحدث في هذا البناء طالما لا يؤثر على قضية مقتل والده، وضاق ذرعاً بتحريض الفقيه النزق الذي بدأ يفقد مكانته مع وجود المعلمين الذين باتوا حديث الساعة في مجالس القبيلة. أخيراً قال له النقيب هزّام بضجر:

– هل التلاميذ الذين يدرسون في سن تسمح لهم بحمل البنادق والحرب؟

– لا أيها النقيب، لكن كتبهم تزخر بالدروس التي لا تجيز حمل السلاح أو الأخذ بالثأر، وهذا شيء خطير، حيث لن يقبل أحد من الدارسين في المستقبل الصعود إلى الجبال.

– نعم، هذا ينافي طبيعتنا وأعرافنا.

وأخذ بعض الأتباع، وذهبوا إلى سوق الربوع، وهناك حال السور والبوابة المغلقة دون اقتحام المكان. ودق هزّام البوابة الواسعة بعنف، وفتح له المعلم المصري فريد، وساقه إلى المدير، الذي ظنه طالباً فاراً من الدراسة أو جاء متأخراً، وشرع يقول بغضب:

– لن تحضر الحصص ما لم تجلب والدك.

– والدي قتل قبل أعوام في هذا السوق.

– ماذا تريد إذن؟

– أنا النقيب هزّام، وقد تلقيت شكوى بأن المدرسة تعطي دروساً مخالفة للأعراف.

– يمكنك الدخول للاستماع في أي فصل.

وقام المدير بمصافحته في حركة تمثيلية، وخرج جاراً جسده المشدود الصارم، حتى دخل والفتى إلى أحد الفصول، ووقف التلاميذ باحترام مرددين التحية للمدير، وشعر هزام بهيبة هذه الشعائر المدرسية، وبجديتها، واستمع والمدير إلى حصة من مادة القراءة، جلس على مقعد خشبي قرب التلاميذ، ولاحظ كيف يردد الصغار وراء معلمهم الكلمات والحروف، وهم يتعلمون التهجّي. وليثبت المعلم جدارته وسعة علمه استفاض في شرح اللغة، وكيف استطاع الإنسان الأول الكلام، إذ كان في بداية النشوء يصدر حشرجات غامضة تشبه أصوات الحيوانات، وصفيراً كالطيور تدل على فرحه أو حزنه أو غضبه، ثم تطورت أجهزة النطق لديه مع مرور الزمن. وظن المدير أن هذه المقدمة فائضة عن الحاجة ولن تضيف إلى عقول التلاميذ شيئاً، وذلك لأنه كان يؤمن بأن الله علم آدم الأسماء كلها في نهار واحد كما جاء في القرآن، ولكن الصغار كانوا مستمتعين وفرحين، وطلبوا من المعلم أن يقلد صوتاً من أصوات الإنسان البدائي المعبرة عن سعادته، فأدى بخجل حشرجة تشبه آهات اللذة التي تطلقها النساء عند الجماع، فضج الجميع بالضحك، وخرج هزّام من الفصل وهو يضحك، وحين قابله الأتباع قال:

– إذا عاد الفقيه إلى الشكوى، ضعوا القيود في قدميه.
ولم يعد أحد بعد ذلك إلى التبرم.

***

بمجرد أن تمّ الانتهاء من بناء المركز الطبي، تم تجهيزه بمعدات طبية أغلبها خاص بالتشخيص والمعاينة، إضافة إلى قسم مختبر وصيدلية صغيرة. وجاء طبيب من العاصمة نحيل أثار شكله انتباه المتسوقين بنظارته البيضاء ذات الإطار الذهبي، وبذلته البيضاء وسماعة التشخيص، وصلعته العريضة التي تتعرق طوال الوقت، وتعكس مدى اجتهاده في عمله وغزارة علمه. وانضم إليه لاحقاً عامل مختبر، وممرض يسجل المرضى ويدخلهم إلى غرفة التشخيص على التوالي، وانتشر الخبر مثل كل الأخبار العجيبة التي تسترعي الانتباه، وأصبح المكان مزدحماً وكأن أجساد الأهالي انهارت مرة واحدة بعد مقاومة طويلة للأمراض. وفرض الطبيب نوعاً من النظام، وتعلم القادمون من القرى أن عليهم ترك أسلحتهم خارج المشفى، لقد اعتادوا أن يفعلوا ذلك دون أن يسألوا عن الأسباب، تماماً كما اعتادوا على حمل تلك القطع الحديدية على أكتافهم.

وسمع النقيب هزّام بالخبر ولم يأبه له. ولكن كلما جاء إلى بيت أبو عيضة للعلاج يظل الطبيب الشعبي يثرثر عند رأسه طوال الوقت، تدفعه إلى ذلك المخاوف حول مستقبله المهني، والأضرار التي ستنجم عن وجود هؤلاء الأغراب في القبيلة، إذ لم يعد يأتي إليه سوى القليل من

الناس وأغلبهم من الشيوخ، إضافة إلى النقيب هزام الذي يخفي آلامه عن الجميع، أما غالبية الأهالي فيذهبون إلى المركز الصحي يجذبهم إليه نظامه وأجهزته الحديثة. ويزعم أبو عيضة أنهم لا يفقهون شيئاً عن الدواء، وسينشرون أمراض المدن بين الأهالي، وأنكر أن يكون في القبيلة أمراض تستدعي هذا البناء الكبير وكل تلك الأجهزة، ما يعوز القبيلة هو طبيب شعبي يضمد الكسور والجروح التي تحدثها الرصاصات في الأجساد أثناء الحرب، وشخص يملك الترياق الذي يشفي من لدغات الأفاعي المنتشرة بكثرة في شعاب القبيلة وجبالها، كما أن هذا الطبيب غير ماهر في اكتشاف الداء، فيعطي أدوية غير نافعة، تصيب الناس بأمراض أخرى. لقد كان يدرك جيداً أن كلامه محض افتراء، لأنه زار طبيب الحكومة في اليوم الذي سمع فيه عن وجوده. جاء إليه متحدياً يريد أن يفرض سيطرته في المكان ويثبت جدارته في الطب الشعبي. دخل المركز الصحي بثقة عالية، ووقف في غرفة الفحص المعدّة لاستقبال المرضى، ليس كمريض بل كخصم أضمر أن يفضح خصمه. وسأل أبو عيضة الطبيب الحكومي عن العشبة التي يستخرج منها الترياق المضاد لسم الأفعى المجلجلة، وأفصح الطبيب عن عجزه عن الجواب، ونظر في وجه الطبيب الشعبي بإمعان، وكشف له عن إصابته بمرض البلهارسيا الناجم عن استعماله الماء الملوث في الشرب والاغتسال. وفي العادة يكون هذا الماء مكشوفاً آسناً يشبه المستنقع، ووصف له الأعراض التي يشعر بها، انتفاخ البطن وإرهاق ونزول بعض الدم مع البول. وبُهِت الطبيب أبو عيضة، ولم يستطع الإنكار، فالماء القريب من منزله هو ماء بئر مكشوف مختلط ببول المواشي، ومليء

بالطحالب الخضراء والفطريات، وتحدث له نفس الأعراض.

وأخذ الأقراص المكافحة للبلهارسيا، وانسحب دون أن يبدي أي مقاومة أو اعتراض، وقد أفاده الدواء كثيراً، ومع ذلك لم يعترف لأي إنسان بهذه الزيارة، ورغم حرصه الشديد على بقاء الأمر طي الكتمان فقد رآه حمود البقّال يخرج دائخاً مترنحاً كالمريض، وأخبر الجميع بذلك على سبيل التندر.

وفي يوم الأربعاء زار النقيب هزّام السوق مع عدد من الأتباع، واقتحم البناء متجاهلاً الحارس العجوز، وخرج الطبيب منزعجاً، وقال مخاطباً المسلحين:

– لا يجوز دخول المركز الصحي بالسلاح يا سادة، اتركوا أسلحتكم لدى الحارس.

ردّ أحد الأتباع قائلاً باستنكار:

– كيف تقيمون هذا المركز دون أن يعلم النقيب هزّام آل طعيم؟

تقدّم الطبيب منهم وهو يقول بلا وجل:

– نحن هنا نداوي المرضى بأمر من الحكومة المركزية في العاصمة.

رد عليه هزّام بنبرات ضعيفة مفككة:

– أين حكومتك يوم انتهكت الأعراف واغتيل والدي في هذا السوق اللعين؟

ألقى الطبيب نظرة ثاقبة في وجه المتكلم، ودنا منه وهو يقول باهتمام:

– اقترب أيها الفتى، عضلات وجهك مشدودة ولسانك ثقيل،

أنت تعاني من خطبٍ ما.

– كيف تخاطب النقيب هزّام بهذه الطريقة الشائنة؟

– إنه يقول الحقيقة، انتظروني في الخارج.

قال ذلك النقيب هزام، ودخل إلى غرفة المعاينة لأول مرة في حياته، واستلقى على السرير، وترك الطبيب يضع السماعة على قلبه، ويقيس ضغط دمه، وسمعه يسأل بصوت بارد:

– هل تأذيت في جزء ما من جسدك؟

– نعم، قبل عامين سقطت عن شجرة وأصبت في رأسي.

– هل تنتابك حالات غريبة بعد هذا الحادث؟

– حالات تنميل وخدر في قدمي اليسرى.

– متى كانت آخر مرة شعرت بالخدر في قدمك اليسرى؟

– هذا الصباح.

– والمرة السابقة لها؟

– مساء أمس.

سال الاهتمام في وجه الطبيب على شكل عرق غزير، وأسرع يفتح أحد الأدراج، وأخرج شريط دواء، وتناول قرصاً وكأس ماء، وطلب منه أن يبلعه حالاً، ثم أعطاه شريطاً آخر وأدوية سائلة، وشرح له كيف يستعملها ومتى يلجأ إليها، ونصحه أن يتردد إلى زيارته حين تعاوده حالة الخدر في قدمه. وانصرف الفتى محتاراً، ممسكاً بلا اهتمام كيس الأدوية. ولما تخطى سور المركز الطبي رماها أرضاً، ووقف أمام أتباعه مدعياً أنه سليم من أي مرض، وطلب من السائق أن يعيده للتو إلى كازم.

في نفس اللحظة أعاد متسوق الكيس إلى الطبيب، فخرج ببذلته

الرسمية باحثاً عن مريضه القانط، وجعل يسأل عن أسرع شخص أو وسيلة نقل يمكن بواسطتها نقل الأدوية إلى صاحبها. وقاده رواد السوق إلى منزل مأمون، ولما فتح الأخير ورأى الطبيب متجهماً، كاد قلبه أن يسقط بين قدميه هلعاً، لا يدري أي سبب جعله ينزعج، فهو رغم دخوله المدينة لم يزر طبيباً من قبل إلا من أجل امرأته التي اعتراها الدوار وهم في طريقهم إلى المدينة، أما أن يزور الطبيب منزله فهذا شيء مرعب! وأدرك الأخير انزعاج صاحب المنزل فقال بتزلف:

– أرجو أن تساعدني في نقل هذه الأدوية الضرورية إلى النقيب هزّام.

– ماذا جرى؟ الفتى قوي كذكر الماعز! لا أحد في القبيلة يستخدم مثل هذه الأدوية.

– حياة الفتى في خطر، وإن لم يتناول الدواء سيقع في غيبوبة شديدة تؤدي به إلى الموت خلال الساعات القادمة.

أحس مأمون، رغم جحوده، بقلق شديد، حيث لا يبدو ما قاله الطبيب قد جاء من فراغ، وهو يعرف خلال إقامته في المدينة أن كلّ شيءٍ هناك له مبرر، وقد سمع عن فتيان أقوياء يتعرضون لأمراض عصرية قاتلة، واستقبلته امرأته بسؤالها المستفز:

– ماذا تحمل في هذا الكيس؟

رد بغضب قاطعاً عليها السبيل لمحاكمته:

– هذا "أم الصبيان"[1]، هلا ابتعدتِ عن طريقي؟

وخرج من أمامها متجهماً، وهام على وجهه في السوق، لا يدري

١ عبارة تقال عند الضيق والضجر. وأم الصبيان هي أنثى الجن.

ماذا يفعل؟ يريد أن يذهب خلف النقيب، وفي نفس الوقت لا يريد أن يتدخل في ما لا يعنيه، لكن صحة نقيب القبيلة هي أغلى من كل شيءٍ. وذهب نحو قرية كازم، وسأل عنه كثيراً، ولم يقع له على أي أثر، وعندما قرر العودة سلك درباً خلفياً، وفوجئ بسيارة النقيب هزّام واقفة هناك، وبجانبها تابع واحد فقط، وفكر في السبب الذي يدعو النقيب إلى التواجد في هذا المكان المعزول. ولفت انتباهه وجود منزل صغير على سفح هضبة صغيرة، وأدرك أن هذا هو منزل الطبيب الشعبي أبو عيضة، فصعد بحذر نحو ذلك البناء الوضيع، وهناك توقف حين سمع النقيب هزّام يقول:

– كيف اكتشف طبيب الحكومة مرضي يا أبو عيضة؟

– أقسم بشرفي أني لم أفشِ السر، إنهم يشبهون السحرة لهم أساليب خفية في كشف الأسرار.

– الآن الناس يعرفون أن ذلك الرجل فحص جسدي، وأعطاني بعض الدواء.

وعند هذه الوهلة ظهر مأمون كالقدر العاجل حاملاً كيس الأدوية دون أن يستأذن، فالطبيب الشعبي رجل أرمل يقطن وحيداً في المنزل، وقال دون مقدمات:

– ها هو الدواء، وقد جلبه الطبيب بنفسه إلى منزلي، ويقول إنك بأمس الحاجة إليه وإن حياتك في خطر.

نظر هزام إلى الكيس بتشاؤم وقال يخاطب الطبيب أبو عيضة:

– ما رأيك هل تناسبني هذه الأقراص والعلب الممتلئة بالسوائل اللزجة؟

– ليس هناك أفضل من "العنصيف" المطحون، إنه يشفي آلام الرأس و...

– ولكنه لم ينفع يا أبو عيضة وقد استعملت منه كمية كبيرة.

– الدواء يسري في الجسد ببطء، لا تستعجل العافية.

– لا أريد شيئاً غيرها، ولا أستعجل شيئاً عداها، لو تكون في مكاني أظنك ستولول مثل امرأة متعسرة الولادة.

قال مأمون وهو يشعر بالشفقة:

– ليس أمامك إلا أن تجرِّب هذه الأدوية، عندما زرت وامرأتي المدينة أعطيناها بعض الأقراص، وأثّرت تأثيراً حسناً في جسدها.

– لا تفتأ تردد هذه الحكاية، الطب الشعبي هو الأجود، وقد أخذ منه الآباء والأجداد.

– يشاع أن طبيب الحكومة أفحمك، واكتشف في جسدك أمراضاً لا تحصى، لقد رآك أحدهم تخرج متوعكاً من المركز الحكومي.

– نعم، أي شخص يدخل هناك صحيحاً يخرج عليلاً.

– توقفا عن الجدال، رأسي لا يحتمل هذا الحديث العابث.

كان وجه النقيب هزّام يشحب ويعتصر ألماً، وأراد أبو عيضة أن يعطيه العنصيف ممزوجاً بالماء، فأمسكه مأمون من رقبته وضغط بشدة، حتى كاد يختفي ألق الحياة من عينيه، ثم نحّاه جانباً كخرقة ملطخة بالقذر، وفتح كيس الأدوية وجعل يعطي الفتى المريض بعض السوائل، وسقاه قرص دواء، فعاد إلى الجسد المرهق رمق الحياة، وصفت ملامحه واختفت آلامه تدريجاً، وآب إلى السيارة وهو يشعر بتحسن كبير.

الفصل السادس

مع مرور الوقت ازدادت حالته غموضاً وتعقيداً، أحياناً يبدو هادئاً رصيناً، وفي أحايين أخرى ينقلب إلى وحش كاسر. يتحول ألمه إلى غضب يصيب الأشخاص الذين بجانبه، فيصرخ فيهم أو يشتمهم، أو يطلق النار في الهواء للتنفيس عن غيظه. ينظر البعض إليه كمراهق لا يجيد قيادة نفسه إلى مكان آمن، والبعض الآخر يراه مثقلاً بالهموم والآلام. وهكذا صار الكثير من رجال القبيلة محتارين في تفسير حالة النقيب هزام، ويتجادلون حول ذلك في معظم الأوقات. وذهبت أمه ناجية إلى المركز الصحي تستوضح عن حال ولدها الوحيد، وصارحها الطبيب أنه في خطر شديد، ولن يعيش حتى نهاية العام. وعادت وهي مغتمة، لكنها لم تكن قد فقدت جأشها وإيمانها بقضية زوجها، ورأت أنه إذا كان منساقاً للموت، فلن تقبل أبداً أن يموت كالعجوز على الفراش، بل عليه أن يفعل شيئاً عظيماً يرفع من شأنه وشأن القبيلة، ووقفت أمامه وقالت:

– إسمع يا بني، لقد طال الزمن ونحن ننتظر معجزة. والآن أريدك أن تؤدي ما في ذمتك من عهد لأبيك والقبيلة.

– لا شك أنكِ تعرفين بما ألمّ بي، وربما تعرفين شيئاً لا أعرفه عن حالتي.

– نعم، أتمنى أن يكون الطبيب مخطئاً.

– كم لديّ من الوقت لأعيش؟

– لا أدري، إلى نهاية هذا العام كما يزعم الطبيب. وأنت تعرف ما ينبغي أن تفعل.

– نعم، عندما أتعافى سأفعل شيئاً يحفظ ماء وجهك يا أمي.

أحسّت بالحنان تجاه ولدها كأي أمّ، ثم أمسكت نفسها كأي شخص قانط ميت من أعماقه، فهي أيضاً ممتلئة بالنقمة والحقد. وفطنت إلى ضرورة استيلاد نقيب جديد، ولن يتم ذلك دون تزويج هزّام، ووجدت أن الفترة التي تفصل عن نهاية العام هي ثلاثة أشهر، فأسرعت، وبعثت الخاطبين إلى جبل أبو الحيد، وخطبت له بنتاً بالغة من بنات شقيقها ناصر، وأفاقت القبيلة في آخر الأسبوع على نبأ زفاف نقيبها العاجل.

***

تلقى مأمون دعوة عاجلة لحضور عرس النقيب هزام، وقرأ البطاقة أمام امرأته بشيء من الفخر، ورأى أخيراً أنه بدأ يتلقى الاهتمام اللائق به من آل طعيم. وفي صباح يوم الخميس قام واغتسل كما يليق بشخص مدعو إلى عرس كبير، ووقف مقابل المرآة المرسومة على الحائط طويلاً. شذَّب لحيته وسوّى بحذر أطراف شاربيه الكثين. كان المقص الصغير يرتعش بين أنامله، وهو يجتث شعرتين صغيرتين

لا أكثر، فالشاربان لهما مكانة كبيرة عند رجال القبائل، ولا ينبغي أن يظهر بمنظر مأسوي في كازم، فهو وكيل عقارات العائلة، ورأى بعض النمش والهالات السوداء تحت عينيه، وأحس بالقلق البالغ، فهي عدو كبير للوجه، وتحمل للناس معاني مختلفة عن بؤس واكتئاب صاحبها، أما التجاعيد على الجبين وفي زوايا العينين والصدغين، فلم يلق لها بالاً، وقد اعتاد أن يراها من وقت لآخر. وبدأ ينتف بعض الشعيرات التي تطل من تجويفي أنفه، وتخلص من الزغب البازغة في قمة خديه، ولا يدري كيف انبثقت زعفران إلى غرفته المموهة التي لم تعد سرية منذ زمن، سمع حفيف ثوبها المكشكش، وتوجس منها تعليقاً لاذعاً، فقد باتت تكره وقوفه الطويل أمام المرايا، وتخشى بلا مبرر من فرحه وتصابيه رغم أنه ردد على مسمعها أكثر من مرة أنه لم يعد يطمع بامرأة مزعجة أخرى، لكن في مثل هذه المناسبات يسرها أن تتلصص عليه وتعكر صفوه، فقالت بعد لحظة من الصمت والتأمل:

– أتظن نفسك عريساً حتى تقف هكذا تتأمل نفسك كالعاشق الولهان؟

أجاب دون أن يرفع نظره عن المرآة:

– أنا في طريقي إلى كازم، الناس يتجملون في الأعراس، إنها أعياد صغيرة.

– أرجو أن تكفّ عن التصابي، رجال القبائل لا يحفلون كثيراً بالمظاهر.

– نعم، لكن يجب أن نظهر بمظهر حسن، لا ينبغي أن نقتدي بهم

وبمظاهرهم الرثة. أنا وكيل عقارات...

رفعت صوتها بشكل مفاجئ مقاطعة بنزق:

– لِمَ لا تكون وضيعاً مثل كل البيع وتنأى بنفسك عن رجال القبائل؟ لم نلق منهم سوى المشاكل.

ردّ عليها بصوت حاد:

– ستظلين متبرمة حتى لو عشنا في الفردوس، أي جنون أصاب رأسك يا امرأة؟

انسحبت من أمامه حين رأت عرق الغضب يرف فوق أنفه الضخم، باتت تلك علامة تعرفها قبل انفجار غضبه، فترك المرآة ومضى يبحث عن زعفران ليفرغ فوق رأسها غضبه الشديد، لكنها فرت وتركته يركل كلّ شيء في غرفته.

جلس قليلاً يسترد أنفاسه ويستعيد صفاء وجهه، إذ ليس من المعقول أن يخرج بوجه مكتئب مكفهر، وبعد أن شعر بتحسن، قام وانصرف من المنزل.

في كازم كان العرس كبيراً، والرجال يؤدون بعض الرقصات السريعة، فدخل المكان بلا تهيب مما أثار بعض الاستياء في وجوه بعض الأهالي. كان عكازه الأثير متربعاً في يده كما يفعل الوجهاء، بدا شكله لافتاً للنظر، واكتسب بعض الترحيب من البسطاء الذين كان يقرأ لهم رسائلهم، وأولئك الذين كان يحل بينهم بعض الخلافات الصغيرة، أو يقرضهم بعض المال، لكن شأنه ازدان رفعة حين هتف العريس باسمه واستدعاه، والعريس هو نقيب القبيلة هزام، ولا يدعو أي شخص إلا لأهميته ورفعة شأنه. وسار مأمون والعيون الغيورة تتأمله

بلؤم، بينما هو يوشك أن يتفجر زهواً وفرحاً، ويحاول أن يكبح مشاعره وتصرفاته، وطلب منه العريس أن يجلس قربه، وكاد قلب مأمون أن يطير من صدره، وأخذ الدوشان يسجع الأقوال ويشير إليه ويصفه بأنه كبير فئة البيع، وأهم رجل في سوق الربوع، ومد مأمون راحته إلى جيبه، وأخرج ورقة كبيرة من المال وقذفها إلى مدّاح القبائل، وسرت الدهشة في وجوه الرجال، واستفاض الدوشان بالمديح في ذلك الرجل السخي الذي لا يضارعه أحد، وألبس وجهه هالة من التواضع، ما لبثت أن زالت بعد لحظات، وعاد آخر النهار إلى سوق الربوع مبتهجاً بما كسب من اهتمام. لم يذهب وقوفه أمام المرآة سدى، وظل مخدراً مدة من الزمن، حتى تلاشى خبر الزفاف، وصارت النساء في السوق يهمسن أن هناك ثمرة تنمو في رحم امرأة النقيب هزام، وأن جدته ناجية بنت أبو الحيد تأمل أن يكون ولداً ذكراً. وفي يوم قريب سمع صوتاً يناديه من خارج المنزل، ورأى النقيب هزام مرتدياً ملابس الحرب، وحين نزل إليه أخذه بشكل مهين، وساقه أمامه كرهينة إلى خارج السوق، وهو يقول ببرود شخص مقدم على الموت:

– أنت تعرف الجبال التي يختبئ فيها آل شهوان؟

– نعم، أرجو أن تبعد هذا السلاح عن ظهري.

– أريد أن تقودني أيها الضخم إلى حيث يختبئ القاتل.

– أحذرك أيها النقيب، لن تعود من هناك أبداً.

– نعم، لا عليك، سأموت في كل الأحوال.

– اسمع يا بني، ينقصك سلاحٌ دقيق التصويب بعيد المدى ومنظارٌ واضح الرؤية.

– نعم، لن أحيد عن رأيك، وأنت الدليل.

– أنا؟

– نعم، أنت سترافقني إلى هناك.

واتفقا على اللقاء عند شروق شمس اليوم التالي.

لم يكن مأمون يفهم في السلاح، ولكنه أراد أن يؤجل الأمر بعض الوقت، وتمنى أن يغيّر النقيب هزام رأيه، ودخل بيته مغموماً وتحدث كثيراً مع ولده وامرأته، وبعد غرقهما في السبات كتب وصيته، وأشار إلى موضع ماله النقدي ومقداره. نظر إليهما بكثير من الحنين، لم يكن يتوقع أنه في يوم من الأيام سوف يتركهما ويذهب في مهمة خطيرة قد لا يعود منها سالماً. خاطب جابر النائم موضحاً أسباب غيابه: "إفخر بأبيك دائماً، لأنه أول قارئ في فئة البَيَع، ولا تلقِ عليه أي لوم، لأنه مضطر إلى فعل ذلك، إنه القدر الذي ربط مصيرنا بمصير هذه العائلة المنكوبة، وكما يقول المثل الشعبي: "لا تربط حمارك إلى جوار حمار المِدْبِر[1] ينحسك".

وفي الصباح أعلن عن رحيله إلى مكان لم يفصح عنه، وهمس في أذن زعفران:

– سأرافق النقيب التعيس إلى مكان محفوف بالمخاطر، وقد لا أعود لأني على ما أظن إنسان قابل للهلاك في أية لحظة، لذا سأضع وصيتي عند العم زين المقهوي، وسأكلفه أن يقوم بأعمالي ما عدا النوم على فراشي، وابتسم موحياً بالمزاح والثقة معاً، فهو رجل نصوح يحب جيرانه.

---

١ المدبر: الشخص المنحوس.

ووقف عند جابر قليلاً، ونظر إليه نظرة خاصة موحياً إليه أنه الرجل في العائلة، وساعده على ارتداء حقيبته، وحثّه على الإسراع إلى مدرسته وعدم الاكتراث لأمر غيابه. أحس أن امرأته مغتمة بشدة، ولم يشعر بانتشاء كالمرة السابقة، ربما لأنه رآها في فترات متقطعة تبكي وتتودد، وقد أرادت الاستفسار، لكنه لم يكلف نفسه تفسير كثير من الأشياء التي تود أن تعرفها. لقد اعتاد مؤخراً أن يغيب دون أن يبرر لها غيابه، وعقب خروجه عرّج على زين المقهوي، وألقى إليه الوصية، ومضى في طريقه وهو يسمع أصوات التلاميذ وهم يرددون تمارين الصباح. وجاشت مشاعره حين غاب منزله عن نظره، ووقف ينتظر النقيب هزام في الموضع الذي اتفقا أن يلتقيا عنده، وهناك أطلق لأشجانه الحبيسة العنان، وجعل يندب حظه، ويحس بالندم. ليس لديه هذه المرة هدف يسعى إلى تحقيقه، إنه فقط دليل لفتى يرغب في أن يموت على النحو الذي يشرح أفئدة أهله وقبيلته، أما هو فإن موته إلى جانبه يعتبر موتاً هامشياً، لقد جعله حظه السيئ يقف في قلب الأماكن التي وقعت فيها الأحداث المهولة التي عاشتها القبيلة، وكلما تنفس الصعداء إثر عناء سابق، أو أحس بالفرح بنجاته إثر حادث، سرعان ما يعصف به حدث جديد وخطر محدق. ها هو مدعو ليكون دليلاً إلى أرض آل شهوان، التي لم يكن ليظن أنه سوف يدوسها طيلة عمره. مُحال أن ينسى ما جرى له فيها من عذاب.

عند هذه الوهلة، جاء النقيب هزّام مرتدياً سلاحاً طويلاً ذا منظار ذهبي متقن الصنع. لقد عاد وأمضى يوماً آخر وامرأته، وفي الليل أسرّ لها عن مرضه وموته المحتوم، واعترف بأنه خدعها، وورطها بالزواج

به. حاولت أن تثنيه عن الذهاب، لكنه لم يتراجع، قرر أن يفعل ما يفعله الرجال في القبيلة، حين يمضون في طريقهم نحو الحرب دون أن يقولوا لأهلهم وداعاً. انتابه بعض الشجن وأراد أن يبدي بعض الود من قبيل الوداع، إلا أن هذه المشاعر غريبة ومستهجنة في هذه المجتمعات الجافة العواطف، بل تعتبر عيباً من عيوب الرجال. أحب أن يكون غامضاً جافياً لأن اللين يورث الحزن، لذا مضى دون أن يلتفت إلى الوراء.

***

سارا عبر طرق غريبة يتحدثان عن أمور شتى في الحياة، وكأنهما ذاهبان في نُزهة ترفيهية للصيد أو صعود الجبال، وانغمسا في الحديث حتى نسيا الهدف الصعب الذي ينشدانه. ولما ظهرت حدود قرى آل شهوان انتابهما الحذر، وتذكرا المهمة العويصة الملقاة على عاتقهما، وأخفى الفتى سلاحه في كيس نايلون أسود، وكذا الجُعب والقنابل، وحملها مأمون الذي يبدو في شكله العام كعابر سبيل مسالم يسير وابنه البريء الملامح إلى مكان غير معروف. أمضيا الليلة الأولى بهدوء في الخلاء تحت تجويف صخرة كبيرة. وفي اليوم التالي، وهو أول أيام السنة الجديدة، عبرا بعيداً عن القرى والحقول، ولكنهما لم يستطيعا تجنب الرعاة، وهؤلاء لم يكونوا مشغولين سوى بقطعانهم، ولا يثير ظنونهم أيّ عابر سبيل. كانا يبدوان مجهولين، لاسيما الفتى، أما الرجل الضخم الجسد فقد كان يخشى أن يتعرف إلى وجهه أحد المحاربين الذين رأوه سابقاً في الجبل، لذا ظل خائفاً يحاول أن يتجنب الأنظار. ولكن

في لحظة وجدا نفسيهما على طريق يؤدي إلى قرية كبيرة، ومن اليمين والشمال منحدرات وفجوات سحيقة، ولم يكن من اليسير الالتفاف حولها، وأما الأصعب من ذلك فهو العودة من حيث أتيا. لذلك وقفا في منتصف الظهيرة بيأس تحت ظل صخرة منعزلة على شعب مكشوف. بدت القرية أمامهما مفتوحة ككتاب ببيوتها الحجرية الدكناء، ولفت انتباههما منزل كبير يحف به حشد من الرجال، وتصدر منه الزغاريد وتطلق الأعيرة النارية بكثافة في الهواء. هنا فكر مأمون أن لا فرق كبيراً بين حفلات الأعراس وبين الحرب، وأدرك أن أولئك الرجال مدعوون إلى هذه المناسبة، وأن رب المنزل من الوجهاء حتى يجتمع حوله الناس بكثافة. وفجأة خاطبهم شخص من الخلف قائلاً:

– هيه، ماذا تنتظران؟ لا تفوتكم المأدبة في منزل كبير العشيرة عاطف شرهان.

أجفل الرجل والفتى، والتفتا إلى المتكلم فوجدا راعياً على الصخرة وقطيعاً في الأعلى، وأجاب مأمون متنفساً الصعداء:

– أوه، أخفتنا أيها الراعي.

وأضاف:

– لسنا مدعوين، إننا عابرا سبيل.

– أوه، في هذه الحالة لن تستطيعا حضور العرس، ستكون الإجراءات مشددة مع وجود النقيب حسّون.

مدّ الفتى ذراعه نحو الكيس فأبعد مأمون كفه قائلاً بخجل:

– الولد يشعر بالجوع، لذا سنأكل طعامنا الآن. هلا شاركتنا؟

– هنيئاً لكما.

وانسحب الراعي متيحاً لهما فسحة للأكل، بينما أخرج هزّام السلاح بسرعة، وضبط مؤشر المنظار على الوضع الصحيح، ثم أمسك بالمنظار اليدوي وجعل يتصفح وجوه الناس، لكنه لا يعرف أحداً، وسلّم المنظار إلى مأمون، فحدّق قليلاً في وجوه المدعوين، وفجأة لمح وجهي شقيقي النقيب حسّون إلى جوار العريس المتوج بشال محاط بالرياحين وأزهار الفل، فقال بحماس:

– أحد القتلة على يمين العريس والآخر في اليسار. شخص ما يوشك أن يلتقط لهما صورة.

انطلقت سبابة الفتى بشكل غريزي لتضغط على الزناد مرتين متتاليتين، فأصاب الشقيقين، ربما قبل أن يحظيا بصورة أخيرة والعريس، ورآهما مأمون يقعان أرضاً، وقبل أن يدرك ما حدث سمع الفتى يصيح:

– تحقق من الرجل الثالث.

لمح مأمون الهدف يطلّ خطفاً سائلاً عن الجلبة التي حدثت، ثم غاص وسط مجموعة من الأتباع، ويبدو أنهم أدركوا بوجود قاتل في الجوار، لذا تركوا أجسادهم دروعاً بشرية لحماية النقيب، ونهض مأمون مشيراً بإصبعه إلى الكتلة البشرية وصاح:

– إنه هناك وسط المجموعة.

– لا تشر بيدك، انخفض. ألم تتعلم شيئاً أيها الضخم؟

وأطلق الفتى العيار الثالث إلى وسط الحلقة، وسقط شخص ما، ولكن الدروع البشرية لم تتوقف، حتى غابت عن الأنظار وسط منزل العرس، وهطل على الصخرة التي يستتران تحتها وابل من الرصاص، وسمعا صرخة تأتي من الأعلى، وسقط الراعي إلى جوارهما غارقاً

في الدماء، وظلت الأصوات والأعيرة النارية تحاصرهم من جميع الجهات.

ودفعه الفتى للهرب قائلاً:

– لديك فرصة واحدة للنجاة، اخفض جسدك الضخم وانطلق بسرعة نحو التل وأنا أغطيك. سأرد إليك معروفاً قديماً.

وأطلق الفتى زخة سريعة من الرصاص كانت تخترق الأجساد، وتترك صدى مرعباً وسط حشود العرس، وتوارى المدعوون، وتداعى المحاربون من جميع ممرات القرية. وكانوا يحسبون أنهم قد أصابوا القنّاص في مقتل، ثم عاودوا إطلاق النار، ووجد الرجل الضخم نفسه يجري كما لم يفعل من قبل، وتسلق فجوة قاسية في التل القريب، وكان يظن إنه سينزلق ويتهشم على الصخور البارزة في الأسفل، ولكن حبه للحياة تغلب على صعوبة المنحدر، وتنفس الصعداء في رأس التل، ونظر نحو الأسفل وكاد يغمى عليه لفرط علو الفجوة، ونظر إلى الموضع الذي كان والفتى فيه، ورأى المحاربين وهم يحاصرون الفتى. كان دوي الرصاص يصم الآذان، ثم خفتت الأصوات فجأة، وبدأ الرجال يهاجمون الصخرة، مما يعني أن الأمر قد انتهى، فراح يهرول بلا هوادة مخترقاً شعاباً قاسية لم تطأها سوى أقدام عدد قليل من الأحياء، ثم أصابه التعب فأبطأ في مشيه، وانتظر أن يسمع أصوات المهاجمين خلفه، ولكن هذا لم يحدث، فاستمر يمشي وأمله في النجاة يزداد مع مرور الوقت، ثم أحس بالأمان التام حين داس على أول متر من أرض القبيلة قبيل الغروب.

دخل مأمون سوق الربوع ليلاً، وهو حافي القدمين، مكشوف

الرأس، مترنح الخطى باطن قدميه مليء بالقروح، ووقف محرجاً في غرفة الفحص، يشكو أنه لا يستطيع إمساك البول في مثانته، ولم يكن في وسع الطبيب سوى إرشاده إلى تجاهل الهموم التي تحاصره، وأمر الممرض أن يحقنه بحقنة مهدئة للأعصاب، ونهاه الأخير عن ترديد عبارته المأثورة: "ماذا لو سقطت من الهاوية على الصخور المسننة البارزة؟ يا لي من مجنون!"

وعندما رأته امرأته زعفران على ضوء المصباح صفقت الباب في وجهه بقوة، وظل خلف الباب يناجيها، قال في بداية الأمر:

– أنا مأمون، ماذا جرى لعقلك يا امرأة؟

– إذهب في حال سبيلك، زوجي خرج من المنزل مرتدياً شاله ومنتعلاً حذاءه، لم يكن شاحباً كالميت. ومزرياً كالشحاذ.

نهض جابر من السبات وسمع والده يخاطب أمه متوسلاً:

– هيا، افتحي يا زعفران، أخشى أن يسمعنا الجيران، وتلوكنا ألسنة البيع والمتسوقين.

سأل جابر:

– هل هذا صوت أبي؟

– بل هو رجل غريب يرتدي بعض ملابس أبيك، وله نفس الهامة والصوت.

– إفتح يا جابر، لقد حدث شيءٌ فظيع، والخوف يمزق قلبي.

فتح جابر متأثراً بصوت أبيه، ولم تعترض أمه، بل ظلت جامدة في موضعها لا تتزحزح، لكنها تمالكت روحها، وباتت تلقائياً تستعيد عقلها المشتت، وانتحت جانباً بلا وجل ليمر من جوارها، وكأنها

جهاز يقوم بتعريف هوية الأشخاص الذين يعبرون من أمامه، وكان ذلك منها اعتراف ضمني أنه زوجها بشحمه ولحمه، ولكن قدومه المفاجئ في ثلث الليل وحاله المزري غير المتوقع، كل ذلك شجعها على التنمر. بعد قليل اعترتها الطمأنينة، وباتت تتوق إلى سماع ما جرى، بل صارت تتحدث بانسجام تام وكأن شيئاً لم يحدث. كانت هذه طريقتها في العودة إلى الوئام، غير أنه كان محطماً متعباً يود الاختلاء في عمق الظلمة ليريح جسده الواني، حيث لا يراه أحد أو يتأمل ملامحه المصفرّة وأعضاءه الراجفة.

***

شاع النبأ في الأرجاء، فارتفعت آذان الأهالي مصغية باهتمام لما يقال، وسمعوا عن اغتيال الشقيقين، وإصابة النقيب حسّون في رأسه. وعادت بوادر الحرب تحوم في الأفق، لكنها لم تقع، لأن القبيلة المعادية كانت في حالة إحباط، ففي هذا الحادث أصيب قادتها، وجُرح قرابة عشرون من محاربيها، ولم يتحدث أحد عن فقدان حياة النقيب هزّام، بل زغردت ناجية بنت أبو الحيد بفرح، وكأن ذلك اليوم هو يوم زفافه الحقيقي. وخرجت إلى وسط قرية كازم مرفوعة الرأس تتحدث إلى الناس، وما زالت تنتظر خبر موت القاتل لتخلع ملابس حدادها السوداء، وتمارس حياتها بشكل طبيعي كما كانت من قبل.

كانت سارية حزينة جداً على زوجها، ولكن الأعراف لا تسمح لها بإظهار حزنها، وصارت ناجية تهوّن عليها مصابها، وتسرد لها كيف

انتهك الجناة الأعراف، وكيف داسوا جثة النقيب أرحب، ولكن هذا لم يمنعها من البكاء على زوجها، ليس لها شأن بالأحقاد السابقة أو الأعراف، ولا يهمها أن يسمى بطلاً، ماذا يفيد ذلك وهي لن تراه إلى الأبد؟

كان الفرح العارم يسري في أرجاء قبيلة آل طعيم، وشحن المحاربون بنادقهم تحسباً لأي عدوان من الخصوم، وتحصنوا رؤوس الجبال المحيطة بالقبيلة. لقد شفى الحادث غليل أكثرهم، ولكن القليل منهم يرون أن ذلك العمل لا يكفي، وإنما ينبغي أن يموت الشخص المطلوب، وما العشرون جريحاً أو حتى الشقيقان القتيلان في نظرهم سوى أفراد عاديين من أعوان القاتل وأقاربه، وقد خسرت القبيلتان في ما مضى الكثير من الرجال خلال حربهما الضروس، أما الجاني الحقيقي حسب اعتقادهم، فهو النقيب حسّون.

مرة أخرى بدت قبيلة آل طعيم محتارة مرتبكة، وأحس أفرادها لاسيما الرجال الأكبر سناً أنهم أصبحوا مرة أخرى كقطيع بلا راعٍ. وخرجت ناجية عن صمتها، وبعثت النداء إلى رؤساء العشائر، فاستجابوا وأتوا، واكتظت بالرجال ساحات قرية كازم، وأتت بشكلها الوقور راكبة على خيل زوجها الراحل، ودخلت إلى وسط الدائرة وقالت بصوت عالٍ:

– نقيبكم القادم ما زال في بطن أمه، وأنتم تعرفون أن والده قضى بكبرياء كالصقر الجارح على رأس الجبل.

تقدم النقيب ناجي إلى جوارها وقال بصوت هادئ:

– سأبقى الوصي حتى نرى ما يأتي من أنثى هزّام.

– لقد حلمت أن ولدي أهداني قلماً أنيقاً لم أر مثله قط، إنه ذكر، وأجزم على ذلك.

– اتفقنا، سوف ننتظر المولود.

وافق الجميع على الانتظار، وتفرقوا. وتطوع النقيب ناجي وذهب إلى العاصمة مبدياً اهتماماً كبيراً بهذا الشأن، ولكن النبأ السيئ كان في طريقه، حيث سمع عن نجاة النقيب حسّون من الموت مخلفاً وجهاً مشوهاً، إضافة إلى الكدمة القديمة في رأسه، وسيخرج من المشفى منتقماً غاضباً، ولن يجد في طريقه أحداً ينتقم منه سوى نقيب القبيلة، ولو كان مات كان الشر سيزول معه، ومن ثم تخلع ناجية ملابس الحداد، ويتسنى له أن يطلبها للزواج، ولن يكون هناك أيّ عذر لأرملة أخيه. أرهق الندم تفكير النقيب ناجي، لأنه ما زال مخدراً بأمل الفوز بها. كان يظنها قد خلعت ملابس الحداد السوداء بفعل ما حلّ بالخصوم.

وسار على هذا الأمل إلى محلات العطور والملابس واقتنى الكثير منها، وعاد إلى كازم، وأوهم الأهالي أن حسون في حالة ميؤوس منها، وشرع يرتدي الملابس القشيبة ويتصابى كمراهق، ويمر بسيارته من أمام الدار الكبير مرات عديدة في اليوم مطلقاً صوت البوق المزعج، ثم يتطلع إلى النوافذ عله يخطف نظرة واحدة من ناجية. بدا متيماً منتفشاً مثل طائر في موسم التزاوج، ويبدو أن الأرملة تضوعت عطره وشبقه، فاستدعته إليها في أحد الأيام، ووقفت أمامه بالملابس السوداء التي رآها من قبل، لكن اللافت في الأمر أن وشاحاً أبيض ملفوفاً حول عنقها، وهذا يبعث على الأمل ، قالت بصوت هادئ واضح النبرات:

– ماذا تحمل من أخبار يا ناجي؟

كان وقع اسمه وهو يخرج من بين شفتيها مدهشاً، فأجاب بانبساط:

– لقد نجا القاتل بأعجوبة، وخرج من المشفى بنصف وجه، وهذا

أبشع من الموت.

– نعم، هذا صحيح، آه، لو مات اللعين، كنا سنرتاح من شره، ونعلن زواجنا.

كاد قلب النقيب ناجي يسقط من قفصه الصدري وهو يسمع ذلك، فأجاب:

– ألا نستطيع الزواج بعد كل ما حدث للأعداء؟

– أريد أن يموت نقيب آل شهوان، ولو كان لديّ مائة ولد لضحيتُ بهم.

– سنتزوج عقب موته؟

– نعم، وأعطيك كلمة الشرف.

وصافحته بكفها موطدة العهد، وغشاه العرق بفعل التأثر، وظل ماداً أنامله بشرود بعد أن سحبت راحتها، ووجد في نفسه عزيمة ورغبة شديدة في خوض المغامرة، لكن ما إن زال الخدر من روحه بعد يوم واحد من مقابلتها حتى أحس بالحنق، لم تعد ناجية تستحق أن يهدر المرء روحه لأجلها في هذا العمر، والحقيقة أنه خاف المخاطرة بروحه ومنصبه في سبيلها. بعد أيام رأت ناجية سيارة النقيب ناجي تمرّ بهدوء قرب الدار الكبير، ورأته مرة أخرى خطفاً بملابسه العادية التي كان يرتديها من قبل، والجديد في تصرفاته، أنه أضحى يبتعد عن طريقها، كما لو كان يشعر بالخجل، ومع ذلك لم تأسف، وانتقل أملها إلى المولود الجديد، الذي جاء نضراً كوردة، لكن هذا لم يثر إعجابها، على عكس أمه سارية، باعتبارها فتاة تنتمي إلى جيل أصغر سناً وأقل تعلقاً بالأعراف. وبعد عامين غادرت إلى جبل أبو الحيد، إذ وجدت

نفسها فائضة عن الحاجة بعد أن أتمت فترة إرضاعه، ولم تجد شيئاً تفعله للطفل، فقد استأثرت جدته بتربيته والاعتناء به، ولم تعد تسمح لها بالاقتراب منه.

كانت ناجية بنت أبو الحيد تؤمن بأن اللون المفضل للولد هو اللون الأسمر، أو اللون القاتم الذي يشبه ألوان الجبال الراسية على أرض القبيلة، لذا قررت أن تزيل لونه أو على الأقل تخفف من نصاعة جسده، ولو كان في يدها لعمدت إلى تكبيره وتحويله إلى شاب أسمر قوي صارم الملامح في غضون يوم واحد. وفي كل الأحوال فإن الشجاعة والقوة هما الفيصل الأخير، وما زال الوقت مبكراً لمعرفة ما يؤول إليه حاله، لكنها أرادت استقراء مستقبله، ولأجل ذلك سارت والطفل وخمسين تابعاً مسلحاً إلى امرأة قحطانية بعيدة عن مركز القبيلة، حيث انتشر صيتها على أنها تتنبأ للمواليد عن طريق الأحلام، ولما رأت المرأة موكب ناجية المؤلف من عشر سيارات مكشوفة، رفضت استقبال القادمين، وأوصدت بابها جيداً، وارتفع صوت ناجية:

– افتحي، أنا ناجية بنت أبو الحيد.

بعد قليل انفرج الباب ببطء، وخرج رأس حليق لفتاة حنطية الشكل لا تتميز عن الفتيان سوى بقرطين في أذنيها، وقالت بنبرات جافية:

– أمي لا تقابل أصحاب المواكب، لأنها لا تريد المشاكل.

– لن يدخل أحد غيري.

ألقت الفتاة نظرة على الطفل ابن العامين، وابتسمت برقة عاشقة، وقالت كما يقول أهالي الأرياف الذين يخشون من العين الحاسدة:

– حاشاه من العين الخبيثة، ينبغي أن يمشي في موكب من الملائكة،

وليس من أرباب "القعاش".

– إنه حفيدي، وأريده أن يكون ذئباً حتى لا تفترسه الذئاب.

– تفضلي بالدخول.

ووقفت ناجية أمام امرأة أربعينية العمر، صارمة المظهر، ترتدي ملابس الحِداد السوداء. استقبلتها في غرفة مستطيلة رحبة على جدارها صورة بإطار فضي لشاب يوحي جو المنزل الصغير الكئيب إلى أنه غائب. قالت المرأة بشيء من التوتر رانية إلى الصورة:

– هذا زوجي سرق الأوغاد أمواله وقتلوه بعد عام من زفافنا. في البداية وضعت صورته على صدري وداهمني النوم، فحلمت بأشكال الرجال الذين قتلوه، ودخلت المحافظة وأعطيت أوصافهم للشرطة، لكن لم يصدقني أحد، ومنذ ذلك اليوم صرت أتنبأ بمصير كل شيء قربي حتى الأثاث الذي أفترشه والملابس التي أرتديها.

سألتها ناجية بسخط:

– أليس لك قريب غيور يطارد الأوغاد، ويغزوهم إلى أوكارهم ويذبحهم كالنعاج جزاء ما اقترفوا؟

هزت رأسها وأجابت بيأس:

– لا أنتمي إلى قبيلة، قضيتنا معلقة لدى الشرطة وعمرها عمر هذه الفتاة التي ليس لي غيرها، وسمعت أن بعض هؤلاء اللصوص قتلوا في حادث سرقة.

– لقد وهبت نفسي وأبنائي وأحفادي للقضاء على قتلة النقيب أرحب، وسألاحقهم إلى جحورهم، وأتمنى ألا يسبقني الموت إليهم.

ثم كزّت على أسنانها بغيظ، وتابعت بشرود:

– لم يبق سوى شخص واحد، وسأربي هذا الصبي لملاحقته، ولكنه وديع كالأرنب وأخشى من شكله الزاهي.

أجابت المرأة بحكمة إنسانة مقهورة:

– الأرنب لو يعيش بين الأسود، لن يمرّ وقت طويل حتى يتحول إلى أسد.

– أتمنى أن يحدث ذلك.

– هذه الليلة سيكون كل شيء، ولكن عليك دفع الأجر مقدماً.

– آها.

– وعليك قبول النتيجة مهما كانت.

– آهاا.

– على الأعوان أن يبيتوا في سياراتهم، إذ ليس لديّ مأوى لهم.

– آهاااا.

– وهذا كل شيء.

دفعت ناجية أجراً سخياً، ثم سلمت حفيدها إلى المرأة القحطانية بأصابع مرتعشة، إذ ينبغي أن ينام الطفل ليلة واحدة على فراش غريب، إلى جوار امرأة غريبة. وقضت الجدة ليلتها في غرفة مجاورة ساهرة تتقلب على فراشها وتصيخ السمع، ولم تدرك متى داهمها النوم.

في الصباح سمعت طالع الفتى الذي تجلى عن الأحلام، وعادت دائخة إلى قرية كازم، طاوية السر في جوف صدرها المكلوم. واستدعت مأمون إليها وقالت بامتعاض:

– هل تعرف لماذا استدعيتك؟

أجاب بارتباك:

– لا.

– ذهبت إلى امرأة قحطانية لأتنبأ للفتى، وإذا بإشارات سيئة تظهر.

– وكيف ذلك؟

– الفتى لن يصبح نقيباً، بل يعيش مشرداً في أحد الأسواق، ويعشق ابنة أحد البيع.

– يا للخبر السيئ. أرجو ألا تأخذي هذا على محمل الجد. فالنبوءات تكذب أحياناً.

سألت فجأة:

– كم عمر ابنتك؟

انتفض جسده وكأنه أفاق من حلم مزعج وأجاب وهو يبتسم بدهشة:

– ابنتي؟ ليس لديّ بنت.

– بل هي فتاة صغيرة كالقمر، أنظر، هل يوجد شيء في بطن زوجتك؟

هزّ رأسه باستبعاد قائلاً:

– لن يحدث ذلك بعد كل هذه الأعوام، ومع ذلك سأرى إن كانت زعفران قد وهبت نفسها لأحد المعلمين العرب.

ندت عن ثغرها الرصين ابتسامة كشفت عن جمال عتيق، ثم عادت إلى رصانتها وقالت:

– إذهب الآن، واحذر من آل شهوان.

وقبل أن يغادر سمع منها الجزء الخاص به في الحلم. لقد أفصحت

المرأة القحطانية بأن والد الفتاة يعيش في سوق، رجل ضخم مخلص يمشي وعكاز في يده، وسوف يسقط أرضاً مضرجاً بالدماء...

لم يكن هنالك أشخاص آخرون في سوق الربوع ضخام الأجساد ويحملون عكاكيز، وهكذا وجد نفسه الشخص الوحيد الضخم الذي يحمل عكازاً في سوق الربوع، وقرر أن يترك العكاز جانباً ويمضي من دونه. لكنه لم يستطع هجره سوى بضعة أيام، ثم وجد أصابعه ذات صباح تمتد إليه وتلتقطه بعفوية وإصرار. ولم تهدأ نفسه حتى استقر في راحته مرة ثانية. كان شكله غريباً من دونه، ويشعر على الدوام أن هناك ما ينقصه. وفي أحيان أخرى يتلفت ليراه، وظل يفكر أنه ليس الرجل المقصود، لسبب وجيه، وهو أنه وزعفران لم يعودا مؤهلين للإنجاب.

دخل بيته مطمئناً، ونظر إلى جسد امرأته المترهل الممتلئ، ولم يلحظ شيئاً مختلفاً في خلقتها. وفي يوم قريب فاجأها وهي ترتدي ملابسها الداخلية، ولاحظ بطنها المنتفخ وسرتها البارزة على نحو غريب، بدت مرتبكة تحاول إخفاء الكرة الضخمة التي تتوسطها، فصاح بصوت مجنون:

– أأنت حامل يا زعفران أم يخيل لي؟

سكتت قليلاً ثم أجابت بحزن:

– لا أريد أن أصدق أن هذا يحدث لي في مثل هذه السن. أنا خجلة وخائفة منك.

قال هامساً بيقين الشخص المحبط:

– إنها بنت مثل القمر، هذا ما بشرت به القحطانية.

– ماذا قلت؟

– لا شيء.

وخرج من أمامها متجهماً، وتمنى أن يرزق بذكر، ومن ثم يتحقق زيف الحلم، وخاب رجاؤه، وحين رأى الوليدة الجميلة البريئة قرب أمها تتحرك ككتكوت خرج للتو من بيضته، أوشك أن يصرخ في وجهها: "لن أسمح لك بالخروج عن الأعراف والآداب". غير أنه ثاب إلى رشده حين وجد نفسه في وضع مخجل غير متكافئ، وأعرض عنها قليلاً، ثم عاد إليها وحملها بين ذراعيه وهو مأخوذ بملامحها الصغيرة الفاتنة. ومع ذلك ظل خائفاً مما يخبئه المجهول، ويتجنب الغرباء، ويخشى على روحه من الكمائن والمكائد، وكلما سار في السوق أو في أي مكان آخر يظل يتلفت حوله بحذر، واستمر هاجس الخوف يلاحقه طويلاً، حتى صارت ابنته "هند" في سن يسمح لها بدخول المدرسة، وبدأ جسده يحمل التغيرات المصاحبة للشيخوخة، لقد غمر المشيب رأسه وروحه، وأحس بانحناء هيكل جسده الفارع، وأخذت عضلاته المشدودة تتهدل ببطء، عند هذه المرحلة ترك الحذر، وأهمل النبوءة، ولم يعد يخشى أن يصاب بأي مكروه.

***

كان يظن أنه نجا من الالتزامات المرهقة والخطيرة كالسير بعيداً خارج القبيلة، وها هو بعد عقد من الزمن يكلف بالذهاب ومنتصر وعدداً كبيراً من الأتباع إلى جبل أبو الحيد، ولم يصدق أذنيه وهو يسمع ناجية تقول

بنبرات واضحة:

– اذهب وحفيدي إلى جبل أبو الحيد، وسلمه إلى كف شقيقي ناصر.

أراد أن يعتذر عن القيام بهذه المهمة، لكن الكلمات لم تتمكن من مغادرة حنجرته، ووجد نفسه يرد بسؤال غبي:

– أيقومون بتأهيل هذا الفتى أيضاً؟

– نعم، لن أتخلى عن هذا العُرف.

– أليس من الأنفع لو يسجل في المدرسة؟

تلبد وجهها بالسواد وصرخت بغضب:

– هل أتخلى عن الأعراف في آخر المطاف؟ لا بد أن يلقى تدريباً شاقاً، أريد أن أرى على جسده كدمة أو علامة ما كالنقباء، ينبغي أن يتحول بياض جسده إلى سمرة شديدة.

– نعم، هذا أمر محتوم.

– هيا، اذهب والفتى الأبيض، لا أريد أن يعود ليطارد النساء، أو يعشق بنات البَيَع، أتمنى أن يكذب حلم المرأة.

خرج مندحراً منكمشاً، وهو يحسّ بخجل كبير من التلميح، ورغم ذلك قام بالمهمة على أحسن ما يجب، إذ صعدت بهم السيارات إلى قلب القلعة، ولاحظ التغيرات التي طرأت على شكلها، لم يعد على حاله السابق سوى سورها القديم العتيد التي لم تستطع أيدي البنَّائين أن تحطم أحجاره المتماسكة، بينما اختفت بوابة القلعة الخشبية، واستبدلت بأخرى أنيقة من الألمنيوم والزجاج المشجر المطعم بالنمنمات والألوان الصارخة. كما حلت مكان الأبنية القديمة عمارة عملاقة من

الآجر الأحمر، وكذلك اختفت كثير من الأشياء التي رآها في زيارته الماضية، حلبة تأهيل النقباء، البئر القديمة، الدهاليز والعقود الحجرية المتينة، مرابط الحيوانات، زرائب الماشية، مدافن الحبوب، وأشجار "العسق" الضخمة التي كانت تظلل باحة القلعة، أما ميدان الشوك الذي كان يحتضن أجساد المتدربين، فأمسى باحة عريضة مرصوفة بالرخام وأحجار الجرانيت السوداء، اصطفت عليها مقاعد حجرية وخشبية أنيقة باهتة الألوان.

استقبلهم النقيب ناصر بملبس عصري مهيب، واستمع إلى المبعوثين بلا حماس، وطبطب على رأس الفتى الصغير برفق، وخرجت أمه سارية لاستقباله، وانتزعته من أيديهم بلهفة، كما ينتزع المرء شيئاً عزيزاً يخشى ضياعه، ولم يُستضف الرجال ثلاثة أيام، لأنهم قدموا بالسيارات، ويستطيعون العودة في أية لحظة، وهذا ما حصل، إذ ذهبوا في حال سبيلهم، وظل أفراد القبيلة ينتظرون قدوم نقيبهم بصدور متحرقة.

بعد عامين جاء إلى قرية كازم وحظي باستقبال لائق، وحضرت جدته ناجية، ولم تحضر الجدة "جمرة" حفل التنصيب بسبب مرضها الشديد، ولما ترجل الفتى من السيارة. كان جسده مربرباً صحيحاً ولونه الناصع لم يتغير، وتغضن وجه جدته ووجوه رؤساء العشائر، ونظروا إلى بعضهم البعض بعجب. كانت هذه أولى العلامات غير السارة في شخص النقيب الجديد، لكن الاختبارات التي يقدمها الأهالي هي الفيصل في هذا الشأن، وعندما اختبره الأهالي، فشل في التدلي على شجرة لمدة خمس دقائق، وهرب من الأفعى، وأخفق في إصابة الهدف بالعيار الأول.

حلق الذهول والصمت والخجل فوق رؤوس الحاضرين، واستجوبته جدته ناجية بنت أبو الحيد حول نوع التدريب الذي تلقاه في القلعة، وفوجئت أنه لم يأخذ التأهيل القاسي الذي أخذه أبوه وجده، بل لم يتعلم شيئاً هاماً، وشعرت بالخزي والعار، وعاتبته على تهاونه في التدريب، وحثته على القيام بأي عمل يثير إعجاب رجال القبيلة، لكنه كان يحب الحداء، ويقضي أيامه راكضاً خلف رعاة الإبل والمواشي في النهار، وفي المساء يصدح بالأغاني الشعبية التي يمارسها الأخدام، وأتقن العزف على الشُبَّابة[1]، وظل يجري وراء المسافرين ليعلموه أشعارهم وحداءهم وتقاليدهم، وحين دخل في طيش المراهقة وجنونها، هرب من الدار الكبير في آخر المطاف، وعاش في سوق الربوع حيث توجد فئتا البَيَع والأخدام، واستعانت جدته "ناجية" بالرجال، فطاردوه ملياً، لكنه كان يفر إلى وسط تلك الملاجئ القذرة التي لا يجرؤون على دخولها، فيعودون إلى كازم خائبين، وهكذا ظل منتصر يتقوت في الأكواخ وأحياناً في منزل وكيل أعمال عائلته، وهناك تعثر بابنته الوحيدة هند، وشجعته على الدراسة، غير أنه كان يريد العيش طليقاً مغرداً كالطائر في الفلاة، ومع ذلك صار يرتاد المدرسة لأنه يستطيع رؤيتها هناك، واجتاز بصعوبة صفوفها المتعاقبة، وشاع الخبر بأنه يعشق بنت الجزار، ويغزو أكواخ البيع والأخدام من أجل المتعة والمبيت. لذا استدعت ناجية مأمون إليها، فأقبل منكس الرأس منكسر النظرات، ووقف أمامها مرتعش الساقين كالمذنب، وخاطبته ببرود مخيف:

---

١ آلة موسيقية تنفخ بالفم وتصدر عنها أنغام الحِدَاء الحزينة.

– هل أسأت إليك يوماً؟

أجاب بانكسار:

– لا، حاشاك من أي إساءة، وسأظل خادمك الأمين.

– أرجو ألا تدع ابنتك تقترب من حفيدي الطائش، أنت تفهم ما أعنيه، هذا مخالف للأعراف، وقد حذرتك قبل أعوام من هذا العشق غير السويّ.

– نعم، نحن من فئة البَيَع، ويجب على هذين الطائشين أن يدركا ذلك.

– افعل ذلك من أجلي.

– أنا خادمك.

ومضى منكسراً إلى سوق الربوع. كان يحزّ في نفسه أن يظل آل طعيم يذكرونه بوضاعة فئته، لهذا السبب دلف محتداً إلى غرفة ابنته، وهي منهمكة في قراءة دروسها، وأخذ يفكر كيف يبدأ الكلام، أخيراً انبرى قائلاً:

– أنت تعرفين أن منتصراً كان سيصبح نقيب قبيلة آل طعيم؟

ردّت عليه بامتعاض:

– ماذا هناك يا أبي؟

– لقد استدعتني ناجية بنت أبو الحيد، لأنها ترفض أن يقال إن حفيدها مهتم بابنة جزار وضيع.

– وهل أنت كذلك؟

اعتدل الأب في جلسته، وقطب حاجبيه بإنكار، وأجاب:

– نحن وجهاء لدى أنفسنا، وسنظل كذلك، لا يهم ما يقوله الناس

عن فئة البَيَع، إنهم يحترمونني كثيراً كإنسان طيب، لكني على رغم أنفي أنتمي لفئة البيع. لا أدري لماذا تنتهك الأعراف الحسنة، وتبقى الأعراف السيئة دون مساس.

– لِمَ تظل متشبثاً بهذه العائلة؟ لعلهم يظنون أن بوسعهم إذلالنا في أي وقت يحلو لهم ذلك. ألا ترى أننا من دونهم يمكن أن نعيش بهناء؟

– لقد عشت طويلاً في خدمتهم، وقد تغلغلت أفضالهم في أجسادنا، وكذلك أتت مشاكلنا وأحزاننا معهم، إننا على ما يبدو مرتبطون وإياهم بخيوط لا نراها، ولا نستطيع أن نقطعها دون سبب بارز، لم يسبق أن عاتبتني ناجية خلا هذه المرة.

– ماذا تريد مني أن أفعل؟

– ابتعدي عن هذا الفتى المجنون، لأنه سيجلب لنا المتاعب.

أحسّ بالألم الذي اعتصر جسد ابنته، رأى وجهها يكاد يشتعل، ولم تجد ما ترد به عليه. لقد كان محقاً في تحذيره، لا تدرك بأنه على علم باللقاءات البريئة التي كانت تجري في الخفاء عندما تغمض الجفون. كان منتصر يأتي إلى خلف نافذتها ويتناجيان كالسجين والزائر، وحدث ذات مرة أن جافى والدها النوم، فخرج متسللاً لكي لا يوقظ شكوك زعفران، وفتح باب المنزل بحذر، وجعل يستقبل الهواء البارد ويفكر في أمور شتى، وفجأة سمع همساً صادراً من مكان قريب داخل الفناء، وعندما دار حول المنزل شاهد شكل إنسان واقفاً أمام نافذة غرفة ابنته. كان قريباً جداً من موضعه، بحيث استطاع أن يسمع الحديث.

– إنها ترغب في أن أكون نقيباً وأن أنتقم من قاتل جدي، وهذا يفوق قدرتي، ومهما يفعلون لن أقوم بذلك الدور.

– لكنك تعيش كالمتشرد، تنام في أكواخ الأرامل، وتطعمك النساء الجائعات للحب.

– أنت البنت التي أحببتها، وسأنتظر حتى تموت جدتي ونتزوج.

– لا، لا، ستزوجك القبيلة من امرأة وجيهة، أما أنا فبنت جزار وضيع.

– سنهرب لنتزوج في المدينة، يقال إنها تبتلع عدداً كبيراً من الناس. ولن يلاحظ أحد من نكون.

أراد مأمون أن ينقضّ عليه، لكنه سمع ابنته تحثه على الرحيل:

– اذهب لتنام وتقوم نشيطاً في الصباح، ونلتقي في المدرسة، تصبح على خير يا حبيبي.

سمع أصداء قُبلة فرقعت في الهواء لا يدرك مصدرها، من الداخل أو الخارج، وعلى إثرها انطبق سحّاب النافذة، وهمد كل شيء، وانسلَّ الفتى في الظلام كقط، ونط من فوق السور. كان والدها دائخاً لهول الخيانة التي تحدث، ويقول في سره متهكماً: "تقول له بلا حياء يا حبيبي! ومن النادر أن تنادي زعفران باسمي مجرداً "يا مأمون"، آه لو تسمع ناجية بنت أبو الحيد هذا الكلام"، وأحس بالندم لأنه لم ينقضّ على الفتى ويخنقه بيديه الثقيلتين، ولكن الظلام كان يستره، وعاد الأب أدراجه شارداً وهو يقول هامساً بسخط: "يا للعجب، لم تعد ابنتي طفلة كما كنت أظن".

كانت في الصف الثاني من المرحلة المتوسطة، ومستواها التعليمي جيد، ويظن أنها لا تستحق هذا الفتى المشرد وإن كان من عائلة رفيعة الشأن. وكلما أراد أن يوبخها أتى ما يقاطعه ويشوش فكره، حتى غاص

الموضوع في قعر التغاضي، وقد غض الطرف، وأصبح لا يخرج في وقت متأخر من الليل لاستنشاق الهواء المنعش، وكأنه يبارك ذلك الحب ما دام لا يطفو على السطح.

لكن في مساء اليوم الذي عاتبته ناجية وتحدث فيه إلى ابنته، ذهب يبحث عن الفتى منتصر في أكواخ السوق الخلفية، ووجده يلهو ومجموعة من فئة الأخدام. وتوقف الرقص واللهو احتراماً وخوفاً من الزائر، حيث صار يعامل كما لو كان كبير فئة البيع، وهي فئة أعلى شأناً من فئة الأخدام، وقد أحسّ مأمون بوقع وجوده المهيب في الأكواخ، فشعر بالغرور الشديد، وأراد ألا يفوت الفرصة على نفسه، لذا أشار برأس سبابته إلى الفتى العازف، وسرعان ما دفعوا الفتى منتصر إليه وكأنه فرد من فئتهم، ولما مثل أمامه طلب منه على مرأى ومسمع من سكان الأكواخ ألا يقترب من ابنته لما في ذلك من نفع للجميع. ثم انصرف غاضباً، وأحاط منزله بالأشواك وبقطع صغيرة من الزجاج المكسور. وفي الصباح كانت آثار الدماء على الأرض، ممتدة بشكلٍ متعرجٍ من جوار النافذة التي يتناجيان عندها إلى سور الفناء. رأى لطخاتٍ من الدم على أحجار السور، وأحس بالرهبة، ربما تكون ابنته قد رأت فتاها ينزف متألماً، ثم يفارق المكان مترنحاً، بينما لا تستطيع أن تفعل شيئاً لمساعدته.

وفي كل ليلة في نفس ميقات مناجاة العاشقين، كان يسمع العزف والحداء الحزين قادماً من ناحية الهضبة القريبة ليخترق أجواء السوق بعذوبة تمزق القلوب، ويشعر أحياناً بالشفقة وأحياناً بالغضب الجارف، ولا يدري ما يفعل، وكلما مرّ عفو الصدفة من جانب غرفة

ابنته يسمع التنهدات والآهات وأحياناً النشيج، فيوشك أن يقرع الباب ليسري عنها، لكنه يخشى أن يطفح بها الكيل، وتصيح حتى تدرك الأم ما يحدث في الخفاء، ومن ثم تتفاقم الأوضاع سوءاً. وتمر الأيام وتزداد وتيرة العزف الحزين، ويستمر الحب والتنهدات والتعليم، وعرف الناس بأن العاشقين في مأزق شديد، وهذا أرضى غرور جدته قليلاً.

وظل مأمون يدخل كل شهر ليتقاضى رسوم العقارات، ويفعل ما كان يفعله في الماضي، حتى اتفق والمؤجرين على تحويل الأموال إلى حساب العائلة في فرع بنك الإنشاء والتعمير في المحافظة، وعند وجود أي تأخير في تحويل الأموال كان يتواصل مع العملاء عبر الهاتف، إذ دخلت هذه الخدمة إلى قائمة مهاراته. لم يعد الشخص الوحيد الذي يدخل المدينة، فقد انضم آخرون بدافع الأعمال، ووجدوا أنفسهم يتعمقون في أوساط المدن، ثم يعودون بلكناتها وعاداتها الصغيرة التي لا تخدش الأعراف أو تؤثر على حياتهم بشكل مطلق. الفقيه النزق بات يرى الأطفال يتسربون من بين أصابعه الهرمة صوب المدرسة الوحيدة في القبيلة، بينما يزداد عدد القرّاء، وأضحى يتحسر على مجد الأيام الغابرة، ويردد على المسامع أن الزمان يتقهقر نحو الهلاك ولا يأتي دائماً بالأحسن.

أول هؤلاء المتعلمين الجدد بات شاباً مشهوراً بذكائه، وحصد المراكز الأولى على مستوى المحافظة، وهو جابر مأمون، وفي الصف الأخير من المرحلة الثانوية حصل على المركز الرابع على مستوى الجمهورية، وهذا الأمر ترك صدى واسعاً في المديرية، وإن كان غريباً وغير مفهوم. ورغم ابتهاجهم بأي انجاز يحسب للقبيلة، إلا

أنهم يفضلون ألا يحسب هذا المجد لأحد البَيَع، وقد غاب جابر عن الأنظار بضعة أسابيع، ثم آب إلى سوق الربوع وهو يرتدي بذلة زيتية وطاقية عسكرية، ويحمل في يده اليمنى كرباجاً عاجياً بني اللون وفي اليد اليسرى شنطة سوداء أنيقة. وكان هذا الزي الغريب يخلب أذهانهم، ويجعلهم يحملون فكرة حسنة عن مستقبله، وسمعوا بأنه سيصبح ضابطاً في الشرطة. بينما أمسى والده يجول في سوق الربوع بحلة جديدة شاهراً ذلك العكاز القديم في الهواء. ورغم رغبة المتسوقين في ردعه عن إشهاره في وجوههم، إلا أن روح فكاهته وضخامته وحاله المتيسر أضفت عليه مهابة كبيرة، وجعلت الأمر يبدو مألوفاً وخارجاً عن سيطرتهم. وبعد مرور أربعة أعوام تخرج جابر من كلية الشرطة، وحصل على المركز الأول في دفعته، ومُنِح وساماً ونيشاناً على صدره قلده إياه وزير الداخلية، وذيع اسمه في كافة وسائل الإعلام المحلية.

لقد رآه الناس يتلقى هذا التكريم على شاشة التلفاز المحلي، أما أهالي مديرية العزلة فلم يحظوا بهذا الشرف لعدم وجود الطاقة الكهربائية في مناطقهم، والوحيد الذي تابع طقوس الاحتفال هو والده، لأنه كان وأهالي الطلاب والضيوف على منصة العروض بالعاصمة. هناك شاهد العرض العسكري المهيب، ورأى كيف قام ولده جابر بتسليم العلم لزميله من الدفعة التالية، على إيقاع الطبول والموسيقى العسكرية، فاقشعر بدنه وضجّ بالبكاء، وشاهده مئات الآلاف في منازلهم على الشاشة الصغيرة. كان مقدم البرنامج يتحدث عن ذلك الرجل الضخم الذي يبكي فرحاً وهو يرى نجله يتقدم الطوابير ويقودها في حفل التخرج، وسيظل يتذكر تلك الأفعال ويفخر بها طوال عمره.

الفصل السابع

لم تمر أسابيع حتى تم تعيين الملازم جابر مأمون، حسب طلبه، مديراً لأمن مديرية "العُزلة" التي ينتمي إليها. أتى متحمساً يطمح إلى تغيير واقعها المرير، وبات والده يشهر العكاز في وجوه رجال القبائل أكثر من السابق، وصار هناك من يتودد إليه، ويناديه بالكنية "يا أبو جابر"، وبات جنود أمن المديرية يدخلون كازم بين حين وآخر، ما أثار أفراد القبيلة، وجعلوا يتساءلون: كيف حصل ابن جزار على منصب مرموق في المديرية؟ واكتشفوا أن الحكومة تنتهك الأعراف أو لا تفقه شيئاً عنها. وبدأ مأمون يقلل زياراته إلى كازم، ولكنه ظل يقدم نفس الخدمات، وأدركت ناجية أنها باتت أقل شأناً بعدما خسرت عائلتها مركز النقيب، وقالت وسط حشد من الناس هذا المثل: "إذا تساقطت أنياب الذئاب باتت الخراف تناوشها بالقرون". وتعني بهذا القول أولئك الرجال الذين حولوا نظرهم عنها وغيروا أسماءهم كما يقال، وباتوا كأنهم لا يعرفونها، حتى النقيب ناجي صار غير مبالٍ بها، وراح يتعامل معها بغطرسة شديدة كأنما لم يكن في يوم من الأيام يشتهيها ويلهث عند قدميها. لقد أضحى يتمتع بمنصبه قرير العين دون أن يخشى منافسةً،

وظلت ناجية محبطة منهارة لا تخرج إلا في زيارات متقطعة للمقبرة، لتلقي التحيّة على جثمان زوجها، ثم تعود إلى الدار الكبيرة التي ما زال شكلها يبعث على التهيب والإجلال.

لكن ما إن ماتت الجدة "جمرة" حتى أصبحت ناجية خليفتها حسب وصية الفقيدة، وهذا الاختيار لم يأت اعتباطاً، بل جاء عقب تمحيص دقيق في أرجاء القبيلة، واتفق الجميع أنه لا يوجد أحدٌ يفهم في الأعراف مثل ناجية، وهذا أعاد إليها بعض النفوذ، بل بدأت تفكر، رغم تشددها في تنفيذ الأعراف، في التحايل لاستعادة منصب النقيب إلى عائلتها، وعقدت في ذلك صفقة مع رؤساء العشائر دون علم النقيب ناجي، وجعلت تطارد حفيدها منتصر ثانية، لتطلب منه أن يقوم بأيّ عمل يثير الإعجاب، حتى لو كان أداء رقصة البَرَع بإتقان في باحة قرية كازم، أو إصابة هدف قريب بأول عيار ناري، لكن الفتى رفض العودة إلى الدار الكبير، واستمر يعيش متخفياً وسط الأكواخ القذرة، وإذا شعر بقدوم رجال القبيلة يفرّ كأرنب سريع ليختبئ في أحد الشعاب، ولا يعود حتى يأتي إليه أحد رفاقه ليخبره بخلو المكان من الخطر.

***

كان الملازم جابر يقضي عطلة الأسبوع في سوق الربوع، يعود من المديرية ظهيرة الأربعاء بزيه الرسمي، ونجمتان بيضاوان تتربعان على كتفيه تنُمَّان عن الرتبة العسكرية، ويلوح جوار السائق في مقدمة سيارة دفع رباعي مكشوفة، وخلفه أربعة من الجنود بأزيائهم الصفراء المبقعة

بدوائر سوداء، ويودعونه في بيته ثم يعودون لأخذه في وقت مبكر من صباح يوم السبت. كان أبوه يتربع في استراحة زين المقهوي، ويشير إلى سيارة الشرطة مخاطباً الذين حوله قائلاً بتباه: "هذا ابني جابر، آه كم أضناني تعليم هذا الشاب حتى صار بهذا الزيّ".

بعد شهر حصل الملازم جابر على إذن بتجنيد خمسين فرداً من المديرية، وهؤلاء سيحصلون على راتب شهري بطبيعة الحال. في البداية ارتعب الأهالي من هذه الفكرة، ثم راقهم الحصول على امتيازات التجنيد، فتقدم عدد كبير، ورشح مأمون بعض الأسماء، ورأى الفتى منتصر في المخفر يروم التجنيد، وكاد قلبه أن يسقط فزعاً، وحاول بشتى الذرائع أن يصرفه عن بغيته، لكن الفتى تشبث بطلب انضمامه إلى سرية الشرطة المحلية، وكتب اسمه على استمارة الترشح بخط ركيك، وجلب الصور الشخصية وبطاقة الهوية. ولا يدري مأمون كيف تسنى له إنجاز ذلك بسرعة كبيرة، وكيف سدد رسوم المعاملة ونفقات الذهاب والإياب إلى المحافظة! وانتبه إلى القول المأثور بأن الله يقف أحياناً في صف المجانين، وعثر على ملف الفتى في لجنة التجنيد القادمة من المحافظة، ورأى الشرطي يفحص الملف بعينيه الخبيرتين، ثم يرميه فوق رزمة الملفات التي أجازتها اللجنة، ولا يبقى إلا المثول أمام اللجنة الطبية للتأكد من عدم وجود عاهة في بدنه، ورغم ذلك صمم أن يعيق تجنيد الفتى مهما كلفه الثمن، ودخل إلى مكتب مدير الأمن ليخاطبه بهذا الشأن، لكنه وجد المكان مكتظاً بأعضاء لجنة التجنيد القادمين من العاصمة، وأقدمهم يحمل رتبة عقيد، وهؤلاء كانوا ضباطاً ميدانيين حصلوا على ترقياتهم حسب سنوات الخدمة، وليس عن طريق التأهيل

في الكُليات العسكرية، وكانوا يغارون من مدراء الأمن المؤهلين الأقل رتبة منهم والأصغر سناً والأعلى في المنصب، ولا يجدون غضاضة في التبليغ عن أي حادث صغير أو كبير يحدث أمام أعينهم، وهذا ما لم يعلمه مأمون، الذي أحس أن وجه ابنه ضابط الأمن لم ينفرج كما يحدث حين يقابله كل مرّة، ولم ينهض احتراماً كما كان يفعل، بل ظل جالساً في كرسيه العريض، يصغي إليه على مضض، وهو يقول بنبرات مرتعشة:

– أرجو ألّا يتمّ قبول طلب الفتى منتصر حفيد ناجية بنت أبو الحيد.

أجاب المدير دون أن يرفع عينيه عن أوراق منشورة أمامه:

– لماذا؟

– لعلك لا تعلم أنّ جدته حكيمة الأعراف ناجية بنت أبو الحيد وأفراد القبيلة يريدون أن يعود لمنصب النقيب.

– وما المشكلة في ذلك؟

– ألا تفهم؟ ما زالوا يحسبوننا أقل شأناً، ولن يسرهم أن يعمل الفتى وابن جزار.

لم يتوقع جابر أن يتكلم أبوه على ذلك النحو المهين أمام أعضاء لجنة التجنيد، وردّ عليه محاولاً حثه على الانتباه إلى قسوة عباراته البريئة:

– عن أي جزار تتحدث يا رجل؟ لا شأن لي بذلك.

– لا تكن قاسياً على والدك، وحدج أعضاء اللجنة متبسماً. ولدي جابر يتجاهلني في مكتبه، ويخجل حين أتحدث عن مهنتي.

صاح جابر على الشرطي الواقف بصرامة عند باب الغرفة:

– سلطان، رافق هذا الرجل إلى الخارج.

وانخرط وأعضاء اللجنة في حديث جانبي كأن شيئاً لم يكن. شعر

الأب أنّ الأرض تميد تحت قدميه حين سحبه الجندي من ذراعه، فقال للمدير وكأنه يتلافى الخطأ:

– أنا خادمك.

أحسّ أنّ ولده قد تغير بعد تبوئه هذا المنصب، إنه فخور به ويحبه كثيراً، ويريد أن يسدي إليه النصح كما يفعل مع أي شخص آخر، وعاد إلى السوق محتداً وقد قرر أن يعيق منتصر عن التجنيد مهماً كلفه الثمن. كانت ابنته هند وحيدة في غرفتها، والأم في بيت إحدى الجارات، لكن الفتاة ما زالت حانقة وجراح قلبها لم تبرأ بعد، فتسلل إلى جوارها بخفة ثعلب، وربت على ظهرها قائلاً بمكر:

– ألا تعلمين إن صاحبك يريد أن يلتحق بالتجنيد؟

أجابت بدهشة:

– صاحبي؟

– أقصد منتصر، إنه يريد أن يلتحق بأمن المديرية.

– منذ متى أصبحت مهتماً بأمره؟

– صحيح أنه عربيد ومجنون، لكنه شاب طيب، وليس هناك من سبب يجعله يفارق السوق ويهجر المدرسة.

قالت بارتباك:

– هذا غريب.

قال موضحاً بلكنة شخص سخي:

– لا أمانع في أن تلتقيا تحت رقابتي.

ردت بعناد:

– لا، لا أودّ ذلك.

– لا رقابة، اتفقنا، ولكن لا أريد أن تسمع ذرّات الرمل وقع خُطاكما، هناك غرفة سرية في المنزل وباب خفيّ، وعليكما استذكار الدروس وحسب، أنا أثق بكِ يا ابنتي.

وامتزج الامتنان والخجل في ملامحها، حتى لا يكاد يُعرف أيهما أوضح. ولاذت بالصمت والخجل، وكأن الاتفاق قد أبرم للتو، وبدأ أبوها يشعر بقرصات الغيرة في قلبه، وأحس للوهلة الأولى أنه الخاسر في هذه الصفقة، ولا يظن أنه سيسمح للعاشقين أن يلتقيا. كيف وقع في هذا الفخ؟ وعضّ أنامله حتى أدماها، لقد بات هذا الفتى منذ أن عرفه شوكة في حلقه. نفخ الهواء المحبوس داخل صدره في زفرة واحدة قوية، وهمس في سره: "كل هذا يحدث لأن جابر لا يود أن يقبل النصح". وبعد يوم واحد رأى الفتى منتصر صدفة يدخل السوق متأبطاً ملف التجنيد. كان ابتهاجه واضحاً، وحين رأى الرجل الضخم تبسّم بخجل، لأن والد حبيبته رآه يتجه نحو أكواخ الأخدام. ونظر مأمون إلى تلك الناحية باحتقار شديد كما ينظر رجال القبائل إلى مساكن البَيَع. ولم يشأ الاعتراف أن جمال الفتى يخلق ارتباكاً شديداً لدى معظم النساء والرجال في سوق الربوع، وأحياناً لا يلوم ابنته حين يتعلق قلبها به، واستغرب كيف استطاعت إبلاغه عن الاتفاق الجديد خلال يوم واحد!

لم يعلم أنها استعانت بالساعي "عنتر البرق"، وأنه تقاضى قرطها الذهبي الذي انتزعته بشجاعة من أذنها، فطار إلى المديرية، وبحث في النزل الرخيصة، حتى وجد الفتى وسلّمه الرسالة بيده، ولم يكن ليوافق على هذه المهمة السرية لولا الأجر الكبير الذي عُرِضَ عليه. لأنه ببساطة يعمل ساعياً للقبيلة وليس رسولاً بين العشاق.

الفصل الثامن

انتشر خبر سقوط سيارة النقيب ناجي أسفل منحدر مخيف، وتناثر أجساد راكبيها في عرض المنحدر، وكاد الناس أن ينسبوا الحادث إلى القضاء والقدر، لكن أحدهم اكتشف ثقباً دامياً في رأس السائق. وجاء عنتر البرق من المديرية عند وقوع الحادث، وتتبع الآثار ووجد خطوات أقدام تتجه نحو حدود قبيلة آل شهوان. وأوشك رجال آل طعيم أن يصعدوا إلى الجبال، لكن حكيمة الأعراف بعثت الدّاعي[1] القبلي إلى رؤساء عشائر آل شهوان، وانتظرت ورجال قبيلتها الردّ بفارغ الصبر.

بعد عدة أيام اقتُرفت جريمة أخرى في سوق المديرية، على بعد خمسمائة متر من إدارة الأمن، حيث أقدمت مجموعة من المسلحين على اغتيال رجل خمسيني أمام حانوت أحد التجار، ثم جاء المسلحون، حسب الشهود، وداسوا على الجثة، ونثروا الرصاص هنا وهناك في تحدٍ صارخ للسلطات والمتسوقين. وهي نفس الطريقة التي اغتيل

١ الداعي القبلي هو رسالة احتجاج واحتكام إلى الأعراف تبعث من قبيلة أو فرد إلى قبيلة أو عشيرة أخرى، ويأتي هذا لرغبة الطرف المعتدى عليه للحوار والخروج بحلٍ يرضي الطرفين.

فيها النقيب أرحب، وهذا بعث الرعب في أرواح الأهالي. ولاحظ الملازم الشاب جابر مأمون عدم توفر سيارات الإسعاف، فاضطر أن ينقل الجريح إلى المركز الطبي على سيارة مكشوفة تابعة للشرطة، ليكتشف الطبيب الوحيد في المركز أن الرجل قد فارق الحياة.

وأقبل مدير الأمن ونخبة من رجال الشرطة، وأحاطوا المكان بالشريط الأصفر، وجمعوا الآثار المنتشرة على مسرح الجريمة، واستنطقوا عدداً من المتسوقين الذين كانوا في المكان.

بدأ الملازم جابر يباشر القواعد البسيطة التي تعلمها للكشف عن ألغاز الأعمال الإجرامية، ورغم تواضع الإمكانات التي يملكها قسم التحقيق التابع لسلطته، إلا أن مرتكبي الجريمة أيضاً كانوا غير ماهرين في إخفاء خيوط جريمتهم، أو أنهم، وهو الأرجح، كانوا غير مبالين برجال الشرطة، وبالنزر القليل من سطوة الحكومة التي يمثلونها. بدا مدير الأمن منزعجاً، لأن تلك الجريمة كانت تهدد حياته المهنية الناشئة. وتمّ التعرف إلى هوية الرجل الصريع بواسطة أحد الباعة، إنه عاطف شرهان، أحد وجهاء قبيلة آل شهوان. وكان رجلاً نبيلاً مهيباً في عشيرته. وروى الشهود أنهم رأوا شخصاً مشوه الوجه ذا كدمة على رأسه واقفاً بتحدٍ فوق الجثة.

ووردت تفاصيل أخرى على علاقة بالحادث من آل شهوان، إذ أزمع النقيب حسّون أن يشن حرباً على آل طعيم. ودعا العشائر إلى اجتماع كبير في ساحة قرية حازم، وهناك رفض عاطف شرهان دعوة الحرب، وعرض على المجتمعين رسالة "الداعي" المبعوث من آل طعيم. وأشار إلى النقيب حسّون بالسّبابة وأفصح أمام المجتمعين بأنه ليس فخوراً

وعشيرته أن يقاتلوا في صف نقيب يقاتل في الأسواق وينصب الكمائن في الطرقات. وأيّد رجال العشائر أقواله، وغادروا ساحة قرية حازم، ولم يعد يقف فيها سوى أهالي القرية. وهؤلاء صاروا في حيرة من أمرهم، وأقسم النقيب حسّون أمام رجال عشيرته أن ينتقم من كل شخص غادر الساحة. وبدأ بأول المعارضين وهو عاطف شرهان، لكن العشائر تداعت، إلى اجتماع كبير خارج قرية حازم، وهناك قرروا خلع النقيب حسّون عن رأس القبيلة، وبعثوا النداء إلى كل القبائل المجاورة أنه لم يعد يمثلهم، وأنهم لا يساندونه ولا يقفون إلى جانبه، وعلى كل صاحب ثأر أن يأخذ بثأره. وطلبت ناجية من رجال قبيلتها سد منافذ الهرب في وجهه وقتله، وأقفل المحاربون حدود قبيلتهم ووقفوا له بالمرصاد، بينما قامت عشائر آل شهوان بمطاردته، فأضحى وأعوانه يفرون من جبل إلى آخر.

وبعث مدير الأمن الملازم جابر مأمون جنود الشرطة إلى الجبال للقبض على النقيب حسون، ويقدر عددهم بخمسين جندياً مزودين بأسلحتهم الشخصية، وبخط ناري يضم تسعين رصاصة لكل فرد. ساروا إلى الجبل الذي يختبئ فيه الرجل المطلوب، وهم يجهلون تماماً جغرافيا المكان، وهناك تعرضوا لإطلاق النار، وعادوا من حيث أتوا وقد فشلوا وسقط منهم جرحى. وأرسل مدير الأمن طلب "النجدة" إلى أمن المحافظة، لكن الرسالة تمزقت بفعل الانتظار، ولا يدري أحد كم شخصاً تناولها ووضع توقيعه عليها، ولما وصلت إلى كف المحافظ بعث برسالة استيضاح عن فحوى الرسالة الطارئة الخاصة بمديرية العزلة. واضطر مدير الأمن إلى إرسال خطاب آخر عاجل

مختوم بالختم الأحمر، وانتظر النتائج.

كان والده مأمون في المديرية، يحاول الدخول إلى المخفر، لكنه اصطدم بعدم رغبة ولده جابر في مقابلة أقاربه أثناء العمل. وقد برر ذلك بأن القانون العسكري يمنع هذه المقابلات، غير أن الأب كان يجد متعة شديدة في النظر إلى ولده وهو يمارس مهامه في المخفر، وأينما ذهب يظل يتخيل هذا العمل الخارق المهيب، ويزهو على الدوام، لأن ولده يدير المخفر وينصاع الجنود لأوامره، بل ويملك سلطة ضبط المجرمين والمخالفين، كما يقوم بأعمال مدير المديرية المتغيب الذي لا يعلم معظم الأهالي اسمه، وهذا يعني أنه يقوم بكافة الأعمال الإدارية والميدانية، وهذا جعل المخفر مزدحماً بأصحاب الشكاوى والمعاملات، وكلهم يطلبون توقيعه على أوراقهم، ومن أجل ذلك يتلقى كثير من التقدير والإطراء والمجاملات والهدايا، وهو أيضاً كونه والده يحظى باحترام كبير، ومع ذلك لا تسلم العلاقة بينهما من المنغصات.

لقد تعب وهو يقدم له النصح في ما ينبغي أن يقوم به، حتى اضطر الملازم جابر أن يقضي الإجازة في مكان آخر، وها هو هذه المرة يأتي من سوق الربوع ليقترح عليه أن يدعو وجهاء آل شهوان للتعاون معه في القبض على النقيب حسون.

الفرصة الآن مؤاتية للنيل من الرجل، لكن الجنود الواقفين على باب المخفر سدوا الطريق في وجهه مرة أخرى ومنعوه من الدخول رغم معرفتهم بشخصه. لقد اختلقوا ذريعة معقولة وهي عدم استطاعة المدير مقابلته، ولم تنفع التوسلات والحيل في زحزحتهم عن موقفهم، وانتابه

حزن شديد وهو يرى الآخرين يعبرون إلى المخفر دون عائق، ربما يظن ولده أنه يريد شيئاً لنفسه، ولذلك السبب لا يريد أن يقابله. جال هذا في ذهنه، وأحدث في أعماقه حزناً وألماً شديدين، ثم انسحب ببطء، وقادته قدماه إلى حيث لا يدري، ومرّ على حمامات عامة، فاغتسل كما لو كان عريساً، ثم حلق ذقنه وخفف شاربيه ولحيته الكثة، ونظر إلى نفسه مرة أخيرة على الجانب السليم من المرآة المشروخة المعلقة على الحائط الخارجي لدورة المياه.

كان منتعشاً بعد الحمام، فمضى يتسكع في المدينة الصغيرة، واعتزم أن يبعث إلى ولده رسالة مؤلمة لن ينساها طالما هو حي، لقد صار كبيراً في السن وفائضاً عن الحاجة، وأضحى جابر يتبرم من مهنته الوضيعة، ويراه عبئاً على مستقبله المهني. هكذا فكر مأمون، وتذكر حلم المرأة القحطانية. كيف نسي ذلك؟ لم يتحقق شيء مما قالت. أمسى في عوز شديد لنهايته، لذا لن ينتظر موته على أيدي الرجال المسلحين، سيموت بمحض إرادته. هناك بئر عميقة خلف المخفر يشرب منها الجنود، سوف يلقي نفسه فيها، وينتهي الأمر الذي يخشاه جابر. لكن لا يدري إن كان يملك الجرأة على تقرير مصيره. لا شك في أنّ هناك من سيسعى إلى إنقاذه، ولو تم ذلك سوف يجد نفسه في وضع مهين قرب مخفر الشرطة، وهو لا يريد أن يقابل ولده قائد المخفر إلا ميتاً.

ولتجنب ذلك حشا صدره وبطنه بالأحجار الصغيرة، وشدّ الحزام على وسطه بقوة، سيهوي في قاع البئر، ولن يتمكن المنقذون من انتشاله إلا بعد فوات الأوان. وظل يمشي نحو البئر، وفي شارع خلفي قريب إلى المخفر تمكن من قراءة لوحة إعلان معدنية على بناء

في الشارع، وأدرك أنه يقف بلا هدف أمام المركز الصحي، وغمره التشاؤم، فانحرف عن مساره ليغادر المكان، وقبل أن يبلغ الانعطافة الأخيرة رمق عرضاً ذلك البناء الأبيض.

كانت هناك سيارة بيضاء تسير بسرعة عالية وبوقها يطلق أصواته المزعجة. وشد انتباهه مظهر السيارة المألوف، احتاج إلى لحظات وجيزة ليتذكر أين رآها، عندها ارتد على أعقابه بفضول نحو المركز الصحي، وسأل الحارس عن السيارة، فأنبأه عن رجال مسلحين يحملون رجلاً جريحاً مشوّه الوجه ذا كدمة على رأسه، وأذن له بالدخول، فاقترب من غرفة الفحص بحذر حتى وقف على الباب جامداً، ورأى الرجل الجريح بوضوح، ولمحه الأخير لأول مرة منذ زمن بعيد.

هاله مقدار التشوّه الذي لحق بوجه النقيب حسون بفعل رصاصة هزّام، لقد اختفت أجزاء من فكّه وعارضه الأيسر، وحلّت مكانها فجوة رهيبة بحيث تبرز بقع محترقة باهتة من لثته وحنكه. انصرف مأمون متقززاً من شكله الرهيب، واتّجه نحو المخفر. كان يمشي بتخبط بفعل ثقل الحجارة، بدا منتفخاً كضفدع ضخم، فاعترض الجنود طريقه مرة أخرى، فمضى يهتف بأعلى صوته مشيراً إلى خلفه:

– أرجوكم، دعوني أدخل، إنهم يتعقبوني.

لم يصدق الجنود حديثه وظنوها حيلة يريد من خلالها الوصول إلى مدير الأمن، لكن السيارة البيضاء ظهرت بغتة، وبرزت أفواه البنادق من نوافذها، ووجد أن مقتله بات وشيكاً، وهو كان في طريقه ليلقي نفسه في البئر، إذن لا يهم الطريقة التي سيموت فيها، خطر هذا في ذهنه

قبل ذلك، ولا يدرك سبب فراره وتشبثه بالحياة، والآن ها هم أمامه كالمجانين يبحثون عنه وحده، لذلك ابتعد عن الجنود بضع خطوات حانقاً، ووقف بمواجهة المسلحين، رافعاً يديه في الهواء مشيراً إلى نفسه، أبرز جسده بشكل واضح، وهو يصيح بصوت عالٍ:

– هيا، اقتلوني حتى يهنأ ولدي جابر بحياته.

فأمطروه بالرصاص في صدره وبطنه، ورد الجنود عليهم، وطاردوهم في الأحياء المجاورة، وقبضوا عليهم.

***

كان مدير الأمن جابر مأمون يجلس منفرداً يتصفح رسالة المحافظ التي تأخرت كثيراً، ويأمل أن يجد فيها بارقة أمل تنقذه من حيرته. نعم، لقد كان يظنها طوق النجاة الأخير، وظن أن فيها أنباء عن حملة عسكرية قادمة من المحافظة، لكن الرسالة كانت لاذعة تفيض بالعتب والانتقاد القاسيين، وقرأ أشياء كثيرة من النصائح التي كان يسمعها من والده. ويقول المحافظ في مقطع من خطابه وهو يحث الملازم الشاب على استخدام عقله: "ادرس أفكار المجرمين وعاداتهم والأماكن التي يترددون إليها، اعمل خارطة تفصيلية للعادات والأعراف ولا تهمل أيّ تفصيل صغير، ربما يكون مفتاح السر هناك، ولكي تكون واسع الخيال حريّ بك أن تقرأ أعمال أجاثا كريستي، أما الكتب التي أرغمت على دراستها في الكلية، فإياك أن تركن إلى قواعدها، لأنها استنسخت من قوانين القرون الوسطى، لذا عليك أن تلجأ إلى الأعراف القبلية،

فهي عصارة تجارب الأهالي وثقافتهم. افعل ذلك ولا تنس أن تبعث إلينا التقارير الشهرية عما يدور في المنطقة التابعة لسلطتك، وذلك لكي نقوم بدراستها وتحليلها، لأن ما يحدث عبارة عن ظواهر يعوزها الفحص والدراسة، ومن ثم نقرر الأسلوب اللازم للتعامل مع كل ظاهرة على حدة، وبينما أنت تطلب النجدة والمدد لمهاجمة القبيلة، لعل القتلة يتجولون على بعد خمسين متراً من مكتبك. أخرج لتمتزج بالأهالي ولا تنتظر أن يأتوا إلى مكتبك، فالشرطي الجيد كالحديد يصدأ في الأماكن الظليلة المريحة..." وتعجب من هذا الخطاب المفعم بالنصائح، وقال في سره بامتعاض: "كنت أحسب أنّ لي والداً واحداً ثرثاراً، لكن هذا المحافظ نسخة أخرى من العجوز القابع في سوق الربوع". وتساءل بعجب، من يكون أجاثا كريستي هذا؟ أيكون ضابط شرطة أجنبي؟ صحيح أن معظم كتب الشرطة منقول من أقسام العلوم الشرعية في كلية الشريعة، ألفها رجال دين منذ قرون غابرة، ما يجعلنا أقرب إلى الفقهاء...

أثناء ذلك سمع دوي الرصاص في الخارج، وخرج مسرعاً ممسكاً خطاب المحافظ في يده، وحرك سيارته ولحق بالفارين، لكنه وجدهم مكبلين بأيدي الجنود. واندهش وهو يرى النقيب الجريح حسون، وأمر بنقل المعتقلين إلى النيابة وأرفق تقريراً مختوماً عما جرى. واستغرب حين رأى الأحجار المحيطة بجسد والده، الذي أصيب فقط برصاصة واحدة في قمة فخذه، وبدت إصابته غير خطيرة، أكد ذلك طبيب المركز الصحي. وأتت قبيلتا آل طعيم وآل شهوان إلى المديرية، وكلهم جاؤوا من أجل القبض على منتهكي الأعراف، وأحسوا لأول

مرة بأنهم على وئام ويلتقون على هدف واحد. ووقفت ناجية بنت أبو الحيد أمام مدير الأمن بشيء من الاطمئنان وظلت تمتدحه وتشكره، ثم طلبت أن يسلمها القاتل لتأخذه وتطبق عليه حكم الأعراف، وتبرمت طويلاً حين أدركت أنه نقل إلى المحافظة، وعاتبت جابر على التفريط في عدو القبيلة، وساروا جميعاً إلى مشفى المديرية، ووقفوا أمام والده مأمون باحترام. كان على السرير ممدداً بهيكله الضخم يتبسم في وجوه القادمين بفرح، ويتحدث عن اللحظات التي أوشك فيها على الموت. كان ممتناً من نفسه وهو يحدثهم، وأغفل الجانب المتعلق بقراره في الانتحار، لأن ذلك لا يخدم دوره الكبير في جذب النقيب حسون إلى المخفر. وسلّم إلى ناجية بنت أبو الحيد العكاز، وكأنه قائد معركة جريح يعطي الراية لخلفه، وقال متفكهاً:

– خذي هذا العكاز، لم أعد أحتاج إليه، سيمنّ الله عليّ بعكازين أسير بهما.

وشهرته في الهواء بتأثر وغضب أمام عيون الرجال الذين انصرفوا وهم يتحدثون عن حيلة مأمون في الهروب من الموت، وتكررت جمل وتخمينات عديدة في أفواههم، "يا له من محظوظ"... "لقد نجا من الموت بأعجوبة"... "وضع أحجاراً في بطنه وصدره بعد أن رأى في المنام حلماً سيئاً"...

بعد أسبوعين عاد محمولاً على أكتاف الرجال إلى منزله في سوق الربوع، واعتنت به هند عدة أيام ثم اختفت فجأة، وازداد ألمه وثار غضبه بسبب عجزه، وصار وجهه الأسود أصغر من كل الوجوه، وظل يصرخ في غرفته، كيف تختفي ابنته دون أن تشعر أحداً بمكانها؟ وفطن

إلى أنها فرت وحبيبها منتصر، لا يدري كيف تكون ردة فعل حكيمة الأعراف ناجية بنت أبو الحيد. لقد بدد هذا الحادث نشوته بنجاته، وتمنى لو كان مات. لم يعد يستطيع الخروج والتباهي بما فعل في المديرية، لا ريب أن الناس سيجدون من موضوع فرار ابنته ومنتصر الموضوع الأبرز الذي يتحدثون عنه. لن يجد ما يفخر به بعد اليوم.

وأتت زعفران لتئن فوق رأسه، فهددها بالعكازين اللذين صنعا من أجل أن يسير بهما، وهربت امرأته من أمامه. كان غاضباً مهتاجاً ويظن أنها غفلت عنها بينما هو طريح الفراش. وبعث لولده جابر بعض الرسائل يطلب منه أن يبحث عن شقيقته، ويعيدها إلى المنزل قبل أن تتسبب بفضيحة مدوية للجميع، ولم يتلق منه أيّ ردّ.

كان يدرك أن جابر لا يحب أن يناقش مشاكل العائلة، إنه مشغول على الدوام بتطبيق القواعد العتيقة التي تعلمها في الكلية، لقد حصل على كلمة شكر من المحافظ وترقية من وزارة الداخلية لقبضه على الرجل المطلوب للعدالة، رغم أن والده هو الذي سحب النقيب حسون إلى باب المخفر بقصد أو دون قصد، ولكن لا وقت لديه ليفكر في ذلك، إنه قائد المخفر، ولا مجال هناك للعواطف والأحاسيس التي تتأجج في نفوس الأشخاص العاديين. لقد بات يؤمن أن الدولة هي عائلته الكبيرة، ويريد أن ينقطع عن كل ما يمت إلى عائلته الصغيرة بصلة، وأصبح يمحو كل أثر يوحي بانتمائه إلى فئة البيع، ولكنه مع ذلك يظل في أذهان الناس، نجل مأمون الجزار. وحين وصلت إليه رسائل والده قال بنوع من التهكم والتشاؤم: "من ينقذني من هذه العائلة التي تجلب لي الخزي والعار؟ هذه نتائج تربية والدي".

الفصل التاسع

تبخرت جميع آمالها، وأضحى حالها شائناً. في البداية فرّ حفيدها وفتاة من فئة البيع، وهذا شوّه سمعتها وطبع على وجهها الحزين القاسي لطخة سوداء، ثم بدأت تحاصرها مطالب اختيار نقيب آخر من رؤساء العشائر، وكان عليها أن تجد ذريعة مقبولة لتأجيل ذلك ريثما تبحث عن حفيدها التائه الذي لم يعثر عليه في أي مكان. هكذا انتهت ذريعتها نهاية مخجلة، وغدت تلاحقها رسائل الملازم جابر مأمون الذي أمسى يلحّ عليها بالتوجه نحو المحكمة لحضور جلسات محاكمة النقيب حسون. وامتلأت روحها بالحقد على هذا الضابط الذي بات يضايقها مؤخراً برسائله العقيمة. ألا يحقد عليها بفعل ما قامت به في سبيل اجتثاثه من المديرية؟ وتظن أن شكواها التي بعثت بها إلى المحافظ هي السبب، ومع ذلك لم يتم إقصاؤه عن منصبه إلا بعد أيام من المشاكل التي اتخذت طابع الفوضى والهرج في المديرية. وتمّ نقله إلى حاجز أمني صغير يقع على مشارف العاصمة، هناك تسنى له أن يقدم إلى السلطات الأمنية تقريراً بما حدث، وأشرف بنفسه على متابعة نقل التقرير إلى النيابة، كما استطاع إقناع عائلة عاطف شرهان برفع عريضة

شكوى للنائب العام ضد النقيب حسون. وأحيلت القضية إلى إحدى المحاكم الجزائية الابتدائية، وبدأ المعنيون بمتابعة الجلسات، ولم يتبق من أرباب الضحايا عدا ناجية بنت أبو الحيد، ومع ذلك لم يستطع جابر أن يقنعها بالمثول أمام المحكمة، ليس لأنها لا تثق به وحسب، بل إنها أيضاً لا تؤمن بهذا النوع من المرافعات الطويلة، ولا تملك وأفراد قبيلتها النَفَس الطويل والصبر.

كانت تعرف أن القاتل أو منتهك الأعراف كما كان يروق لها تسميته أمسى في قبضة الأمن بسجن ما في العاصمة، وأرادت أن تكتشف مكانه. لم يكن في رأسها حين ذاك خطة معينة، ثم اهتدت إلى فكرة ماكرة، ووجهت رسائل عديدة إلى السلطات الأمنية مبدية استعدادها للمثول أمام القضاء، وأبدت شكّها في أن يكون غريمها المدعو حسون آل شهوان في قبضة العدالة، وتسلمت منهم إشعاراً بالحضور، لأن خصمها يقبع خلف قضبان السجن المركزي بالعاصمة في انتظار المحاكمة. ومضت عيناها بخبث حين أدركت ذلك، وترددت ووقفت محتارة، لا تدري كيف تتصرف، ما زالت تجهل هذا النوع من المحاكمات، ولا تفقه شيئاً سوى بالأعراف.

في النهاية، اضطرت إلى استشارة المحامي الوحيد في المديرية، وكان هذا الشاب متشائماً، حديثاً على مهنته، وقد ألبس وجهه غلالة من الكدر والضيق وأبدى انزعاجه وقلقه حين سمع قضيتها، وأخبرها بصراحة أنّ عليها أن تجمع الأدلة والشهود وتخوض معركة قضائية طويلة الأمد، وأن تتحلى بالصبر وضبط النفس حتى يتم الفصل في القضية. وما أغضبها أكثر هو أن المحكمة ستتعامل مع النقيب حسون

على أنه متهم، حتى هذا المحامي الصغير ظلّ يردد لفظ "المتهم" وهو يحدثها، ما جعلها تتهمه بالتواطؤ مع القاتل الذي اقترف فعلته في وضح النهار وسط سوق محتشد بمئات المتسوقين والبَيَع. وعرفت أنه سيحظى بمحام يحاول إنقاذه مختلقاً كل الذرائع والحيل القانونية ليصرف عنه العقوبة أو يخففها على الأقل، وربما يعودون إلى وضعه الصحي ووجهه المحطم المشوه، وتأثير الكدمة التي في رأسه على سلامة عقله وحواسه، وليس هناك ما هو أيسر من تزوير تقرير طبي عن جنون رجل مصاب بعاهات صحية مثله، إضافة إلى أمور أخرى وتفاصيل صغيرة وكبيرة يعرفها رجال القانون سوف تدخل في مرافعات القضية، وكلها أو بعضها قد يحرف مسار الحكم المأمول، ويشمل ذلك حروب القبيلتين وأحقادهما القديمة ومقتل شقيقي المتهم وإصابة عشرين شخصاً في لحظة واحدة. وصاحت حكيمة الأعراف في وجه المحامي الشاب:

– لِمَ تصرّ على ترديد كلمة "متهم" ولا تقول "القاتل"؟ ابتعد عن طريقي يا هذا.

وانصرفت وهي في غاية الغيظ. تمنت لو تستطيع أن تطلق النار مباشرة على رأس غريمها، لينتهي كل شيء في لحظة وجيزة. ومكثت بضعة شهور في كازم محتارة لا تدري ما تقوم به، حتى وصلت إليها رسالة، تمنت ألا تكون من الملازم جابر مأمون، وطلبت من أحدهم أن يفضها ويقرأها. كانت بالفعل منه، وفزعت حين أدركت أن المحكمة قد قطعت شوطاً كبيراً على عكس ما توقعت، وقد اقترب ميعاد النطق بالحكم. فانتفضت بجنون لا يناسب مركزها وخبطت عكازها على

الأرض بقوة، وقالت كازة على أسنانها: عجيب يا ابن زعفران، تبشرني بقرب النطق بالحكم على حسون، عندئذ سنخسر كل شيء، سيفلت من العقاب المستحق لأمثاله. وكما يقولُ المثل: "الحجر من القاع والدم من رأس القبيلي[1] ومن كذّب جرّب".

واستدعت عشائر قبيلة آل طعيم إلى اجتماع طارئ، وفي باحة قرية كازم لجأت إلى آخر الأوراق التي تملكها، وهي إثارة حمية الرجال. ورآها المئات من محاربي القبيلة وهي تقص خصلات شعرها البيضاء حتى لم تترك شيئاً يغطي جمجمتها الكروية، ثم جعلت تنثرها أمامهم كصوف الخروف، هنا ثار غضب الجميع، وسالت دموعهم من الخزي والقهر، وعرفوا سبب إقدامها على ذلك، إنها تطلب الانتقام لا شكّ، وسمعوا منها ما يفيد بأن المحكمة ستحكم على نقيب آل شهوان بفعل إقدامه على قتل عاطف شرهان، وإطلاق النار على مأمون الجزار، وهذا يعني أن دماء النقيب أرحب قد ذهبت هدراً. وسرعان ما ذعر الرجال وانتفضوا، وساد اللغط وصيحات الاحتجاج، وفوضوها، كونها حكيمة الأعراف، بالنظر إلى حكم الأعراف مهما كان قاسياً ومأسوياً، وجاء ردها الصادم سريعاً مفاجئاً:

– استعدوا لانتزاع الغريم من أيادي الجنود الغاشمين.

وساد الارتياح، ثم ظهر بعض القلق في الوجوه، ولعل مبعث قلقهم يعود إلى جنون هذه الفكرة. لم تعد المدن مجهولة عنهم كما كانت في الماضي، إن مداخلها محصنة ومدججة بالعساكر

١ لن نخسر أكثر من ذلك. وقيل المثل هنا للوعيد والتحدي.

والحواجز، وليس من اليسير تخطي هذا الطوق المحكم. كان لا بد من خطة حصيفة.

فجأة اقتحم عنتر البرق الدائرة، وقفز الرجال صوبه لإخراجه منها قسراً، لكن حكيمة الأعراف منعتهم من طرده، لأن الأعراف منتهكة أصلاً، ولا ضير من انتهاكها في مثل هذه الظروف العصيبة، وأكدت لهم أن من اللائق سماع صوت ساعي القبيلة، فلطالما استمع وأطاع وحمل الأخبار والرسائل. واقترح عنتر البرق عليهم القيام بنزهة عائلية إلى المدينة، ففي هذه الحالة سوف يُفتَّش الرجال، ويسمح بمرور ما عداهم، ففي أعراف الشرطة لا يتم تفتيش العائلات المؤلفة من الوالدين والأطفال.

ووافق رؤساء العشائر على الفكرة واستحسنوها، وتأهبت العائلات لتقوم برحلة نقاهة جماعية إلى العاصمة، وصار كل فرد في القبيلة مجبراً على الحضور، ولم يعف من المهمة سوى المرضى والمقعدين والرضّع والمرضعات. وقد استجاب البيع أيضاً وأتوا وعائلاتهم، وأعفي مأمون من هذه الرحلة، لكنه أصرّ على الحضور وجاء متوكئاً على عكازيه. سمع أنهم ماضون في نزهة إلى المدينة، وأحبّ أن يكون دليلاً يرشدهم إلى شوارعها ومعالمها المختلفة. وجلب معه زعفران مؤكداً انتماءه إلى القبيلة، ورفع العكازين في الهواء مشيراً إلى أنه في حال يسمح له بالمشاركة، ثم صعد بحذر إلى قلب إحدى المركبات التي استؤجرت لنقلهم إلى العاصمة، وهلل الرجال ورفعوا أيديهم بالتحية لذلك الرجل الضخم المخلص. وسار موكب كبير يتقدمه رؤساء العشائر وعائلاتهم وحكيمة الأعراف، وكثير من الأرامل والأطفال. كانوا

جميعاً متحمسين فرحين يضحكون بصوت عالٍ كأنهم فعلاً يقومون بنزهة حقيقية للتمتع بمناظر جميلة لم يروها من قبل.

***

كان الملازم جابر مأمون يقف على الحاجز الأمني يزاول عمله، مستقيماً بوضوح قرب لوحة عريضة كتبت عليها تلك الجملة اللطيفة: "توقف من فضلك، هنا نقطة تفتيش".

وانتشى بعض أفراد القبيلة حين رأوا الملازم جابر، وظنوا أنه سيذلل أمامهم السبل ويرفض فكرة تفتيشهم، والبعض الآخر انتابه التشاؤم، ومنهم حكيمة الأعراف التي تدرك أنّ هذا الشاب لا يولي أمر انتمائه للقبيلة وزناً كبيراً، وقد رفض تسليم منتهك الأعراف في وقت سابق. وما إن نظر الملازم جابر إلى ذلك الكم الهائل من رجال القبيلة والنساء والأطفال، حتى اعتراه الذهول، ولمح أمه زعفران المصفرة الملامح بفعل السفر، ورأى وجه حكيمة الأعراف المتصلب، ووجوه الرجال المخاتلة الماكرة، فظن أن كارثة قد حلت بالمديرية، وأمر الجنود بإيقافهم ليتسنى له النظر في أحوالهم. ولم تستطع أمه المصابة بالدوار أن تبادله الكلام، بالكاد استطاع أن يسحبها إلى استراحة قريبة، وسحب والده مأمون قسراً وهو يصرخ في وجهه:

– لقد نجوت بأعجوبة من رصاص آل شهوان، لكنك مصرّ على السفر. انظر إلى نفسك، أنت تشكل عبئاً عليهم.

وساعده جنديان على الخروج، فقال بصوت يائس:

– أريد أن أقدم شيئاً لهذه المرأة التي وقفت معنا في أحلك الظروف، وبفضلها درست وصرت ضابطاً في هذا المكان.

– أتدرك ما يريدون؟

– لا أدري يا بني، إننا نقوم بنزهة.

– لا أظن ذلك صحيحاً، إنهم يخططون لفعل شيء ما.

فكر مأمون وقال في سره: أين يذهب كل هؤلاء الناس على متن خمسين سيارة؟ يا لي من مغفل! كيف لم أسأل عن الغرض من النزهة؟ وأودع الملازم جابر والديه في مكتبه، وأمر الجنود أن يجلبوا لهما وجبتين خفيفتين، وعاد بسرعة ليعترض طريق الموكب، وصاحت حكيمة الأعراف بحزم:

– ماذا تريد علاوة عن أمك وأبيك؟

– لا أصدق ما تفعلون!

– عليك أن تصدق، سننتظر النطق بالحكم.

– هذا لا يعقل.

وقاده حدسه إلى أنهم مجانين، واستغرب من استجابة ناجية للحضور بعد رفضها الشديد تقديم دعوى بالقتل ضد النقيب حسون. أخذ يمر على سيارات الموكب ملقياً النظرات الفاحصة داخلها، ولاحظ ارتباك وقلق النساء وانتفاش أثوابهن، وانكسار نظراتهن للأسفل، وحاول طفل صغير أن ينتزع شيئاً ما يقبع تحت قدميْ أمه، فجُوزي بقرصة مؤلمة انفجر إثرها بالبكاء. لاح في عيون أفراد القبيلة كثير من الغموض والارتباك، حتى بات يشك في أنهم فعلاً ينوون حضور النطق بالحكم، وأصدر أمراً غريباً بتفتيش النساء، ولكن لم يجرؤ الجنود على الاقتراب

ناحيتهن خطوة واحدة، وقرر أن يتحدث إلى قسم العمليات في وزارة الداخلية أن يبعثوا فريقاً من الشرطة النسائية إلى الحاجز، وصار زملاؤه الضباط يهدئون من روعه، ويثبطون عزيمته، كانوا يظنون في قرارة أنفسهم إنه يقوم بتضخيم الموقف.

ظل مرتبكاً ينتفض من الغضب والإحباط، لا يعلم رفاقه ما يجول في نفسه. ليس لديهم أي فكرة عن الخطر المختبئ بين أقدام النساء والأطفال. ردد بملء الصوت، هنالك أسلحة، رجال القبيلة يخططون لفعل شيء مقيت في المدينة، أعدادهم الكبيرة تنبئ بذلك. اختلط صوته بأبواق السيارات الواقفة، وصيحات السائقين المحتجين على هذا التوقف القسري. وأمسى الضباط والجنود يرنون إليه باستنكار. كان الموكب يشكل زحاماً وضغطاً شديداً على حركة المرور في الحاجز، والسيارات الأخرى تطلق أبواقها بجنون، وصاحت حكيمة الأعراف بنفاد صبر:

– ماذا تريد يا ابن زعفران؟ لماذا تحتجز نساء القبيلة وأطفالها؟ سيلصق بك العار كما لصق بوجوه منتهكي الأعراف.

ردّ بصوت متحشرج:

– أنتم تنوون الشر، أرى ذلك جلياً في عيونكم، بل أتضوع رائحة الغدر من أنفاسكم. والتفت إلى زملائه: أنا أعرفهم من قبل، إنهم في طريقهم لاقتراف عمل سيئ في المدينة.

– لن تستطيع أن ترد أقدارنا، أو تتكهن بنوايانا.

– الرجل في السجن أيتها الأم، وفي آخر هذا الأسبوع سيحكم عليه بالموت.

– أنت تهدر الوقت بلا جدوى، أتريدني أن أفوت آخر غايات حياتي؟

– لا أفهم شيئاً، ماذا تظنين أنك فاعلة بهذا العدد الكبير من الرجال والنساء والأطفال؟

ضحكت بمرارة كما لم تفعل من قبل:

– لم يعد لديّ خيار، ابتعد عن طريقي، أنت مغفل كبير يا بني.

ورمقت الجنود المتسمرين قريباً من الحاجز، وأعقبت بصوت شخص خارق ذي شأو:

– هيا، افتحوا الحاجز للنساء أم تريدون أنتم أيضاً انتهاك الأعراف؟

رفع الجنود الحاجز غير مبالين بصراخ الملازم جابر:

– ماذا تفعلون أيها الحمقى؟ في حوزتهم سلاح، إنهم ينقلون الحرب إلى العاصمة، لأنها أهملتهم طويلاً، لم تتحولوا إلى جنود أمن بعد، ما زالت أعراف القبيلة تسري في عروقكم...

ضاع صوته وسط هدير المحركات وأبواق النصر التي أطلقها سائقو الموكب وهم يعبرون في طريقهم نحو المدينة. ولما انقشع الضجيج وخلا المكان من الزحام، بحث عن سيارته الخاصة، ثم تذكر بحنق أنها ما زالت تحت التصليح في قسم الصيانة، بينما سيارات الشرطة التابعة للحاجز الأمني تجول في الجوار، وجعل يناديهم باللاسلكي طالباً منهم القدوم. ولم يهدأ له بال حتى صعد في سيارة إسعاف قديمة الطراز، كانت تقف برتابة إلى جانب المكتب التابع لقسم المرور. لقد تذكر أخيراً أنه يملك سلطة تحريكها في الأوقات الطارئة، وأسرع إليها وقادها محاولاً أن يطير بها خلف الموكب، لكنها لم تكن عند

المستوى المرغوب من السرعة، ومن محاسنها أنها المتوفرة لديه في تلك البرهة الحرجة، وأنها تسير بسرعة معقولة تجنب المرء خطر الانقلاب، ومع ذلك ضغط على دواسة السرعة بقوة، تتملكه وساوس كثيرة. وجد نفسه متورطاً في دخول جيش من الرجال والنساء والأطفال إلى المدينة، وهم من أبناء قبيلته، وإن ارتكبوا أي حماقة فسوف يظن المسؤولون في الوزارة أنه متواطئٌ معهم. أمسك جهازه اللاسلكي، وبعث بلاغاً طارئاً إلى غرفة العمليات بوزارة الداخلية.

كان البلاغ يتضمن قيام مجموعة كبيرة مريبة من رجال القبائل وعائلاتهم باقتحام الحاجز، وهم في طريقهم صوب العاصمة، لذا يجب ضبطهم وقطع الطرق المؤدية إلى السجن المركزي حيث يقبع أحد السجناء من خصومهم. كانت محاولة بائسة منه لتصحيح الخطأ وإشاحة التهمة عن نفسه. كان الموكب قد سلك الطريق التي لم يتوقعها أحد، كانوا قد سمعوا دوي دوريات الشرطة تصدر من كل الأماكن، فانعطفوا عند أقرب شارع فرعي، وغاص الأفراد والعائلات وسط الأحياء الفقيرة القذرة في أطراف المدينة.

***

تعثر الملازم جابر في طريقه بعشرات الحواجز وبضباط ذوي رتب كبيرة في الشرطة يعرفهم ويعرفونه، وهؤلاء بوسعهم إلحاق ضرر فادح به فيما لو أرادوا ذلك. سمع صفّارات سيارات النجدة تدوي، وشاهد كثيراً من التعزيزات الأمنية ونقاط التفتيش، وأتت ناقلات الأمن

المكشوفة محملة بجنود مكافحة الشغب، وانتظروا قدوم الموكب في المداخل المؤدية إلى السجن المركزي، وسُدَّت الشوارع القريبة منه بالحواجز والكتل الإسمنتية الضخمة والأسلاك الشائكة، وطال انتظارهم، ثم أخذت الصفارات تتلاشى حتى انطفأت من تلقاء نفسها، وعادت العربات أدراجها، وارتفعت الحواجز والكتل وأزيلت الأسلاك، وكلف هذا خزينة الوزارة مئات الآلاف من الريالات، وعلى إثرها أُلغي البلاغ من أقسام العمليات في المخافر، وانشغل القائمون على الأمن ببلاغات وقضايا أخرى ومشاكل جمة.

بقي الملازم جابر وحيداً يفكر في هذا الموضوع، وقام بجهد مضنٍ يائس في البحث عن أصحاب الموكب داخل الفنادق والنزلٍ وفيٍ بعض الأحياء الشعبية، ووقف على أبواب عينة عشوائية من المساجد والأسواق المزدحمة، واستجوب صاحب الفندق المملوك لعائلة النقيب أرحب آل طعيم، وفتش أرجاء الغرف، ثم قفل راجعاً إلى مقر عمله وهو في غاية الاستياء، ومع ذلك ما زال يظن أن أصحاب الموكب مختبئين في مكان ما من المدينة، وأنهم يتحينون الفرص لعملٍ شريرٍ، ولكنه لم يجرؤ على البوح بذلك لأحد. لقد صار هو نفسه يشك في ما يجري.

***

شوهد الموكب في اليوم التالي وسط المدينة، وتم التبليغ عنه وهو يتجه نحو شارع السجن المركزي، وبما أنه تم تصنيف البلاغ السابق كاذباً،

فقد تم تجاهله هذه المرة، ولم تنصب حواجز تحول دون وصوله إلى السجن، ولم تتحرك دوريات الشرطة إلا بشكل محدود، وكانت الجهة التي قدمت البلاغ هي شرطة المرور، وقد أجاب وكيل وزارة الداخلية على عمليات المرور ساخراً بأن عليهم تسجيل مخالفات سير ضد السيارات المريبة. وعندما سمع الملازم جابر النداء بجهازه اللاسلكي عرف أن الموكب متجه نحو السجن، لكنه جبن عن المخاطرة بتأكيد البلاغ، وأخذ سيارته، وانطلق نحو وسط المدينة بسرعة كبيرة، مطلقاً صفارة الشرطة التي ترتجف لسماعها أفئدة الناس، وغرق في الزحام بعض الوقت ووقف أمام إشارات المرور الحمراء، واستطاع أخيراً أن ينفذ إلى شارع السجن، واندهش لكثافة دوريات الشرطة والحواجز هناك.

عند أول حاجز لم يُسمَح له بالعبور رغم أنه أبرز بطاقة هويته التي تحمل منصبه في الشرطة، ولم يكن هناك في محيط السجن سوى فريق القسم الجنائي وفرق الإسعاف، وكانوا يمارسون أعمالهم المعتادة، يصورون أجساد الضحايا، ويجمعون الأدلة والهويات وينقلون المصابين إلى المشافي القريبة. وسأل الجنود المنتشرين في المكان عما حدث رغم توقعه، لكن لا أحد يجيب بسبب العجلة والاندفاع، وتوقع أن تكون هناك مجزرة قد حدثت، وهو بحكم عمله في الشرطة يستطيع أن يقيس حجم الحوادث من خلال الزحام وعدد دوريات الشرطة المحيطة بمكان الحادث.

لمح زميله في الكلية الملازم صوفان محمود الذي يعمل في قسم البحث الجنائي، وهنا التقيا بمصافحة عابرة خفف من حرارتها سوء

الموقف، وجذبه نحو الداخل وهو يقول ليبرر ذلك للضباط الذين لا يستطيعون المرور إلى الداخل:

– الملازم جابر، هو صاحب البلاغ الأول، ويعرف أشياء كثيرة عن ملابسات الحادث.

صاح ضابط ميداني برتبة عقيد متبرماً:

– بل أنتم يا خريجو الكليات تحتقرون ضباط الميادين، وتجاملون بعضكم بعضاً.

– العفو يا فندم، إننا نقوم بعملنا ولا نريد الفوضى.

وكما كانت الأوراق في ذلك الخريف تسّاقط عن الأشجار على الأرصفة وأفنية المنازل، كذلك كان محيط السجن وفناؤه الداخلي وممراته وعنابر السجناء تعج بالضحايا والجرحى، وهم خليط عجيب من جنود ورجال قبائل وسجناء.

في الشوارع القريبة عمت الفوضى بتدفق الآلاف من المواطنين الذين يريدون أن يقفوا على الحادث، وحدث شغب وإطلاق نار وقتلى، وأقبل بعض الصحافيين المحليين ومراسلي القنوات الفضائية، وأخذوا يلتقطون الصور من خلف الحواجز الخرسانية، ثم أخذوا يساومون الجنود بالسماح لهم بالدخول إلى موقع الحادث، ولكن الجنود، ومعظمهم من الأميين الذين جبلوا على التكتم والخوف من وسائل الإعلام، جعلوا يدفعون المصورين بعيداً ويصادرون كاميرات ومعدات التصوير، متذرعين بالتعميم القادم من الداخلية إلى منتسبيها بعدم تسريب أي معلومة حول ما جرى. ووقف جابر أمام حكيمة الأعراف، وقد ارتخى ذراعاها باستسلام تام، ولاح جوار قبضتها

الشمال الساكنة رأس مقطوع مشوّه الملامح يخص النقيب السجين حسّون آل شهوان.

كان في وجهها الشاحب وعينيها المفتوحتين ألق انتصار غريب، وكلما نظر حوله يصطدم بمنظر الدماء والجثث، فأجفل إلى حمام قريب، وأفرغ ما في معدته، فيما ظل فريق الإسعاف منهمكاً بالبحث عن الجرحى في الممرات والحجرات الداخلية للسجن. وبعد كل جولة من البحث الدؤوب يخرجون حاملين شخصاً من الحراس أو رجال القبيلة، بينما كانت أجساد النساء والأطفال منتشرة في الفناء الواسع، ومن ينظر إليهم يظنهم موتى، واستغرب جابر أن تكون أجسادهم بلا جروح، وهمس في أذن صديقه صوفان بتأثر:

– وهؤلاء كيف ماتوا؟

– إنهم فاقدو الوعي وحسب.

– وكيف ذلك؟

– ألا تظن إنهم صعقوا بالكهرباء؟

– ولكن أسلاك الضغط العالي مرتفعة على السياج! هل حاولوا تسلق الجدار؟

– لم تعد نبيهاً كما كنت في الكلية.

ومضى يفسر له بعض الأشياء من واقع وجوده في الميدان، راح يحرك أنامله في الهواء، ويقوم بحركات تمثيلية تحاكي الوقائع التي يظن أنها حدثت، وعند جزء من الحديث سد أنفه بالإبهام والسبابة، وظهرت على ملامحه تكشيرة غريبة، ثم سقط فجأة على الأرض بلا حراك. في البداية ظن أن صديقه صوفان ما زال يمارس المحاكاة، لا

ريب أنه يريد إدهاشه والاستحواذ على إعجابه، وقد فعل ذلك بكل تأكيد، ولكن لِمَ لا ينهض؟ ها هو يفزعه الآن.

أحس الملازم جابر مأمون بالتهاب حاد في أغشية أنفه، كانت هناك رائحة لاذعة مخدرة تسري في محيط السجن، تتسرب ببطء وقسوة من داخل الزنزانات المظلمة. كان هناك بعض الجنود يتساقطون هنا وهناك، ورأى فريقاً من المسعفين الذين يرتدون الكمامات يغادرون المكان بسرعة، وهو كرجل عسكري لا يجهل مثل هذه الرائحة، وإن لم يكن تضوّعها يوماً ما، فقد درس عنها، وعرف أعراضها، وتستخدمها الفرق السرية التابعة للأنظمة العسكرية في دول العالم الثالث للتخلص من معارضيها، هكذا قال المحاضر في القاعة.

فكر الملازم جابر في أن مثل هذه السلطات لن تتردد في قتل كتيبة من جنودها لتبرر للعالم أنها تكبدت خسائر، ولم تجد حلاً آخر سوى تصفية المهاجمين، ولم يجهد نفسه بالتفكير في اسم الغاز السام، لأن حياته أمست في خطر.

سد أنفه بإحكام وراح يتخبط في مشيته مبتعداً عن السجن، وركض في الشارع وهو يتمايل باحثاً عن الماء، يجب أن يرش وجهه وأنفه بالماء ليخفف من تأثير المادة السامة، هكذا نصح المحاضر. وتوغل بين أزقة ضيقة داخل حي شعبي وضيع، كان الماء الملوث يلطخ أرضيته بما يخرج من بلاليع المنازل الشعبية الصغيرة، وأطفال قذرون شبه عراة يلعبون بلا اكتراث أمام أبواب تالفة ونوافذ مخلّعة، يحيط بهم الذباب بمجاميع هائلة وكأنه يقيم احتفالاً لتمجيد القذارة الخالدة في الحي. صرخت النساء على الصغار أن يعودوا، وسرعان ما تواروا مرعوبين

كصيصان داهمتها حدأة على غفلة، وأطلت بعض الرؤوس من خلف الأبواب بحذر، فأشار إليهم أن يعطوه الماء، لكنهم لم يفطنوا إلى حالته الحرجة، بل أقفلوا الأبواب في وجهه واختفوا. حدس أن هذا الحي يتعرّض لمداهمات متكررة من رجال الأمن، وأن بذلته الرسمية تخيفهم، كانت حالته تزداد سوءاً، فاضطر إلى المضي قدماً والاستجداء من أشخاص آخرين، لكن الجميع كانوا ينظرون إليه بارتياب، ويسحبون رؤوسهم إلى الداخل كالحلزونات اليقِظة، وعند باب منزل أشد وضاعة وقذارة رأى أخته هند، أو فتاة تشبهها، بل إنها امرأة حامل منهمكة في عملها، كانت تملأ بعض الطشوت البلاستيكية من خزان صدئ فضي اللون، خشي أن يخطئ التقدير وتكون تلك امرأة أخرى، لعل هذا الوسواس هو أحد أعراض الغاز السام الذي استنشقه قبل قليل، فكر الملازم جابر، ثم رأى شاباً وسيماً قرب المدخل الصغير، كان ذلك هو منتصر بلا شك، فأيقن أنه لا يتوهم، أراد أن يصرخ مستغيثاً، لكن الكلمات عجزت عن الخروج من حلقه الملتهب، وأخذ يتخيّل شفتيه وتقاسيم وجهه ذات حجم هائل، كان يود أن يطلب منهما أن يرشاه بالماء، ثم يخبرهما أن القبيلة غدت فارغة من حرّاس الأعراف، لكن قد يظنّان أنه جاء للقبض عليهما، ومن ثمّ يفرّان منه كما فعل أفراد الحيّ، دار هذا في ذهنه، ومع ذلك أحسّ أنهما الأمل الأخير الذي بقي لديه، لذا اقترب مترنّحاً رانياً إلى شقيقته بتوسّل، وتسمّر الشاب بخوف حين رآه، وحملق في وجه المرأة وأخذ يشير لها أن تنظر إلى الخلف، فقالت بإعياء:

– ماذا بِك يا رجل، ألا تساعدني بدلاً من الحملقة في وجهي؟

بالكاد استطاع النطق قائلاً بذعر:

– انظري، هذا أخوك جابر، عيناه حمراوان جاحظتان، ووجهه محتقن منتفخ.

وقع جابر قرب قدمي هند فاقداً الوعي، واصطدم رأسه بأحد الطشوت، وأريق الماء على الأرض، وبلل جسده، فأجفلت أخته وحل بها الفزع، لكنها لم تفرّ، لأنها لم تجد في تصرفاته ما يوحي بأنه جاء ليؤذيها، بل كان المسكين يرتعش بشكل هستيري ويتنفس باضطراب كالمصاب بالربو. وهنا صرخ منتصر على جيرانه الخائفين أن يأتوا لمساعدته، فخرجوا كالنمل من أبواب الأقبية والمنازل الصغيرة، وحملوا الضابط المريض بعيداً عن الحي القذر.

برنامج "آفاق" لكتابة الرواية

أطلق الصندوق العربي للثقافة والفنون برنامج "آفاق" لكتابة الرواية في عام ٢٠١٤، ساعياً لدعم مواهب روائية شابة ومواكبتها وتمكين قدراتها الروائية والإبداعية. امتدّ البرنامج على ثلاث دورات، مدة كل دورة سنة ونصف، وتتضمّن كل منها ثلاث ورش عمل مكثفة. أقيمت الدورة الأولى (٢٠١٤) بالشراكة مع محترف نجوى بركات، بينما أشرف الروائي اللبناني جبّور الدويهي على الدورتين الثانية (٢٠١٥) والثالثة (٢٠١٦).

اليوم، وبعد انتهاء الدورة الثانية، يمكن التأكيد أنّ هذه التجربة كانت أكثر عمقاً وتأثيراً ممّا توقّعنا، إذ لا يمكن وصف أثر هذه اللقاءات المكثفة، بما حملته من نقاشات وتبادل آراء بين الكتّاب والمدرّبين، على أفكار الروائيين المشاركين ومشاريعهم. كما لا يمكن تثمين الرابط الإنساني الحميم الذي وُلد وتوثّق بين أفراد لم يلتقوا من قبل، فوجدوا أنفسهم يتشاركون الأحلام والأسرار، الهموم والتطلّعات.

يسرّ "آفاق" أن تكون جزءاً من هذه التجربة الفريدة، وأن تسهم بإغناء المكتبة العربية بخمس وعشرين رواية متميّزة من تسعة بلدان عربية، لكلٍّ منها أسلوبها وصوتها الفريد. بعضها كان أقرب إلى السرد الشخصي، بينما عالجت أخرى مواضيع ذات أبعاد اجتماعية وسياسية، ولكن، على رغم العوالم الخاصة لكل منها، لم تبتعد عن هموم العالم العربي وتساؤلات شبابه وطموحاته التي نقلها كتّاب هذا البرنامج بأسلوب مشوّق وراقٍ.